

برخداست

عبد الوهاب

ce
810

مطبعة النجاة

١٩٣٩ - ١٣٥٨

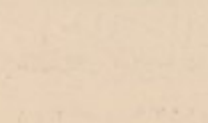
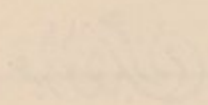
برخاست

عبد الوهاب

مطبعة الرسالة

١٩٣٩ - ١٣٥٨ م

a35967



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

— ١ —

بدأتُ أسفاري في البلاد الإسلامية قبل عشر سنين ، إذ سافرت إلى اسطنبول سنة ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩ م) وتتابعت الأسفار من بعدُ فسافرت إلى الشام بعد سنة وإلى العراق السنة التالية . ثم سافرت إلى إيران سنة ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) للمشاركة في حفلات الفردوسي . وإلى العراق السنة التالية فأقمت بها سبعة أشهر .

ثم عاودت السفر إلى تركيا سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) وجُلت في أرجاء الأناضول . وكان طريق الذهاب والإياب على الشام . فتلبثت به قليلا كما حرصت على التوقف به في كل أسفاري إلى العراق وإيران وشرفت بالسفر إلى الحجاز سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) . وعدت إلى العراق هذا العام للمشاركة في تأيين الملك الغازي رحمه الله .

وأما أسفاري إلى أوروبا فقد تكررت بين عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٧ م . ثم كانت سفرتي إلى بروكسل لحضور مؤتمر المستشرقين صيف ١٩٣٨ .

(ج)

وكانت أسفاري في الشرق طويلة المدى قصيرة الزمن . فلم ينفسح الوقت لوصف ما أشاهد وما أحس أثناء الأسفار . وكانت كتابتي عن بعض الرحلات تتأخر أشهراً بل سنة أو سنتين . وكلما ملت نفسي على هذا التأخير أجابت : إن المشاهد التي لا يَبقى أثرها في النفس سنين لا تستحق التسجيل .

وأما أسفاري في أوربة فلم أهتم كثيراً بتسجيل مشاهدها ، إلا أربع مقالات يجدها القارئ آخر الكتاب . وقد آثرت أن أقدم إلى القراء هذه العجالة راجياً أن تتاح لي أسفار أخرى أقدم وصفها للقراء أكثر تفصيلاً وفائدة وإمتاعاً .

ومهما يكن فهذه صفحات أعربت فيها عما رأيته وشعرت به في البلاد الإسلامية ، أرجو أن تجدى في التعريف بأحوال هذه البلاد . ثم أؤمل أن تكون عوناً لناشئة الأدب على هذا الضرب من الكتابة الوصفية الذي هم في حاجة إلى إتقانه .

والله سبحانه أسأل أن يرزقنا الإخلاص في الفكر والقول والعمل . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

عبد الوهاب عزازم

[رمضان سنة ١٣٥٨]

فهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
إيوان كسرى	٥٠	الفصل الأول	
احتفاء الشيعة بوفد مصر	٥٥	بين القاهرة وحلب :	
كربلاء والنجف	٥٨	١ من قنطرة القناة إلى القدس	
الكوفة	٦٦	٥ مشاهد القدس وبيت لحم	
إلى الحلة فبابل ببغداد	٦٩	٨ من القدس إلى الناصرة	
إلى كركوك	٧٣	١٠ من الناصرة إلى طبرية فدمشق	
يوم سامرا	٧٧	١٣ مشاهد دمشق	
في مزارات الصوفية ببغداد	٨٣	١٩ من دمشق إلى بعلبك خمص	
توديع الوفد	٨٦	٢٠ من حمص إلى حلب	
تدمر	٨٩	٢٣ مشاهد حلب	
إلى دمشق فبيروت	٩١	٢٥ معرة النعمان	
قصيدة في وداع بغداد	٩٥		
الفصل الثالث		الفصل الثاني	
بين القاهرة وطوس		بين القاهرة وبغداد	
١٠١ من القاهرة إلى بغداد		٢٨ من قنطرة القناة إلى حيفا فدمشق	
١٠٣ من بغداد إلى خاتقين		٣١ من دمشق إلى بغداد	
١٠٥ إلى قصر شيرين		٣٨ بغداد	
١٠٧ من قصر شيرين إلى همدان		٤٢ مشاهد بغداد	

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الفصل الخامس		من همدان إلى طهران	١١١٣
بين القاهرة واسطنبول		طهران ومؤتمر الفردوس	١١٣ ط
دمشق	٢١٧	من طهران إلى نيسابور	١١٧
قصيدة في دمشق	٢٢٢	نيسابور والحيام والعمار	١٢١
من دمشق إلى القسطنطينية	٢٢٥	بنى وبين رشيد الياسمي الشاعر	١٢٨
المتحف العسكري في اسطنبول	٢٣١	مدينة المشهد	١٣٦
متاحف طوب قبو سراي	٢٣٨	طوس	١٤٤
متحف الأوقاف	٢٤٩	من طوس إلى طهران	١٤٩
في جوامع استنبول	٢٥٢	من طهران إلى قم وأصفهان	١٥٥
إلى علية	٢٥٨	أصفهان نصف جهان	١٦٢
وداع الآستانة	٢٥٩	من سلطان آباد إلى بغداد	١٧٣
بروسة	٢٦٣	من بغداد إلى الاسكندرية	١٨٠
من استنبول إلى اسكيشهر	٢٦٩		
أنقرة	٢٧٢	الفصل الرابع	
من اسكيشهر إلى قونية	٢٧٩	عودة إلى العراق	١٨٨
من قونية إلى أذنة	٢٩٤	البصرة	١٨٩
في طرسوس ، علي قبر المأمون	٢٩٩	الموصل	١٩٨
الرجوع إلى أذنة	٣٠٥	جولة في شمال العراق	٢٠٣
من أذنة إلى حلب	٣٠٩	من الموصل إلى مضارب شمر	٢١٠
من حلب إلى حمص	٣١١	فسنجار	
إلى دمشق	٣١٣		

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الفصل السابع		الفصل السادس	
مع زكريات أذربا		في الحجاز	
على بحيرة وندمير	٣٤٦	حول الكعبة	٣١٥
من القاهرة إلى بروكسل :		في خيف منى	٣١٩
في سويسرا (إلى بئينة)	٣٥٠	في غار حراء	٣٢٥
في السفينة (إلى بئينة)	٣٥٩	الحج	٣٣٠
من جنوا إلى سويسرا (إلى مية)	٣٦٤	في المدينة المنورة	٣٣٩



بين القاهرة وحلب^(*)

في اسبوعين

— ❦ —

— ١ —

هذه قنطرة القناة والساعة عشر من مساء السبت ثامن عشر شعبان سنة ١٣٤٨ هـ (ديسمبر ١٩٣٠). وما أكثر ما تثير القناة في النفس من ذكر وما تنبه فيها من عبر الغابر والحاضر ! عبرنا في ثلاث دقائق وتقدمنا لتعليم جوازات السفر ف شعرنا أن بين سينا ومصر حداً . لم تُطلب الجوازات هنا وبيننا وبين حدود مصر بيدااء فيحاء يضرب فيها القطار ساعات ؟ قلت لنفسى دعى هذا السؤال السياسى الآن وخذى الأهبة للسفر . سمعنا ونحن ندخل المحطة أن قطارنا لا يسير إلا والساعة خمس من الصباح . وكان موعده الساعة الحادية عشرة . وكيف بسبع ساعات تمر في انتظار السفر ؟ وكيف يتدارك هذا التأخر في سفرة فصلت ساعاتها على مراحلها تفصيلاً

(*) هذه مقالات كتبت أول عهدى بالبلاد العربية ورجالها ، وأنا أعرف اليوم عن العرب وبلادهم ما يتضاءل بمجاوبه هذا الحديث . ولكنى أبقي عليه احتفاظاً بذكرى البلاد العربية أول ما أثرت في نفسى .

محكماً ؟ كيف بانتظار ساعات سبع في هواء بارد ومكان غير مجهز للراحة ؟
إن المزمع سفرأ بعيداً لا بد له أن يتزود الصبر ، وأن يوطن نفسه على احتمال
ما يلاقيه من مكاره . شرعنا نمشي ونتحدث ، وأوى بعضنا إلى منتدى
هنالك لشرب الشاي والقهوة حتى أقبل القطار والساعة واحدة فهرعنا إليه
واتخذنا أمكنتنا فيه . وبعد قليل فرقتنا الطبائع والمنازع فنامسارع إلى
النوم ، ومنا مضطجع بعد على القطار ساعات الانتظار ، ومنا المازح الضاحك
ومنا الذاهب في أحاديثه مذاهب توقظ النائم ، وتقطع على المفكر مذاهب
الفكر . وبعد لأى تحرك القطار فسار . وأصبحنا نطل على بيداء ليس فيها
إلا رمال تتخللها أعشاب وأشواك ، ولكنها سيناء ! والله ما ذا ضمنت سيناء
من الخبر والعبر ! فيها الطور الذى آنس موسى من جانبه نور الهدى ،
وعليها مد الزمان وجزر بالغير سعيدة وشقية ، والجيوش هازمة ومهزمة ؛ فتمثل
جيوش القراعنة ذاهبة إلى الشام وآية أو جيوش بابل وفارس مطرودة
وطاردة ، ثم جيش الإسكندر وجيوش الرومان ، ثم جيوش العرب
والترك ؛ دول بعد دول ، وسطور تمحو في صحائف الزمان سطوراً ، كما خط
في القرطاس سطر على سطر . تراجمت الذكريات ، وترادفت العظات ،
حتى أشفقت النفس فالتفت الخلاص تسرح الطرف في الصحراء . فلما
عادت الصحراء بذكرياتها كرة أخرى هربت إلى حديث الأصحاب ،
وطعام الصباح والقطار يطوى الأرض التى تبادت بالمسافرين ، ومطلت
السائرين . وددت حينئذ أنى أقطع الصحراء على جمل مترسماً طريق المتنبى

أعد المراحل التي عدها في قصيدته حين خرج من مصر مغاضباً كافورا .
وقف القطار عند غزة بعيداً من البلدة . وهي تبدو على ربوة بين أشجار
كثيرة . ولغزة من حادثات سيناء نصيب موفور . ولكن الخيال الذي
يشفق من التوغل في التاريخ آثر أن يمثّل أبانواس منشداً قصيدته التي
تصف طريقه إلى الخصيب :

طوالب بالركبان غزة هاشم وفي الفرما من حاجهن شقور
وجاء بعض الصبيان يعرض الفاكهة وبعضهم يعرض السميد منادياً
« اكسر الصفرا » يعني « أفطر أو غير ريقك » كما يقال في مصر .
وكم نخلنا حين جاء أحدنا يحمل هذه الكلمة ما لا تطيق من شرحه ،
فيقول : إن الصبي ينادى بكسر البرتقالة الصفراء لتعرف جودة برتقاله
وأما البرتقالة الحمرة فلا شك في جودتها !

طالت وقفة القطار عند غزة ينتظر الخبر عن الطريق وقد قطعته
السيول . ثم وقفنا وقفة أخرى طويلة عند « أسدُد » وكانت السماء صحواً
والهواء دفيئاً فمشينا بجانب القطار ثم انتحينا ناحية للغداء فبطشنا « بخروف
مندور » حروف أحضره بعض الرفقاء مندور افندى إذ ركب من محطة
ميناء القمح ، وكان إحدى فكاهات السفر . وقد شاركنا في الطعام بعض
المسافرين من شرقيين وأوربيين حينما رأوها معركة فيها للجميع متسع .
وسار القطار والساعة اثنتان بعد الظهر حتى بلغنا (اللد) وهي محطة كبيرة
حديثة البناء جميلة . وهناك انتقلنا إلى القطار الذاهب إلى بيت المقدس

سار القطار ووقف ووقفت قصيرة ثم اتهمنا إلى مكان اسمه عرطوف فلما جاوزناه سلكنا وادياً بين جبلين متقار بين ظهرا في ألوان من البياض والحمرة والدكنة تزين سفحيهما خضراء قليلة منشورة ؛ والقطار يسير الهوينا شاهقاً زافراً مصعداً قليلاً ومنحدرًا، تراه في الظلام في حضيض أحد الجبلين على حافة هوة محيفة ، ثم تراه في حضيض الجبل الآخر على الحافة الثانية ، لا تدري كيف تحوّل به الطريق ؛ وكلما رمى الرأى ببصره امتلأت نفسه رهبة وإجلالاً وإنه لم رأى جليل . والقطار دائب في سيره بين الجبلين كالسيل يتمعج به الوادى . ورأينا على يسارنا غاراً عالياً يقال إنه كان مباءة شمشون الجبار . وحق أن من يأوى إلى هذا الغار يستطيع أن يقذف بالأحجار بل يدهدى الصخور العظيمة فيقطع الوادى على كل سائر . طال بنا هذا الوادى وادى الصرار وأدجى الليل فزاد المكان رهبة على رهبة حني بلغنا بيت المقدس بعد الساعة السادسة

وبينا نمضى أنفسنا بالمبادرة إلى الفندق للاستراحة إذا بوفد من كرام إخواننا المقدسين ينتظرونا . أبصرنا في مقدمة المستقبلين ذلك الحيا المحبوب المعروف أديب العرب إسعاف بك الناشيبي . سارع الإخوان إلينا مسامحين وأخبرنا إسعاف بك أن حفلاً حاشداً ينتظرونا في «روضة المعارف» فسارعنا بالسيارات إليها . نضر الله روضة المعارف وبارك في أهلها الأعجاد ؛ لقد لقينا من حفاوتهم وإيناسهم ما هو جدير بنفوسهم الكريمة وأخلاقهم العظيمة . دخلنا الروضة والموسيقى تعزف بألحان مصرية ، ولقينا هناك جماعة من

العلماء الأجلاء منهم الأستاذ الحسيني المفتي ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، والشيخ الخالدي . ولما اطمأن بنا المجلس خطب مدير الكلية مرحباً معرباً عما يكنه الشاميون (ولا أقول الفلسطينيون إرضاء للحق وللأستاذ الناشيبي الذي لا يعرف إلا اسماً واحداً هو الشام لما يسمونه فلسطين وشرق الأردن وسوريا ولبنان والعوليين) لإخوانهم المصريين من الحب والولاء والإكبار والإعجاب . ثم وقف إسعاف بك . ولله إسعاف بك حين يتدفق في بيانه وحين يوحى إليك المعاني بألفاظه ونبراته وإشاراته ونظراته ؛ رحب بنا الأستاذ ترحيب الأخوة بالأخوة ربطت بينهم كل الأواصر ، وأمرت أخوتهم كل الحادثات . وأجاب الأستاذ أحمد أمين بخطبة ردت التحية بمثلها . ثم دعينا إلى الشاي فاجتمعنا عليه أخوه ينقلون الأحاديث بين الآمال والآلام ، ويرددون الفكر بين الماضي والحاضر والمستقبل ، ثم انصرفنا والموسيقى تعزف بنشيد جلالة ملك مصر ثم بنشيد سعد باشا والطلبة يهتفون لمصر فيجيبهم طلبة مصر محيين الأمم العربية .

ذهبنا صباح الاثنين إلى بيت لحم مولد المسيح فيما يقال فدخلنا كنيسة عتيقة كبيرة تقسمت المذاهب أرضها وجدرانها ، قد اتخذت كل طائفة مصلى تستأثر به . وقد تراحوا على الغار الذي يظن أن المسيح ولد به وعلى المكان الذي زعموا أنه مكان الميلاد من هذا الغار فتقسموه بالأصابع حتى تنال كل طائفة نصيبها منه .

ثم سرنا إلى قرية الخليل فتصدى لنا دليل هناك وسار أمامنا إلى المسجد يتكلم عما يلقانا في الطريق من آثار . وقد سرنا إذ سمعناه يقول متكلماً عن باب عتيق : « أحمد زكي باشا العلامة يرى كذا كذا »

مسجد الخليل بناء ضخم يصعد الداخل إليه بجانب سور رائع جثمت فيه أحجار يمتد بعضها عشرة أمتار . وقد قيل لنا إنه من بناء الرومان . وحق أن المسجد في داخله مشيد على النسق الروماني ، وتحت المسجد كهف فيه قبور لأنبياء بنى إسرائيل . وقد بنيت في أرض المسجد أضرحة إزاء هذه القبور ؛ رأينا على جانبي القبلة قبرين قيل إنهما لاسحاق وزوجه ثم سرنا إلى ناحية أشير فيها إلى قبور الخليل ويعقوب ويوسف عليهم السلام . طغنا في أرجاء المسجد وصعدنا على السور ثم نزلنا فاجتمعنا حول قارئ دُعي ليُرتل بعض الآيات . وقد دعانا مدير أوقاف الخليل إلى مكان عمله فجلسنا قليلاً مسرورين ، ورأينا هنالك مستشفى صغيراً تعطي فيه الأدوية للفقراء فرأينا جهد المقل المجتهد .

رجعنا إلى القدس بعد الظهر وذهبنا إلى المسجد الأقصى ؛ اجتزنا سوق المدينة إلى شارع يفضى إلى باب كبير وأبصرنا قبل أن نلج الباب بناء عالياً كتب عليه « المجلس الاسلامي الأعلى » .

وظننت أن الباب يفضى إلى ساحة في المدينة ولكن بواباً هناك منع بعضنا من التدخين ففهمنا أنه المسجد ، هناك فناء عظيم تلوح في أرجائه حجرات متفرقة وأشجار وفي وسطه دكة عظيمة يرقى إليها عشر درجات

تقوم في وسطها قبة جميلة رائعة يحملها جدار مشمن هي قبة الصخرة . تقدمنا إلى أحد أبواب القبة فإذا الشيخ الخالدي رئيس محكمة الاستئناف الشرعية في انتظارنا ليبين لنا ما يحتاج إلى بيان . يستغرب الداخل منظر صخرة كبيرة حولها سياج من الخشب جاثمة تحت القبة التاريخية العظيمة الجميلة . وحولها أرض المسجد يحيط بها رواق يتجلى الجمال والابداع في صنعته . وتحت الصخرة غار صغير يهبط إليه درجات قليلة وهو مصلى يلتمس الناس فيه بركة الصلاة والدعاء . وقد رأينا في أعلاه ثقباً وأشار محدثنا إلى بلاطة في أرض الغار إزاء هذا الثقب قال إن تحتها بئراً كانت تجتمع فيه الدماء السائلة من الثقب ، دماء القرايين التي كانت تذبح على الصخرة .

وعلى مقربة من قبة الصخرة ، على هذه الدكة أبنية شادها صلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه منها حجرة صغيرة أخبرنا دليلنا أن السلطان صلاح الدين بات فيها ليلة يبكي ويتضرع إلى الله أن ينصره على الصليبيين ، وكان خطبهم قد اشتد عليه ، فلما أصبح جاءته البشرية بالانتصار على العدو . هبطنا من الربوة واجتازنا الساحة التي حولها إلى بناء ضخم يتقدمه رواق فيه ثلاثة أبواب كبار . ثم ولجنا إلى المكان المبارك ، إلى المسجد الأقصى فإذا رواق مديد رفيع على جانبيه رواقان آخران . أفضى بنا الرواق الأوسط إلى محراب عجيب الصنعة بجانبه منبر عليه اسم صلاح الدين . قيل لنا إن السلطان أمر بصنعه لهذا المسجد والصليبيون مستولون على بيت المقدس فصدق الله ظنه واسترجع المدينة فوضع المنبر حيث قدر . ويتصل

بأروقة المسجد جهة القبلة رواقان من اليمين والشمال؛ فالذى إلى اليمين، وهو أكبرهما، مسجد النساء احتجز عن المسجد بحاجز من الخشب. والذى إلى اليسار مصلى قيل إنه مصلى عمر صلى فيه حين قدم بيت المقدس مصالحاً أهله. وعلى ذكر النساء أقول: إن النساء في الشام يختلفن إلى المساجد، وفي استانبول لا يخلو منهن مسجد عظيم. وهن هناك يشاركن في الجماعات حتى صلاة الجمعة وينتبدن مكاناً على حدة خاشعات قانتات، ولكن النساء الناهضات في مصر الداعيات إلى المساواة في كل شيء لا يذكرن الصلاة والدين قط. فليت شعري ما خطبكن يا نساء مصر؟

ذهبنا إلى القنصلية المصرية إجابة لدعوة القنصل الفاضل فتناولنا الشاي وكان النشاشيبي بك ينتظرنا ليسير بنا إلى داره للعشاء. ودار النشاشيبي العمورة دار جميلة على سفح جبل الزيتون يأسر إليها اسعاف بك كل عالم أو منتسب إلى العلم يمر ببيت المقدس. وهناك على موائد جمعت عليه القوم نعمنا بالطعام والأحاديث ثم سمرنا وسمعنا أغاني مصرية من الحاكبة ثم عدنا إلى الفندق ولسان حالنا يقول ما قاله المتنبي حينما سئل عما رآه عند عضد الدولة في شيراز: «ما خدمت عيناي قلبي كاليوم».

غدونا يوم الثلاثاء إلى البحر الميت. وهو في وهدة منخفضة جداً، وماؤه ملح مرّ. وهو حد بين ما يسمونه فلسطين وما يسمونه شرق الأردن. ويصب فيه من الشمال نهر الأردن. مشينا على شاطئه ثم جلسنا نشرب القهوة

وأعجلنا ضيق الزمن فسرنا إلى أريحا . واخترقناها إلى نهر الشريعة أو الأردن حيث رأينا جسراً هنالك أحد طرفيه في فلسطين والثاني في شرق الأردن . ثم رجعنا شطر البيت المقدس ونزلنا في الطريق على عين أريحا فشربنا منها وسمعنا الغناء المصرى من حاكية ، وقد قدم إلينا أحد الشبان الماء وهو يقول : « هذا العين هى حياة أريحا كما أن النيل حياة مصر » تركنا بيت المقدس كارهين تتلفت العيون والقلوب فيه إلى إخوان كرام ، وذكريات عظيمة ومشاهد رائعة . خرجنا والساعة ثلاث بعد الظهر نسير شطر الناصرة قرية المسيح عليه السلام ؛ سرنا في طريق جبلى معبد . وكذلك أكثر طرق فلسطين التى مررنا بها . ترى الطريق يدور حول الجبل أو يتعرج على سفحه حتى يبلغ القمة ثم ينحدر إلى الحضيض ، والسيارات جاهدة منجدة غائرة ، تظهر وتختفى ، تكلف المرتقى الصعب فما هى إلاغزة السائق حتى تنطلق مدوية زاحرة إلى أن تبلغ الذروة . وم تخلصت طريقاً ضيقاً وأشرفت على هوة مخيفة .

مررنا بنابلس قبيل الغروب والسماء تمطر وإذا السيارة الأمامية تقف وينزل منها بعض أصحابنا مهرولين إلينا . قلنا ما خطبكم ؟ قال كبيرهم معرباً عن أمانى رفقائه : نابلس معروفة بكناقتها اللذيذة ولا بد أن نخرج عليها . قلنا: ولكن السماء تمطر. قالوا: إنه رذاذ. قلنا: فابعثوا سائق السيارة ليسعفكم بما تريدون . قال خيرهم: لا بد أن نأكلها فوراً وهى سخينة . ولم يكن بين الصحب وبين كنافة نابلس إلا خطوات ومضغات ؛ ولكن رئيس

السفر أشفق من المطر والظلام فعزم عليهم أن يرجعوا ففكروا إلى سياراتهم
أسفين ناديين أمنية قاربوها وتخيلوها حتى امتلأت بها أعينهم وأيديهم
وأفواههم . وما كل ما يتمنى المرء يدركه . تلك حادثة الكنافة وهي
من أحاديث رحلتنا .

انفرت الجبال قليلاً بعد نابلس وتابعنا السير حتى بلغنا غايتنا .
بلغنا الناصرة قرية المسيح عليه السلام والساعة سبع من مساء الثلاثاء
الحادى والعشرين من شعبان « ٢١ ديسمبر » فنزلنا فى فندق هناك وقد
بلغ منا التعب غاية ، ونشطنا قليلاً بعد العشاء فاجتمعنا للسمر نتحدث
بما رأينا وسمعنا فى نهارنا .

غدونا نمشى فى البلدة وهى صغيرة ، نظيفة ، ضيقة المسالك ، مرصوفة
بالحجارة ، يتوسط طرقها مسايل صغيرة لماء المطر — وزرنا كنيسة هناك
كبيرة بنيت على مغارة يقال إنها كانت مسكن السيدة مريم وأسرتها .
وهى كنيسة جميلة حسنة الهندسة ليس فيها ما شهدنا فى الكنائس الأخرى
من تزاخم الزينات ، وتعمد الأبنية .

برحنا الناصرة قبل الظهر إلى طبرية ومررنا فى طريقنا بمرج ابن عامر ،
وهو سهل فسيح ينتهى فى الشمال إلى سهل حطين الذى حطم فيه السلطان
صلاح الدين الأيوبي جيوش الصليبيين يوم الخميس ٢٢ ربيع الثانى
سنة ٥٨٣ (٥ يولية سنة ١١٨٧) . وعلى مقربة من طبرية رأينا قرى

اليهود المهاجرين يلوح عليها الجلدة والغنى .

وطبرية مدينة صغيرة على البحيرة — بحيرة طبرية وتسمى بحر الجليل .
وهي عذبة الماء تعترض مجرى نهر الأردن ، يفضى إليها من الشمال ، ويخرج
منها إلى الجنوب . ويحيط بها جبال عالية تتفجر فيها ينابيع حارة تساق
إلى حمامات هناك . وقد تمشينا على شاطئ البحيرة وشربنا من مائها وذكرونا
المتنبى الذى يقول :

لولاك لم أترك البحيرة والغو	ر دفىء وماؤها شـبـم
والموج مثل الفحول مزبدة	تهدر فيها وما بها قـطـم
والطير فوق الحباب تحسبها	فرسان بلق تخونها اللـجـم
كأنها والرياح تضربها	جيشا وغى هازم ومنهزم
كأنها فى نهـارها قمر	حف به من جنانها ظلم
تغنت الطير فى جوانبها	وجدت الأرض حولها الديم
فهى كإوية مطـوـقة	جُرد عنها غشاؤها الأدم

رأينا جبالها المخضرة ولكن لم نر الجنات التى تحيط بها — كما يقول
المتنبى — إذ زرناها فى الشتاء . ولعلنا نزورها صيفاً فيصدق الخبر الخبر .
ولسنا ننكر على البحيرة جمالها فقد سرحنا فيها العيون على منظر جميل
فسيح ونشقنا هواءها المنعش وودنا لو طال بنا المقام .

تغذينا فى فندق كبير هناك اسمه « ماجستيك » ثم استأنفنا السير
قاصدين دمشق . وقفنا على الحدود وقدمنا جوازات السفر ، ثم سرنا قليلاً

فتخطينا نهر الأردن على قنطرة صغيرة ووقفنا على مقربة من الشاطئ الآخر عند مخافر سورية . ثم تابعنا السير إلى دمشق . وكم انتبضت الصدور وانشرت بذكري دمشق . وكم ثارت في النفس ذِكْرُ من الماضي والحاضر ، وبسمت فيها الآمال وعبست الآلام . وكان القلب يخفق كلما سألنا السائق فخبّرنا أن المدينة اقتربت :

نحن أدرى وقد سألنا بنجد أقصير طريقنا أم يطول ؟

وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تعليل

غربت الشمس وأظلم الأفق فلاح على بعد نور دمشق ، ثم دخلناها والنفس مقسّمة بين عين تجهد لترى دمشق ، وقلب يخفق لرؤية دمشق ، ورأس يبحث في ثنايا التاريخ عن دمشق وحظها من غير الزمان . وها هو ذا نهر بردى حقيقة لا خيالاً .

وقفت السيارة على فندق خوّام والساعة ست ونصف ، وقد بلغ منا التعب مبلغه ولكن شوقنا إلى المدينة أخرجنا قبل العشاء فتفرقنا في طرقها قليلاً . ورجعت فجلست أنتظر الرفاق وإذا وفد من إخواننا الدمشقيين يسألون عنا وما ظننا أن أحداً علم بمقدمنا ؛ دخل جماعة من هؤلاء الإخوان أتذكر منهم الأستاذ عبد القادر المغربي والأمير جعفر الجزائري والأستاذ عبد القادر العظم فأخبرنا هؤلاء الفضلاء أنهم حسبونا قادمين بالقطار فرسموا خطة لاستقبالنا في المحطة ، ثم أخبرونا أن وزير المعارف الأستاذ الفاضل محمد كرد علي سيحضر بعد قليل . وجاء الوزير العالم بعد العشاء فأوسعنا

ترحيباً وإيناساً وسهر معنا زمناً ينقل الحديث حيث يشاء له علمه الواسع وأدبه الرفيع . وقدم لنا الوزير ومن معه أوراقاً خطوا فيها حللنا وارتحلنا إلى أن نبرح سورية ولم يدعوا فيها وسيلة لإكرامنا وتعريفنا بالبلاد إلا اتخذوها . وتفضل الأمير جعفر الجزائري مدير الآثار ، ابن حفيد الأمير العظيم بطل الجزائر عبد القادر باشا الجزائري ، فوعد بأن يرافقنا في دمشق وفي كل المشاهد الأثرية حتى تدُمر .

أصبحنا فسرنا — كما رُسم لنا — إلى دار الحكومة حيث قابلنا صاحب الفخامة الشيخ تاج الدين الحسني رئيس الوزراء ، ثم خرجنا إلى الجامعة السورية : كليتي الحقوق والطب ، فزنا حُجَرَ الدراسة واستمعنا إلى بعض الأساتذة . وشدّ ما سرّنا أن رأينا في معهد الحقوق الأستاذ الفاضل الدكتور أبا اليسر عابدين . وهو من خريجي المعهد الطبي ومن علماء الشريعة الإسلامية ومن أسرة العالم الكبير « ابن عابدين » ، رأيناه واقفاً قد وضع عمامته عن رأسه يفيض في شرح مسائل من الفقه .

وزرنا كذلك معامل المعهد الطبي . وقد امتلأت أنفسنا سروراً حينما ذهبنا إلى مسجد قريب من بناء الجامعة بناء السلطان سليمان الثاني العثماني على طراز مساجد الآستانة الجميلة فرأينا حجرات تحيط ببناء المسجد قد اتخذت معامل للكيمياء والطبيعة . أعجبنا جداً هذا التأليف بين القديم والحديث والتقريب بين العلم والدين ، والحفاظة على الآثار والاستفادة منها .

والله يسدّد خطى إخواننا حتى يبنوا مجدهم الطريف على مجدهم التليد ،
ويزيدوا إلى مآثر الآباء مفاخر الأبناء . سرنا بعد إلى دار رئيس الوزراء
حيث تغدينا . ثم خرجنا في صحبة بعض إخواننا الكرام إلى مصانع الثياب
وهي مغازل ومناسج حديثة أسسها أهل دمشق تبشر بمستقبل عظيم . وقد
شهدنا فيها نسج الحرير والصوف ورأينا منهما ثياباً جيدة جداً .

ورأينا جامع دمشق العظيم — جامع بنى أمية^(١) . وهو مسجد
توالت عليه القرون وتداولته الأديان ، واختلفت عليه الفنون ؛ فعلى مقربة
من بابه الكبير ترى قطعة بناء عالية كانت فى مدخل المعبد الوثنى القديم .
وإحدى مآذن المسجد كانت للناقوس فى عهد النصرانية . وباب الجامع
الكبير يفضى إلى صحن واسع تحيطه عمد كلها أو معظمها من بقايا العهد
الأموى ، وعلى يسار الداخل إلى الصحن جدار مزين بصور أشجار وأتهار
ودور من الفسيفساء باقية من عهد الوليد . وجامع بنى أمية أعظم ما رأيت
من المساجد . وكنت أحسب أن مساجد الآستانة لا نظير لها فى الجمال
والسعة فإذا هذا المسجد أوسع من أعظمها وأكبر : إذا دخل الزائر من الصحن
إلى المسجد المسقوف راعه ثلاثة أروقة تقوم على صفوف من العمد يتوالى
فى كل صف منها زهاء أربعين . وفى المسجد على يسار الحراب تربة يقال
إنها تربة يحيى بن زكريا ، ذكرتنى بما يحكيه الشيخ سعدى الشيرازى فى

(١) أنظر الكلام عن هذا الجامع ومدينة دمشق كلها والتفصيلة الدمشقية فى المقالات
الآتية (بين القاهرة وإستانبول)



أعضاء كلية الآداب بالجامعة المصرية في المدرسة العادلية وهي دار المجمع العلمي اليوم
ويرى في الوسط الأستاذ كرد على وإلى يمينه الأستاذان أحمد أمين وعبد القادر المغربي
والأمير مصطفى الشهابي وإلى يساره الأستاذان العبادي والعظم والدكتور عزام

كتاب كلستان : أنه كان معتكفاً بجانب هذه التربة فدخل ملك عربي معروف بالظلم . فصرى ثم التفت إلى الشيخ وسأله أن يدعو الله ليكيفيه عدواً شديداً يخشاه . فقال الشيخ : ارحم الرعية الضعيفة تسلم من العدو القوى . وكذلك زرنا المجمع العلمى . وهو على مقربة من جامع بنى أمية فى بناء قديم بناه الملك العادل الأيوبي ليكون مدرسة . ودفن فى بعض حجراته . وأمامه بناء آخر فيه قبر الظاهر بيبرس . وهو الآن مكتبة عامة — وهنا ينبغى التنويه مرة أخرى بجد إخواننا أهل الشام وسعيهم فى بناء الحديث على القديم ، والعناية بالآثار ثم الاستفادة منها . وأما ما أثر المجمع العلمى على العالم العربى وما يرجى له فى المستقبل فليس يحتاج إلى بيان . وقد اتخذت بعض حجرات البناء متحفاً جمعت فيه بعض الآثار القديمة ولعلها نواة لمتحف عظيم يكافئ عظمة دمشق إن شاء الله .

— ٦ —

وفى يوم الجمعة غدونا إلى الصالحية إحدى محلات دمشق على سفح جبل قاسيون^(١) . وقد لاحظت لنا الغوطة على بعد فما قضينا لبانة النفس من جلالها وجمالها . ثم سرنا فى محلة اسمها محلة المهاجرين أكثر أهلها — فيما سمعنا — من الكرد ذوى البأس الشديد . وكان لهم بلاء عظيم فى الثورة الأخيرة . ونزلنا لزيارة الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى فرأينا حول الباب نسوة قد اجتمعن للزيارة أو الاستجداء ودخلنا إلى فناء صغير

(١) انظر وصف قاسيون فى القصيدة الآتية فى مقالات (بين القاهرة واستانبول)

وهبطنا درجات إلى اليسار ونحن نقرأ على الجدار من أبيات الشيخ الأكبر :
 فكل عصر واحد يسمو به وأنا لباقي العصر ذاك الواحد
 انتهت الدرجات إلى ضريح شيخ الصوفية . ورأينا بجانبه ضريحاً آخر
 عرفنا أنه لبطل الجزائر بل بطل العرب والمسلمين الأمير عبد القادر الجزائري ،
 ثم ضريحين صغيرين لبعض أبناء الأمير . وكان معنا من فروع هذه الدوحة
 العظيمة الأمير جعفر الذي تفضل فواقفنا في زيارة الآثار كما قدمت . ولقد
 أحسن الذين وضعوا بطل المسلمين في القرن الماضي بجانب بطل الصوفية .
 فقرنوا الجهاد الأصغر بالجهاد الأكبر^(١) .

ذهبنا بعد زيارة محي الدين والأمير عبد القادر إلى مصنع تصنع فيه
 النفائس من الخشب والنحاس والعاج . ورأينا كذلك منسجاً للسجاجيد
 أكثر عمَلته من الصبايا المسيحيات ، وأنواعاً من مناسج الحرير الدمشقي
 ولدمشق صيت ذائع في هذه الصناعة وما يشبهها .

ثم ذهبنا لأداء فريضة الجمعة في جامع بني أمية ومررنا في طريقنا
 بدار آل العظم الجميلة العتيقة وشهدنا ما حطمته مدافع الفرنسيين منها .
 أدينا الجمعة في الجامع ثم لحقنا بحلقة المحدث الكبير الشيخ بدر الدين
 الحسنى والد رئيس وزراء سورية . وقد أحسن إلينا الجالسون هناك
 فأفصحوا لنا وقدمونا . ثم جاء الشيخ الوقور فجلس قليلاً مطرقاً ثم قرأ سند
 حديث ومتمنه وشرع يفيض في شرحه ويستطرد إلى أمور كثيرة . وإن المرء

(٢) الجهاد الأكبر جهاد النفس

ليعجب من شيخ جاوز التسعين يقوى على جلسة طويلة (من بعد الجمعة إلى العصر) متدققاً في بيانه ليس بيده ورقة .

وبعد الغداء سرنا إلى الجمع العلمي حيث سمعنا محاضرة من الأستاذ الفاضل الشيخ عبد القادر المغربي . ثم توجهنا إلى بقعة مباركة مهيبة وقد غشى النفس ما غشاها من جلال الذكرى وعظم العبرة . وقف بنا الدليل أمام باب وبلجناه إلى ساحة صغيرة ، ثم رقينا درجات قليلة إلى باب آخر في يالك حجرة جمعت من العظمة سورة متلوة على الدهور ، وحوّت من عبر التاريخ ما تضيق به السطور ! يالك حجرة كعنوان الكتاب الكبير يناله البصر في لحظة ، ثم لا يزال يفتح على الصفحة بعد الصفحة ! يالك من مكان وسع ملء الزمان ! ويالك من أحجار طويت على أعصار ! مجد رجف به الشرق والغرب ، وطأ طأ له الصديق والعدو . هذا مرقد «صلاح الدين» . أطفنا بالقبر ووقفنا هنيئة خاشعين . ووقعت أبصارنا على صورة تمثل المجاهد العظيم . ثم قال أحدها : أين التاج الذى وضعه على القبر ملك الألمان غليوم ؟ قال دليلنا : أخذه الإنكليز ! قلت : إن مجد «صلاح الدين» أعظم من أن يزينه غليوم ، وأجل من أن ينقصه الإنكليز . فليعطوا أو فليأخذوا وليدحوا أو يذموا فذلك صرح لا تناله أيديهم ومجد قصرت عنه أمانهم . وحلبة التاريخ تشهد ، من كان الفارس الأمجد ؟ ثم زرنا الملك الكبير والرجل الصالح « نور الدين محمود » الذى نشأ صلاح الدين فى خدمته وفتح مصر باسمه . ومدفنه فى مسجد صغير يدخل

إليه من أحد الأسواق . وكان مدرسة بناها رحمه الله
وسمنا تلك الليلة في نادى الموسيقى مع فتية كرام تشابهت آدابهم
وأحاديثهم وألحانهم . دعانا رئيس النادى « نغرى بك البارودى » فلبينا
الدعوة شاكرين . وقضينا نصف الليل الأول نستمع للموسيقى والغناء يترجم
عن نفوس مكلومة وآلام أمة مهضومة .

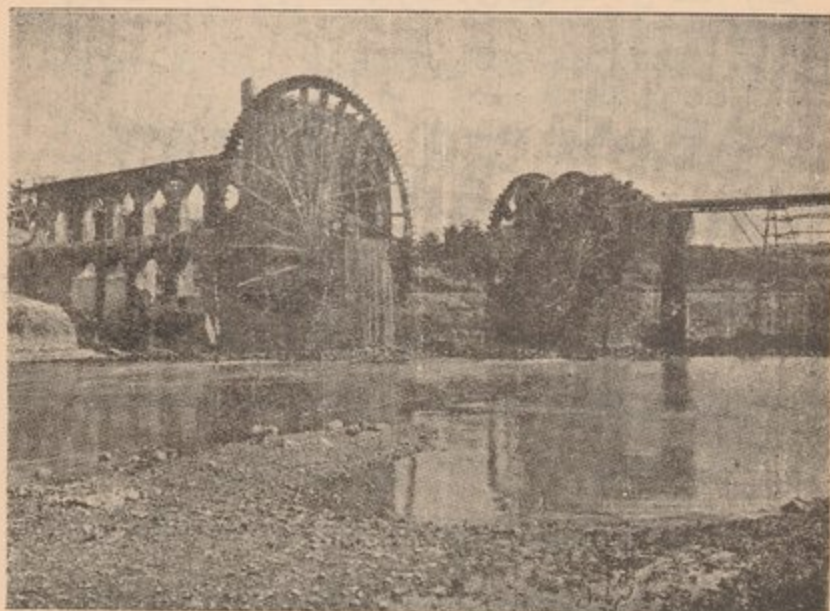
فقلت تغنى كيف شئت فإنما غناؤك عندى يا حمامة إعوال
أيها الصارخ من بحر الهموم ماعسى يُغنى غريق عن غريق؟

ودعنا دمشق والساعة سبع ونصف من صباح السبت إلى بعلبك
سرنا إليها ١١٥ كيلاً . وشهدنا هناك معبداً رومانياً كبيراً وآخر أصغر منه
للإله باكوس . وفي المعبد الكبير آثار قلاع ومساجد إسلامية من عهد
الحروب الصليبية . يتمثل في هذين المبددين جلاد الناس والزمان قد تهدم
أكثر الجوانب وبقيت جذر وعمد تتحدى الزلازل والغير . وإن الرأى
ليقف دهشاً من عظم الأحجار ورفعة البناء وضخامته . فبينما يمشى على
جدار تجثم فيه أحجار يمتد واحدتها عشرة أمتار إذا هو بعمد هائلة يصعد
الطرف فيها تسعة عشر متراً ثم ينتهى إلى تاج لولا العيان لحسب أن رفعه
إلى مكانه من رؤوس العمد محال أى محال . وكنت أصدق ببصرى
في أرجاء البناء فكأنى أرى بحراً مأجماً تتحاطم أمواجه وتمور لججه ، ثم
أغضى مفكراً فكأنى أرى أجبلاً تتصادم وصخوراً تتطاير . فأفتح العين

على هذه الصخور المنشورة بعد هذه المعركة . ما حسبت من قبل أن البشر
قد قدروا على مثل معبد بعلبك .

وبعد الغداء ركبنا إلى حمص فإذا طريق غير معبدة تخالف الطرق
التي رأيناها قبلاً . برحنا بعلبك والساعة اثنتان بعد الظهر والمسافة ١١٢ كيلاً
ووصلت سيارتنا في بعض الطريق . وبعد لأي قاربنا حمص ولكننا بقينا
زهاء ساعة نلتمسها : نسير في ناحية ثم نرجع . فلما أصبنا الطريق المؤدية
نحو المدينة اتهمنا إلى موحلة أخرى فارتطمت فيها بعض السيارات حيناً .
بلغنا الفندق والساعة سبع أو نحوها . فشرعنا نعالج ما أفسده السفر وأصابه
الطين ثم أمضيناها ليلة ذكرتنا نعيم الليالي السالفة .

وغدونا إلى الميلاس حيث نهر العاصي المتدفق يعترضه طاحون تدور
فيه بالماء ست أرحية . وقد أعجبنا المكان فتمشينا برهة . ثم قصدنا
إلى مسجد جميل على الطراز التركي فيه ضريح الصحابي الجليل والقائد
العظيم سيدنا خالد بن الوليد وابنه عبد الرحمن . وسرنا بعدُ خلال المدينة
فشهدنا المسجد الكبير ، وناعورة كبيرة ، وجلنا في الأسواق برهة . وقد راقى
منظر أهل حمص ، وكثير منهم يلبس السراويل والعقال . ورأينا النساء
مقنعات ، وأخبرنا أن المسلمات والمسيحيات سواء في هذا التججب . ورجعنا
بعد إلى الفندق فتغدينا ثم ودعنا الأمير جعفر شاكرين له فضله وهمته .
سار قطارنا والساعة اثنتان وربع ميمماً حلب والمسافة إليها ٢٠٠ كيل



النواعير على نهر العاصي في مدينة حماه

رأينا قطاراً من نواحي العهد العثماني مجهزاً بمدافع البخار فأخذ كل جماعة مقصورة فيه . وبعد قليل اشتدت الحرارة فأردنا أن نقلها أو نقفها فلم نستطع تحريك المفتاح فلبثنا حتى قيص الله لنا أحد عمال القطار فما زال يعالجه حتى وقف الحرارة . وعلى الطريق رأينا قرى قليلة مبعثرة في الفضاء واسع تبدو في مرأى غريب . فهي قباب من الطين اجتمع بعضها إلى بعض . كل دار تلوح كصومعة مقببة فيها نوافذ صغيرة . وأبصرنا حماة على بعد فراقنا منظر نواحيها العالية تدور بالماء ليل نهار .

وبينا أتحدث إلى الأستاذ العبادي وقف القطار على محطة صغيرة إلى جانبها بئر يستقي منها بعض النساء فأنشأنا أبياتاً من الشعر . ثم أوحى إلينا أن ننشئ قصيدة في موضوع آخر فما زلنا نتعاون على القريض حتى نظمنا خمسة عشر بيتاً . قال الأستاذ العبادي : هذه إحدى المكتمات . فسميناها « المكتمة » . وقد جهد بعض الرفاق أن يعرفوا موضوعها أو بحرها أو قافيتها أو رويها فما ظفروا حتى الآن . وكانت مثار حدس وحزر مضحك من حين لآخر . فلما يئس « الأستاذ الرئيس » منها عزم على أن يشرحها دون أن يراها . وكنا نجلس أحياناً فأقول لشريكي في القصيدة: دعنا نغير البيت الخامس — مثلاً — فيقول: لا بأس . فيسأل بعض الحاضرين: وما البيت الخامس ؟ فنقول إنها المكتمة . وقد ضاق بعض الرفاق ذرعاً فادعى أنه نظم تقيضة لهذه القصيدة سماها « المسخمة » ، في نقض المكتمة . ولا تزال

المكتمة حتى هذه الساعة لغزاً وستكون كذلك حتى يشاء الله إظهارها^(١)
وقف القطار على حلب والساعة سبع من المساء فإذا في انتظارنا بعض
أفاضل حلب فيهم مفتش المعارف الفاضل الدكتور كامل بك أشرفية
والأستاذ سامي الكيالي . وهكذا لقينا من عناية إخواننا وحفاوتهم
حينما حللنا .

سرنا إلى فندق البارون نذكر قول المتنبي :
لا أقمنا على مكان وإن طا ب ولا يمكن المكان الرحيل
كلما رحبت بنا الروض قلنا حلب قصدنا وأنت السبيل
وقد اجتزنا في الطريق قنطرة على نهر « قويق » فذكرنا قول المعري
ونكبّ إلا عن قويق كأنه يظن سواه زائداً في أوامه
وذكرنا ما قال المتنبي حينما مدّ قويق فأحاط بدار سيف الدولة .

غدونا يوم الاثنين نمشي في حلب يرافقنا بعض كرام أهلها فرأينا أمكنة
كثيرة يضيق المقام عن وصفها الآن . وأعظم ما رأينا الجامع الأموي وهو
جامع عظيم جداً فيه قبر يقال إنه قبر زكريا النبي، ومحراب عليه اسم السلطان
قلاوون، ومنبر يقال إن صلاح الدين أمر بصنعه هو ومنبر المسجد الأقصى
معاً . ثم قلعة حلب العجيبة تقوم على ربوة عالية في شكل مخروط منتظم

(١) قد أظهرها الله بعد حول في القطار بين بغداد والموصل كما سيأتي في مقالات
« بين القاهرة وبغداد »

يحيط بها خندق كان يملأ بالماء في العصور الماضية. وقد رصفت جوانب الربوة بالحجارة. وليس لهذه القلعة العالية الواسعة المعتزة على هذه الربوة إلا طريق واحدة تؤدي إلى بابها العظيم. وكان إخواننا المحتفلون بنا قد استأذنوا من بيدهم أمر القلعة من الفرنسيين في هذه الزيارة فأوقفنا الحراس من سود السنغال لينظروا الإذن ويعُدّوا الداخلين، فتذكرت قول المتنبي :

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبء القزم
دخلنا القلعة فقرأنا على الباب الأول كتابة عربية ترجع إلى عهد
الماليك، ورأينا على الباب الثاني صورتى أسدين على اليمين والشمال قيل
أن إحداهما تمثل أسداً باكياً والأخرى تمثل أسداً ضاحكاً. ولم أتبين أنا بكاء
ولاحضكاً. وفي القلعة سرداب مظلم يؤدي إلى موضع تحت الأرض يقال إنه
كان سجنًا. وفيها مسجد صغير تبينا عليه اسم اسماعيل بن محمود بن زنكي
سنة ٥٧٥ و «محمود بن زنكي بن آقسنقر سنة ٥٦٣» وفيها مشاهد أخرى
لا يتسع المقام لذكرها.

ومما راقنا من مشاهد حلب مدرسة هناك في منزل عتيق كبير علفت
على جدرانها ألواح في كل منها نبذة من تاريخ رجل من عظماء المسلمين.
وهي وسيلة حسنة لتعليم التاريخ وتذكير الناشئة بمجد أسلافهم.

وفي المساء احتفل بنا مرتين : في مدرسة المعلمات حيث شهدنا من
حفاوة مفتش المعارف النبيل وناظرة المدرسة الفاضلة والمعلمات الكريمات
ما هو جدير بآدابهن الرفيعة. ولعب أطفال «روضات الأطفال» المختلفة

ألعاباً معجبة ظريفة دلت على حسن التدريب والترفية . وسمعنا نشيد سورية توقعه إحدى الطالبات على البيانو ويردده بعض أخواتها . فلا تزال في قرارة نفسى صدى هذه النغمات المفرحة الحزنة :

أنت سورياً بلادى فخر أنوار الهدى الخ

وقد خطب الأستاذ الرئيس « أحمد أمين » خطبة شكر فيها المحتفلين وأثنى على نظامهم وحسن رعايتهم الأطفال الخ ؛ والحفلة الثانية كانت فى مدرسة المعلمين وهى بناء عظيم من بقايا العهد العثمانى فيه مدرسة المعلمين وغيرها . وقد سمعنا هناك وخطب حضرة مفتش المعارف وأجابهُ الأستاذ الرئيس

أصبحنا تتهياً للسفر إلى مزار محبوب طالما طارت إليه المنى ، ففارقنا حلب والساعة ثمان ونصف عاجزين عن شكر إخواننا على خفاوتهم وإكرامهم . وسرنا ٨٥ كيلاً ثم عرجنا إلى البلدة المباركة ذات الذكري العظيمة فى نفس كل متأدب . وتلك « معرة النعمان » . وهناك استقبلنا أحد كرام العرب وأفاضلهم « حكمت بك الحراكى » وكان معالى وزير المعارف وغيره من الأفاضل المحتفلين بنا قد كتبوا إليه . وكنا أخبرنا أن أحداً لا يستطيع أن يذهب إلى المعرة ثم يفلت من كرم الحراكى بك . طفنا بالبلدة فدل مرأى مساكنها وطرقها على أنها بقية الأحداث من مدينة كبيرة . ورأينا مسجداً كبيراً له منارة مربعة ما رأيت مثلاً قط . ثم زرنا

قبر شيخ المعرة الفيلسوف الشاعر أبي العلاء : فناء صغير يفضى إلى حجرتين
 في إحداها قبر عليه صفائح الحجارة قرأنا عليه : « أبو العلاء أحمد بن عبد الله
 ابن سليمان المعري » وقفنا على القبر قليلاً وقد ذهبت كل نفس مذهبا .
 وكتب بعض الرفاق على الجدار فكتبت أول بيت في اللزوميات :
 أولو الفضل في أوطانهم غرباء تشذ وتنأى عنهم القرباء
 وفي الحجرة الثانية قبر كبير لم نعرفه ويظن أنه لأحد أقرباء أبي العلاء .
 تغدينا في دار الحراكي بك وضاق الوقت عن زيارة قبر عمر بن
 عبد العزيز في دير سمعان فركبنا ميممين حمص في الطريق إلى طرابلس
 نذكر قول الشريف الرضي :

دير سمعان لا عدتك الغوادي خير ميت من آل مروان ميتك
 ومررنا بمكان اسمه خان شيخون فأراد سائق السيارة أن يشتري بنزيناً
 فسأل بكم الصفيحة ؟ قال التاجر بكذا قرشاً سورياً فغضب السائق وقال :
 « كم شيطاني » ؟ قال التاجر : « شيطاني ما بعرف » فسار السائق ولم يأخذ
 بنزيناً (وتفسير هذا أن نظام النقد في سورية معضل جداً . فهناك أنواع
 من النقد تركية وفرنسية وسورية تعجز الحاسب ؛ وقد يخرج التاجر قلماً
 وورقاً ليحسب ما يأخذ منك وما يعطيك حين تشتري علبة سجائر .
 وأذكر أن بعض الرفاق أرادوا أن يشتروا فستقاً في حلب فوزنوه ولكن
 لم يستطيعوا أن يفهموا التاجر الثمن بالقرش السوري . (وهنا ينبغي التنويه

بالصيرف العظيم رفيقنا مراد أفندى كامل الذى كان حلال المشكلات
والمرجع فى كل أزمة حسابية)

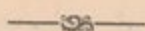
ثم مررنا بحجة فاخترقناها وضاق الوقت عن زيارة قبر أبى الفداء فمضينا
أسفين .

ولا أرى الآن بدأ من الاختصار فأنا أطوي الطريق إلى طرابلس
جملة واحدة . بلغنا طرابلس والساعة تسع من مساء فبتنا بها وأصبحنا إلى
بيروت فزرنا الكلية الاسلامية والجامعة الأمريكية ومدرسة اليسوعيين الخ
وغدونا إلى الباخرة . وكان يوم الباخرة . عصبياً . فإن شئت فاسأل
عنه « الأستاذ الرئيس » فهو به خبير .

بلغنا الاسكندرية والساعة خمس من مساء الخميس وركبنا قطار
القاهرة فسافر والساعة سبع فبلغنا القاهرة والساعة عشر ونصف فألقت
عصاها واستقرت بها النوى .

وإنى أعتذر لكثير من إخواننا الشاميين إذ ضاق المقام وضعفت
ذاكرتى عن ذكر أسمائهم . ولهم فى القلوب أثر لا يمحو وشكر يتجدد
على مر الزمان ؟

(١) بين القاهرة و بغداد



— ١ —

ما أشبه الليلة بالبارحة ! هذه قنطرة القناة بعد عام وستة عشر يوماً
منذ اجتزناها المرة الأولى ميممين الشام . سرعان ما عدّ الفلك مئات الأيام
وقد يخيل إلى المرء أنه لا يزال في ليلته من العام المنصرم

تقلب الأيام من صفحاتها أسرع من تقلبينا المذكرة !!

قطارنا الليلة أصدق موعداً ؛ سار والساعة اثنتا عشرة فلم يخلف مواعده
خمس ساعات كفعلته عام أول . سار القطار فأخذ كل مكانه ؛ منا المزمع
سهرًا ، ومنا المرتقب فرصة للنوم . ولم نلبث أن تفرقت بنا الرغبات فإذا
بعضنا ممدد ينام ملء عينه ويغط ملء نفسه ، وإذا بعضنا بين النائم
واليقظان ، وإذا آخرون في غناء وحديث وضحك . لو منحت الجوائز على
النوم وبلوغ المآرب منه لكان المجلي الأستاذ حسن ابراهيم ، والمصلی
رئيس السفر الأستاذ أحمد أمين . ولو منحت الجوائز على قدر السهاد

(١) كلمة كتبها أول عهدي بالعراق ، ثم هشت في العراق وعرفت من أحواله
ما تضعف هذه الكلمة بجانبه ، ولكنها التذكرى الحبيبة التي وعيتها أول ما رأيت العراق

والحرمان من النوم ، ومطالعة السماء ومراقبة القمر في الصحراء لكان أول الفائزين الأستاذ سامى جنينة .

أضحي النهار فإذا جبل الكرمل منيف على اليمين تكسوه الأشجار .
ويسير القطار بين الجبل والبحر فإذا حيفا والساعة تسع من صباح الأربعاء
سادس عشر رمضان عام ١٣٤٩ (رابع فبراير سنة ١٩٣١) .

لبثنا في حيفا ريثما ننقل الأمتعة إلى السيارات ، وكانت تأخذ الأهبة
للسير . فلما قاربناها قرأنا على مقدمها : « شعبان وشركاه — حيفا ، بيروت ،
شام ، بغداد ، طهران » . فسرني أن تكون الشركة عربية ، وعجبت
أن تيسر للناس طي المسافات حتى صارت دمشق وبغداد وطهران مراحل
مقاربة في طريق يطويه المسافر في أيام قلائل . ولقت نظري بناء محطة حيفا
تتوجه الطغراء العثمانية ، ونصب هنالك أقيم لذكرى سكة الحجاز .
« وتلك الأيام نداولها بين الناس »

غادرنا حيفا والساعة عشر ونصف ميممين دمشق من طريق طبرية
فبلغنا طبرية والساعة اثنتا عشرة وثلث ، بعد أن سرنا أقل من ساعتين .
عادت طبرية بمرائيها الجميلة وذكرياتها التي ذكرت منها في رحلة العام الماضي
واسترحنا قليلا في فندق ماجستيك الذي حللناه في الرحلة الأولى ،
كأن لم يمض عام وأيام . ثم تركنا طبرية والساعة ثلاث إلاربعا فبلغنا الحدود
الفلسطينية بعد ساعة . ووقفنا ريثما علمت جوازات السفر ثم استأنفنا السير
والساعة أربع لنقف بعد عبور نهر الأردن عند الحفر السوري — مخفر جسر

بنات يعقوب والساعة أربع وثلاث . اضطررنا أن نقف زهاء أربعين دقيقة تحت المطر . وليت شعري فيم مرت هذه المدة ؟ إن تعليم الجوازات لا يحوج إلى هذا الانتظار . لقد كانت تحية منكرة في مدخل سورية . سرنا بعد لأى وقد جاوزت الساعة خمساً وشرع الجو يكفهر وغشاه ظلام السحاب وظلام الليل . وقفنا وقفة أخرى بالقنيطرة والمطر هطال . ثم انطلقت السيارات طالبة دمشق ونحن نعدّ الأميال والدقائق حتى بلغ الملل غايته . ولما قاربنا المدينة ألقينا إحدى السيارات المتقدمة واقفة . قلنا ما خطبكم ؟ قيل سيارة انقلبت فصحننا فزعين : وكيف ركابها ؟ قيل إنها ليست من سياراتنا . وقد أصيب أحد من فيها بجروح مهلكة وهو طالب طب ، وأسرعت به إحدى سياراتنا إلى دمشق ، وركب معنا جريح آخر لم تعجزه الواقعة عن الحركة . كان لهذه الفجاءة وقع مخيف في أنفسنا يصاحبه حمد الله على السلامة حمداً كثيراً

هذه دمشق والساعة ثمان من مساء الأربعاء . والله مكانة دمشق من جلال التاريخ ونصيبها من دول الزمان . منا الذين رأوا دمشق من قبل فهم يجمعون إلى ذكرى التاريخ ذكرى مرآها الجميل ، ومسرح الطرف بين بردى وجبل قاسيون . ومنا الذين يعدون قلوبهم وأبصارهم لرؤية دمشق التي يملأ أنفسهم اسمها وتاريخها .

نزلنا بفندق خوام ، كما نزلنا عام أول ، ولكننا اليوم أكثر عدداً

فنحن أربعة وعشرون ، وكنا في ذلك العام ثلاثة عشر . لم نجد في الفندق متسعاً لنا جميعاً ، فذهب جماعة منا إلى فندق دمشق ، ونفروا إذ سموا أنفسهم « الدمشقيين » . وسموا إخوانهم « الخواميين » . وكل فريق يعرف نفسه . أصبحنا وكل يحاول أن يرى من دمشق في يومه ما لم يره ، فقضينا اليوم في مشاهدتها العظيمة ، وذهب جماعة لمقابلة صاحب الفخامة الشيخ جمال الدين الحسنى رئيس الوزارة السورية ، وصاحب المعالى الأستاذ محمد كرد على وزير المعارف شكراً على ما لقينا من حفاوتهما البالغة عام أول .

— ٣ —

زُمت الأمتعة ، وأزّت السيارات على أبواب الفندق فركبنا والساعة ثمان وأربعون دقيقة وفصلنا من أبنية المدينة بعد ثلاث عشرة من الدقائق . ولكن إلى أين ؟ إلى بغداد ! إنها نوى قذّف ! ولكنها السيارات كالشهب لا تفرق بين بعيد وقريب . كنت أسائل نفسى : ليت شعرى أين طريق خالد بن الوليد حين عبر بادية الشام من العراق إلى دمشق ؟ روى المؤرخون أنه رمى بنفسه وبالجيش فى الببداء عجلان يريد إنجاد المسلمين فى الشام ، فقطع البادية فى خمس ليال . وكان دليله رافع بن عميرة الطائى ، ويقول القائل :

لله عينا رافع أنى اهتدى ؟ فوز من قراقر إلى سوى
خمساً إذا ما سارها الجيش بكى ما سارها قبلك أنسى يرى
خرج خالد من البادية إلى مرج راهط ثم سار إلى ثنية مشرفة على

غوطة دمشق ، فنشر عليها راية النبي عليه الصلاة والسلام التي تسمى العقاب ، فسُميت ثنية العقاب . وكنت سألت الأستاذ الوزير الفاضل محمد كرد علي عن ثنية العقاب فقال : قريبة من دمشق يسميها الناس التنايا . قال : وكنت اقترحت على جمال باشا القائد العثماني أن يبنى عليها مسجداً لتخليد ذكرى خالد والراية النبوية ، فاستحسن الرأي ، وحالت الأحداث .

سرنا ميممين البادية فسألت سائقنا : أين التنايا ؟ فقال : إلى شمالنا في طريق حمص . وقفنا والساعة عشر ورربع عند بنية تسمى : « خان أبو الشامات » . وهناك مخفر تعرض فيه جوازات السفر ، فتنزلنا نتمشى . وتذكرت بطوننا فطيراً تزوده الشحات أفندي أيوب أحد أعضاء الرحلة فتناولنا منه . وقد انتحيت ناحية سائراً آكلاً وإذا بكلب أبلق رآني أهلاً لرجائه فجاء إلى . سارعت فأطعمته مما معي . وكنت أرى في عينيه السرور فأزیده وأقول لنفسی : أليس هو أولى مني بهذه اللقمة ؟ إنه يطعمها على جوع ويتزود بها لجوع آخر ، وأنت تأكلها على طعام لتعبي عليها طعاماً آخر . كل يا كلب الصحراء ! فهي والله صدقة صادفت أهلها . رأيت من بعد بعض الاخوان يعرض على صورتي وأنا أطعم الكلب . قلت : صورتي ؟ قال نعم . قلت : هي والله من أجمل ذكريات الرحلة . قد لقي الفرزدق من قبل ذنباً فأطعمه وقال :

تعش فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من ياذب - يسطحبان
وكان البحتري وذئبه أسوأ حظاً ؛ كان كلاهما ذنباً جائعاً يشتهي



المؤلف يطعم كلباً في الصحراء

لحم صاحبه ، وكانت عاقبة نضالهما على الحياة أن أكل ذئب البشر ذئب الوحش ، ثم تغنى بها في شعره ! لست أدري ما صنع الله بصاحبي خفير الصحراء . إن قُدِّر لي السفر إلى العراق مرة أخرى فلقيته فأعظم بها من سعادة^(١) . . . ولقيت رجلين يقودان سيارتي بضاعة كبيرتين ، وقد تدثر أحدهما بمعطف من الفرو طويل الصوف^(٢) قلت : من أين ؟ قال من طهران . ثم تحدثنا بالفارسية فإذا هو بغدادى . سيكون لهذه الوسائل الحديثة من الأثر في لغات الناس وأخلاقهم ومعارفهم ما لا نستطيع حزره الآن ، وستخلق من سائقى السيارات طائفة من أبناء التجاريب والأسفار يمتون إلى أم كثيرة بوشائج كثيرة .

تركنا خان أبى الشامات والساعة عشر وخمس وأربعون فواصلنا السير زهاء ساعتين ثم أدرك الأعياء والدوار ابراهيم أفندى أمين أحد طلابنا ، والضعيف أمير الرفقة . فنزلنا على مقربة من مخفر اسمه سبع أبيار والساعة اثنتا عشرة وخمس وعشرون . واستأنفنا السير بعد أن انتعش صاحبنا قليلاً والساعة واحدة بعد الظهر نحاول تدارك ما فاتنا مغذّين السير في بيداء جرداء ليس بها إلا ما يسم وجه الأرض من العشب . وكل بادية الشام التى سرنا فيها مستوى أجرد لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً . راق أحد أصحابنا مرأى السهل الفسيح فقال : لو بنى هنا ناد للجامعة ! قلت : ياله

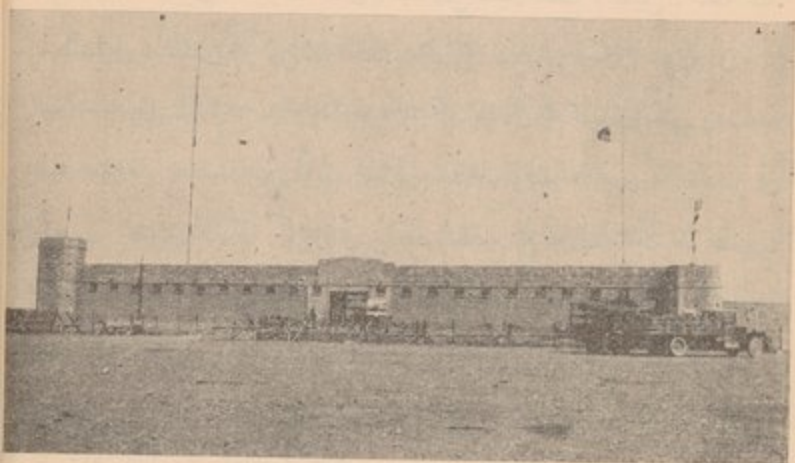
(١) قطعت الطريق خمس مرات بعد هذه ، فلم أظفر بهذا الصاحب .

(٢) يلبس هنا كثيراً في إيران وأفغانستان ويسمى بوستين . وهو الفرو الذى ذكره بديع الزمان الهمذاني في إحدى رسائله .

رأياً سديداً ! وسجلت الاقتراح كيلاً أنساه . وفرحت به فأرخته وكانت الساعة اثنتين وخمسا وأربعين من مساء الجمعة ١٨ رمضان . ومن لنا بحرية الصحراء وسعتها وخشوتها وشجاعتها .

نزلنا والساعة ثلاث للاستراحة والأكل فتساءلنا : أين خروف الشحات^(١) ؟ أين الخروف الذي صحبنا من منيا القمح ؟ فقيل : علمه عند اسكندريار دأفندى (وكيل شركة السياحات) . سأله ، فكان جوابه أن قدم إلينا علبة من الصفيح ، وإذا خروفا قد تضاءل ثم تضاءل حتى وسعته علبة صغيرة . فعجبنا من آيات الله في خلقه ، وقلنا لا غرو فالكسر في الحساب يحتوي أعداداً كثيرة في بسطه ومقامه ثم يختصر فإذا هو صغير . فالحمد لله على أن لم نبلغ الغاية . ومهما يكن فقد كذب من قال : إن المادة لا تحدث ولا تقف . أخذ بعضنا من خلاصة الخروف شيئاً وشاق بعضنا لعب الكرة فتلاعبوا بصفيحة فارغة فكان لعباً ممتعاً يسيراً لا جلبه فيه ! والصفائح الفارغة كثيرة في الطريق يلتقيها سائقو السيارات ، ويتخذونها علامات على السبيل . كان منزلنا هذا قرب الحدود . بين الشام والعراق كذلك أخبرنا السائق وما رأينا للحدود من علامة إلا أن تكون بعض هذه الصفائح وكومة صغيرة من المدر . والذي وصله الله لا يفصله الإنسان ثم سرنا دأباً حتى أغطش الليل . وكان أستاذنا العبادي يقرأ قصة مجنون ليلى لشوقي بك . وفي القصة ذكر الجن ورفودهم راكبين القنافذ والسلاحف . فلما أظلم الليل قلنا نعوذ بالله من هذه القصة ، وتوقعنا أن يقابلنا

(١) الشحات أيوب أفندى أحد الرفقاء



مخفر الرطبة في بادية الشام على طريق دمشق بغداد

وفد من اخواننا لاسيما حين هبطنا وادياً تُسائرنا فيه بعض الآكام .
ثم التفتنا إلى الخلف فإذا ظل يلزم السيارة لا يفارقها قفلنا : عداء من الجن
اللهم اجعل ظلّه خفيفاً . وتمادت بنا الصحراء زهاء ساعتين بعد المغرب
حتى بلغنا الرطبة . وهى مخفر كبير به جند ، وينزل بقربه جماعة من البدو
وعلى مقربة منه مأوى للطيارات . وقد رفعت على البناء سارية عالية
فى رأسها مصباح وضّاء يهذى السائرين بالليل .

وفى البناء نُزل للمسافرين لم نحتاج إليه إذ كانت خطيتنا مواصلة السفر .
وجاءنا صبي اسمه عبد الكريم يدعوننا إلى الشاي خانه . وهو خباء على
مقربة من باب المخفر يجد فيه المسافر الشاي . وما أسرع ما ألقنا الصبي
فكان ينهى فينا ويأمر وهو يعطينا الشاي . ولا يعرف لنا إسماً ولا لقباً
إلا « الولده »^(١) . قضيناها ساعات ممتعة ، ثم انطلقنا والساعة عشر . فما زال
بنا الادلاج فى القمراء حتى أضاء النهار . وبعد قليل بلغنا الرمادى إذ
كانت الساعة خمساً وخمساً وأربعين (هذا التوقيت بحساب ساعتى أى
حساب مصر . والفرق بين مصر والعراق ساعة) فرأينا النخيل نخيل العراق
وعرفنا أننا ودعنا البيداء وأقبلنا على العراق ماضيه وحاضره

بلغنا الرمادى مبكرين فنزلنا ريثما نستريح وتعلم الجوازات . ثم فصلنا
والساعة سبع وخمس . سألنا السائق أين نحن من نهر الفرات ؟ قال : على
مقربة . فتطلعنا لمشهد نهر التاريخ المتدفق بالحداثات ، وازدحمت فى النفس
(١) لفتت عبد الكريم مرأت بد هذه فى المكان نفسه ، وقد بنيت مكان الحيمة
حجرة كبيرة .

ذكريات الفرات ، ومرت الأحقاب تترى كما تتوالى في السينا المشاهد
سراعاً . وبعد عشرين دقيقة من مفارقة الرمادي لاح الماء فشغل كل
بالتطلع إليه ، وذهبت فيه الأبصار والأنفس مذاهبها . ثم ناوحن الجنوب
سائرين والنهر حتى بلغنا جسر الفلوجة ، وهو جسر معقود على سفن من
الخشب^(١) . والفلوجة قرية صغيرة مشرفة على الشاطئ الشرقي وقلاليج
السواد ذكرني في التاريخ . وهذه الفلوجة بقية الأنبار القديمة مدينة السفاح
أول الخلفاء العباسيين . وفي روايات الفرس أنها كانت تسمى فيروز سابور
بناها سابور بن هرمز ذو الأكتاف (٣٠٩ — ٣٧٩ م) . عبرنا النهر
إلى ما بين النهرين أرض الخصب والثراء والزرع والثمار ميممين الشرق
والأفندة تهوى إلى بغداد ؛ انطلقت السيارات ساعة ونصف ساعة في سهل
أفيح تمسحه العيون في كل ناحية فما يحد الطرف مرأى مدينة ولا قرية
ولا غابة ولا شجرة حتى بلغنا المدينة . لشد ما برحت الحادثات بالعراق ،
ولشد ما عصفت بجناته نوائب الزمان .

— ٤ —

هذه بغداد . وقفنا عند الجمرك ثم سرنا لنجتاز النهر فإذا جسر مود
مفتوح فلا بد من التريث قليلا . جسر سود ؟ أجل جسر على دجلة سمي
باسم قائد انكليزي . وحسبك أن تفتتح بغداد باسم مود ، لا باسم المنصور
أو الرشيد أو المأمون^(٢)

(١) أقيم مكانه جسر من حديد (٢) سمي هذا الجسر من بعد باسم الملك علي



جسر الملك عليّ على دجلة

لا أنت أنت ولا الديار ديار خفّ الموى وتولّت الأوطار

نزلنا بفندق كلارج وقد نال منا التعب فاسترحنا

وفي العشي جاء إلى الفندق وفد من كبار وزارة المعارف مسلمين
مرحّبين . وكان بينهم الأخ الأديب رسول المعارف المصرية في العراق
الأستاذ أحمد حسن الزيات . وكنا أعدنا خطة لزيارتنا بغداد والعراق
فاستبدل بها رجال المعارف في بغداد خطة أجدى وأوفى بالغرض . ورب
الدار أدرى بما فيها . وقد اجتهد إخواننا ، رعاكم الله ، في الخطة التي سنوها
أن يرونا من العراق ما نستطيع أن نراه في الأيام المحدودات المقسومة
لاقامتنا هناك ، وأن يبلغوا من الحفاوة والاكرام ، والتطول والتودد
والإيناس ما تتسع له أيامنا وما لا تتسع . فما تركوا في خطتهم ساعة
إلا استغرقوها برعايتهم ومروءتهم . وخير ما توصف به حفاوة إخواننا
العراقيين بنا أن نمسك عن الإبانة عنها ، لنذهب الظنون مذهبها في المروءة
العربية ، والأخوة العربية تحتفلان بأخوة قدموا لإحكام الألفة ، ووصل
ما حاول ، أن يقطعه الزمان .

قضيت ليلة الأحد هائماً في أحلام من التاريخ أو تاريخ من الأحلام
وقد جمع لي التاريخ كله في ليلة واحدة : يخيّل إلى تارة أني ذاهب لأرى
موكباً من مواكب الخلفاء أو أقف بباب قصر الخلد أو قصر التاج لأرى
الوافدين على القصر والخارجين ، وتارة أتوهم أني سائر في دروب بغداد
أسأل عن دار أبي حنيفة أو أحد صاحبيه لأشهد مجالس الفقه ، ومرة أراني

مسائلا عن دار الحكمة لأشهد المترجمين فيها والنسّاخ ، وأخرى محدّثاً
نفسى : "يُي أين دكا كين الوراقين ؟ هلمّ لترى بعض ما فيها من الكتب .
وبينا أشتاق إلى رؤية ابن حنبل أو الأشعري إذا أنا متطلع إلى رؤية
الاسفرايينى أو الباقلانى فيشطّ بى الخيال إلى الكندى أو أحد أضرابه
وقد أعود من طريقى إلى دار أحد أئمة الكلام مبادراً إلى مجلس أبى نواس
وأضرابه من الشعراء فتسرع بى الفكاهة إلى السؤال عن دار ابن الرومى
لأرى كيف يتشاءم من جاره الأحذب ، ثم أرانى سائراً إلى النظامية
لأرى الغزالى فى درسه أو إلى المستنصرية لأرى كيف يعيش طلاب العلم
بها . وبينا أسأل أحد المارين أين بالكرخ سوقة غاب التى نزل بها
المعرى حين قدم بغداد ، إذا بى أسأله قبل أن يجيبنى : وأين دار سابور
التى يقول فيها أبو العلاء :

وغنّت لنا فى دار سابور قينة من الورق مطراب الأصائل ميهال الخ
وأين ربّض حميد حيث دار على بن حمزة البصرى التى نزل بها
أبو الطيب المتنبي ؟

وقد أشهد فى طرفة عين الرشيد قافلا من غزاة ، والمعتصم متأهباً
لفتح عمورية ، وثورات الجند على الخلفاء ، وجيوش البويهيين والصلاحية
رائحة وغادية ثم جيوش التتار مدمرة مخربة — بغداد فى نعيمها وبؤسها ،
وخيرها وشرها ، وكبريائها وذلها ، وشدها ورخائها — بغداد مركز الدائرة
من الممالك الإسلامية المتعاونة على نسج مدنية واحدة ، ترسل العلماء

إلى الأرجاء ، وتستقبل العلماء من الأرجاء ، وتبث الآراء وتستمع إلى الآراء — بغداد يدوى صداها في المشرق والمغرب ، ويمت إليها القاصي والداني ، وتتقلب بها غير القرون وعبر الدهور — كل هذا تمثل لي مزدهجاً مضطرباً مأثجاً متقلباً . . .

غدونا نجول في المدينة في صحبة جماعة من رجال المعارف ، فرأينا بقية من المدرسة المستنصرية التي بناها المستنصر بالله حوالي سنة ستائة وثلاثين رأينا بناء مشرفاً على دجلة قد اتخذ الآن للجمرك ، وقرأنا على جداره اسم المدرسة والخليفة ، وأن السلطان عبد العزيز العثماني قد عمر البناء . ورأينا خانا هناك يظن أنه بقية من قصر الأمراء الذي كان ينزل به أبناء الخلفاء ، وذهبنا إلى منارة في سوق الغزل قائمة وحدها لا تتصل بمسجد ، فذكرتني قول أبي العلاء في حصن أفاعية :

وحيد بشعر المسلمين كأنه بفيه مَبْقَى من نواجد أدرد

وقد قيل إن المنارة فيما يظن بقية من المدرسة النظامية التي بناها في القرن الخامس الهجري الوزير نظام الملك وزير السلاجقة .

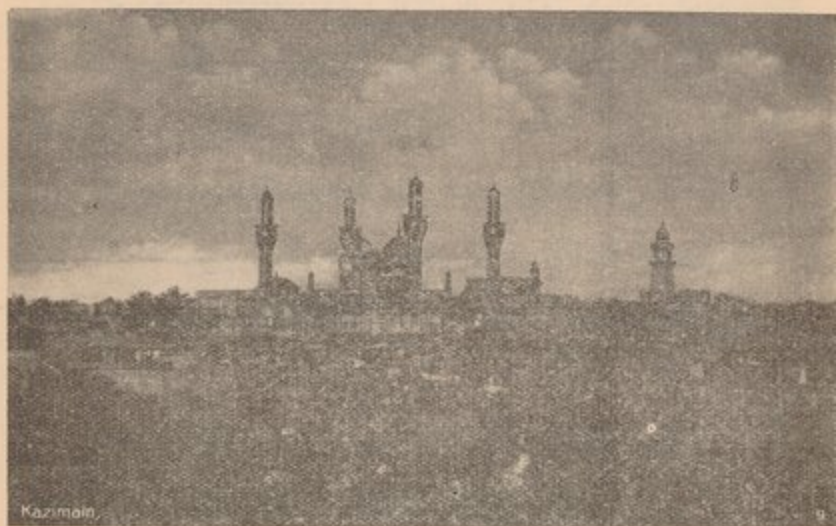
ثم سرنا إلى الخندق وهو من آثار سور بغداد ، وبجانبه قطعة من السور ، وباب ضخ من أبواب المدينة كان يسمى باب خراسان . ويظن أنه من عمارة الخليفة المستنصر بالله ، ثم إلى قصر على دجلة يسمى قصر المأمون كان معسكراً أيام العثمانيين ، ويظهر أنه من آثار السلاجقة .



منارة سوق الفزل

ثم توجهنا والساعة ٣٠ - ١٢ إلى القصر الملكي ، قصر جلالة الملك فيصل فشرطنا بكتابة أسمائنا هناك . وبعد عشر دقائق بلغنا البقعة المباركة - الأعظمية حيث مسجد الإمام الأعظم أبي حنيفة وقبره . والمسجد حسن النظام جميل المראה ، وفي ناحية منه حجرة بها ضريح الإمام عليه مقصورة كتب عليها أنها صُنعت بأمر جلالة الملك فيصل . وأمام المسجد فناء ينتهي إلى مدرسة للشرعية وما يتصل بها تسمى كلية الإمام الأعظم . ثم فصلنا من الأعظمية إلى المتحف العراقي . وقد تفضل أمين المتحف السيد عبد الرزاق الأعظمي فبين لنا ما هنالك من آثار البابليين والآشوريين والعلمانيين والآثار الإسلامية ، وعسى أن يبلغ المتحف بهمة إخواننا أهل العراق مكانة تليق بمجد بغداد . خرجنا من المتحف والساعة اثنتان ونصف بعد الظهر . وقد بقي المتحف من أجلنا مفتوحاً بعد موعد إقفاله .

ثم قصدنا الكاظمية وهي على مقربة من بغداد غربي دجلة ، وبها مسجد الإمام الكاظم والإمام الجواد . بلغنا المسجد المبارك فلما دخلنا بهرنا مرآه جمالا وزينة ؛ رأينا فناء واسعاً يحيط به أبنية فيها مكاتب ومدارس ، ويحيط الفناء بمسجد رائع يواجه القدام بباب جميل قد غشيت علياؤه بصفايح الذهب ، وارتفعت من فوقه ظلة عظيمة من الخشب ينهض بها عمودان رفيعان يغشيهما البلور . وقد لاحت فوق المسجد وعلى جانبيه قبة ومنارتان في حلة من الذهب الوهاج . وقفنا عند الباب فدعونا ثم اجتزنا العتبة فإذا قباب صغيرة حول القبة الكبيرة في لآلاء من البلور والذهب



مسجد الكاظمية

والفضة يحسر الطرف دون تأملها . وليس يفى الوصف بهذه المشاهد الجميلة التي تمثلت لنا بناءً من الأمانى أبدع فيها الخيال . زرنا الإمامين ثم رجعنا إلى بغداد وفي النفس حنين إلى معاودة المسجد العظيم .

ثم ذهبنا والساعة تسع من المساء إلى فندق كارلتون إجابة لدعوة دار المعلمين فالفينا جمعاً حافلاً من رجال العلم . وأنى أكل إلى جريدة صدى العهد وصف هذه الحفلة قالت :

« هبطت رسالة من مصر إلى العراق في أشخاص طلابها النبهاء وأساتذتها الكرام . وفي العراق حنين إلى قلب الشرق النابض : مصر المحروسة ، وفي قلوب أبنائه وجيب أحدثته النكبة المشتركة والأمل الأوحد المنشود !

فصر أم الحضارات وحاملة لواء الثقافة الحديثة شقيقة دار السلام مهد الخلفاء وصاحبة المستنصرية وذات الجدد التليد !

ومصر المعذبة المضطهدة تربطها بالعراق الفجيع بحريته السليبية روابط الأخاء والتاريخ المشترك والجهاد العنيف !

فما إن وطئت أقدام « البعثة » أرض الرافدين حتى شهدت الناس تتحدث ، والوفود تهرع إلى نزل كلارج لتحية رسل مصر والسلام على أبناء الشقيقة ونختها الصالحة !

١ — الحفلة التكريمية :

وبعد أن انتهت الزيارات الرسمية أقامت لهم دار المعلمين العالية حفلة

شأى فى أوتيل كارلتون المطل على دجلة ، وكان ذلك مساء أمس الأول حيث لم تأزف الساعة التاسعة زوالية حتى غصت القاعة الكبرى لفندق كارلتون بالمدعوين من الأساتذة والوجهاء ورجال المعارف ، وقد حضرت نخبة من الأوانس والسيدات فى الحفلة ، وقد افتتحها الأستاذ درويش المقدادى بكلمة ترحيب أوضح فيها الروابط المتينة بين القطرين الشقيقين تلك الروابط التى تمت إلى مدينتيهما القديمة ، وعرج إلى « السياسة » التى عملت على إبعاد الثقة بين بلدين متحدين ففرقت بينهما دسائس المستعمرين ومكرهم :

ثم أعقبه الشاعر الفيلسوف الأستاذ جميل صدقى الزهاوى فالتقى قصيدة استعيدت أكثر أبياتها .

ثم تلاه الأستاذ أحمد أمين مؤلف كتاب فجر الإسلام ، وتحدث عن تاريخ العراق القديم ، وما كان له من مركز فى عهد الخلفاء العباسيين وكيف كان منارة تشع منها أنوار العلم والعمران ، وكيف خبا ذلك النور وآل إلى جهل وأسر واضطهاد ! وتمتلى لويرد العراق هذه الزيارة إلى مصر فى العام المقبل !

ثم أعقبه الأستاذ عبد الوهاب عزام . (وهو شقيق النائب الوفدى الكبير الأستاذ عبد الرحمن عزام . صاحب المقالات الضافية فى البلاغ الأغر) ، وألقى خطبة بليغة عن الوحدة العربية وضرورتها فى هذا العصر الذى يسعى فيه المفكرون إلى وحدة عالمية ويسعى فيه الغرب إلى وحدة أوروبية

ثم أخذ تصوير الحاضرين وهم يتناولون الشاي ، وأخذوا يتبادلون المقاعد للتعرف فيما بين الحضور »

انقضّ الجمع والساعة إحدى عشرة وفي القلوب ذكرى خالدة من هذا الحفل الذي جمع لأول مرة بعثة الجامعة المصرية بعلماء العراق ، وكان فاتحة عهد من التعاون والتواد لا ينقطع إن شاء الله .

وفي يوم الاثنين زرنا المدارس : مدرسة المعلمين العليا ، والمدرسة الثانوية ، واستمعنا للدروس . ولا يسع زائر مدارس العراق إلا الإعجاب ، على قدر ما توحى إليه النظرة العجلى ، بجهد القوم ومحاولتهم التكمّل جهد الطاقة . والله ييسر لهم كل عسير حتى يبلغوا بأمتهم أعلى الدرجات . وقد اختلط أعضاء البعثة بالطلبة في فناء المدارس فتحدثوا وبث كل الآخر ما في قرارة قلبه ، وأخذت صورهم أثناء ذلك . وأرجو معذرة الإخوان العراقيين حين أوجز الكلام ، وأطوى المعاني الطويلة في الألفاظ القصيرة فبحال الكتابة ضيق ، والكتاب يعرف بعنوانه . ثم عبرنا دجلة إلى الشاطئ الآخر أو ذاك الصوب ، كما يقول البغداديون ، فزرنا مدرسة المعلمين الابتدائية ، وهي في بناء ضخم كان دار النيابة إلى عهد قريب ، قابلنا حضرة مدير المدرسة الفاضل الدكتور متى عقراوى ، فلقينا من حفاوته

وحفاوة المعلمين والطلبة ما ملأ أنفسنا شكراً . وقد اجتمع طلاب المدرسة في مدرّج عظيم كان قاعة النواب من قبل ، ثم جلسنا جميعاً نستمتع كلمة الأستاذ المدير ، ثم كلمة لأستاذنا العبادي نصّح فيها الطلبة ، وأبان عن واجب المعلم ، وأثره في تقويم الأمة ، وحث على أن يغبط المعلم بأداء واجبه غير ملتفت إلى شيء آخر .

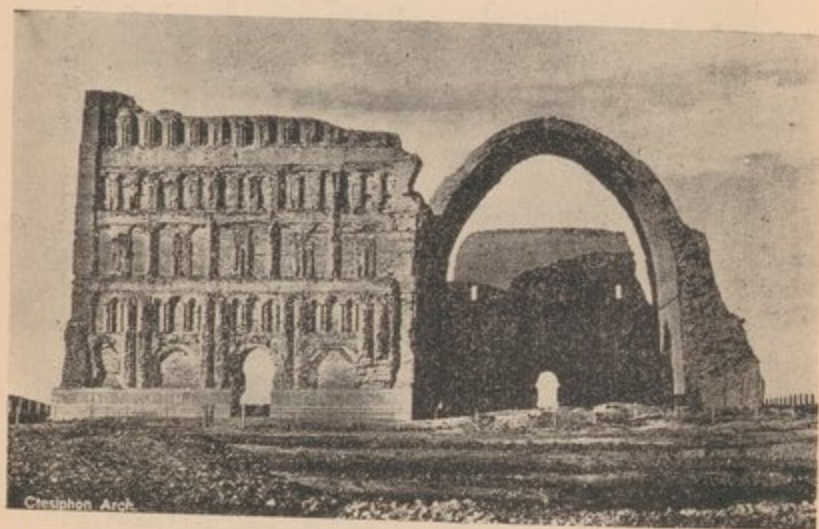
أنشد الطلبة نشيداً حماسياً موقّعاً على الموسيقى ، تولى إرشادهم فيه الأستاذ مدير المدرسة ، وأنشد الطلبة المصريون نشيداً مصرياً . ثم خرجنا وخرج الأساتذة والطلبة مودّعين . ووقف الطلبة أمام المدرسة على شاطئ دجلة المجيدة ينشدون أناشيدهم . والله هذه الأصداء يدوى بها الفضاء تبعها قلوب متوقّدة في أصوات مرتّلة موزونة ! لست أنسى هذه الأهازيج تدوى بها دجلة ، والزوارق تسير بنا على خدائها حتى بلغنا الشاطئ الآخر والطلبة وقوف ينشدون . لقد سعد القلب والعين والأذن بما لا يتاح على الزمان إلا قليلاً . ولا يزال في قرارة نفسي منظر الطلبة ودوى أغانيهم بين شاطئ الزوراء .

وللعراقيين عناية بأناشيد الطلبة يكثر منها ويحس السامع أنها أناشيد تملؤها الحماسة والآمال لا يحدّ معانيها رغبة ولا رهبة ، فهي ترجمان نفوس حرة أنطقت أناشيدها بما في سرائرها . وقد أهدى إليّ الفاضل الأديب السيد طالب مشتاق سكرتير وزارة المعارف كراسات فيها من الأناشيد

المعجب المطرب . فله الشكر الخالص . ثم عبرنا إلى العدو الشرقية فزرنه مدرسة الطب ومدرسة الحقوق .

وفي العشي ذهبنا إلى أبيض المدائن ، إلى البقية الفضة التي ثبتت على أعاصير القرون ، من مدائن كسرى . فصلنا من بغداد إلى الجنوب الشرقى فاجتزنا نهر دىالى الذى يرفد دجلة ، واتهينا إلى البقعة التي تسمى « سلمان باك » أى سلمان الطاهر . وفيها قبر سلمان الفارسي رضى الله عنه . على مقربة من قرية « سلمان باك » بناء شاهق هو إيوان كسرى : ثلاثة جُدُر هائلة عاتية مشيدة بالآجر ، ترسم على الأرض ثلاثة أضلاع من مستطيل . وينتهى الجداران الجانبيان بقوس عظيم رائع ، هو سقف الإيوان ، ويمتد من مدخل الإيوان إلى يمينه أو يسار الداخل بقية جدار رفيع فيه ثلاث طبقات من النوافذ عدا الطبقة الأولى . وكان إلى يسار الإيوان جناح آخر انهدم منذ عهد قريب . ووراء البناء بقايا أقواس وجدر يحار الطرف فى جلالها ، (وقد انهدمت عليها الجدار الخلفى وجانب من السقف) .

وقد بلغ قوس الإيوان وسمكه حداً يُمْكِن الإنسان أن يصعد على ظهر البناء حتى القمة متشبهاً بالفجوات التي تصدع عنها . وأن الإنسان حين يقف أمام الإيوان خاشعاً ليتخيل نسرأهرما ذهبت الحادثات بأحد جناحيه وهاضت الآخر وحصت ريشه ، ولكنه ما زال فى كبريائه يتجلد رافعاً



ایوان کسری

رأسه طامح الطرف يرمى بنظراته أقطار السماء يحاول أن يرجع في اللوح
سيرته الأولى .

فهو يبدى تجلداً وعليه كل كل من كلا كل الدهر مرسى
قد وقف البحترى من قبل ألف ومائة عام يعجب من جلال الإيوان
ويقرأ على جدره العبر بين آيات الصور . فأوحى إليه قصيدة هى فى الشعر
كايوان كسرى فى القصور :

حلم مطبق على الشك عيني أم أمان غيرن ظنى وحدسى
ليس يدرى أصنع أنس لجن سكنوه أم صنع جن لأنس
مشمخر تبذره شرفات رفعت فى رءوس رضى وقُدس

غير أن الصور التى وصفها البحترى قد لحقت بمصورها :

فإذا ما رأيت صورة إنطاكية (م) ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأتو شروان (م) يزجى الصفوف تحت الدرفس
فى اخضرار من اللباس على أصفر (م) يخال فى صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه فى خفوت منهم وإغماض جرس
من مشيح يهوى بعامل رمح ومليح من السنان بقرس
تصف العين أنهم حيد أحياء (م) لهم بينهم إشارة خرس
يغتملى فيهم ارتياحى حتى تنقراهم يداى بلرس
ووقف الشاعر الفارسى الخاقانى بعد البحترى بثلاثة قرون فأنشأ
قصيدته الرائعة التى أولها :

فان أى دل عبرت بين أزيدده نظر كن هان
إيوان مدائن را آيينه عبرت دان
« أيها القلب المعتبر سرح نظرك واتخذ من إيوان المدائن مرآة للعبر »
ولا يزال الإيوان قائماً يوحى البيان والعبر إلى كل معتبر .
تركنا الإيوان قبيل الغروب راجعين إلى بغداد .

وبعد المغرب ذهبنا إلى فندق كارلتون لتناول العشاء إجابة لدعوة
نادى المعلمين . وكان هناك حضرة صاحب المعالي عبد الحسين الجلبي وزير
المعارف ، وجماعة من كبار رجال الحكومة لا سيما رجال وزارة المعارف ،
وطائفة من الأدباء وبعض رجال الصحف . وقد أنشد الشاعر الكبير
معروف الرصافي قصيدة أشار فيها إلى نهضات البلاد الشرقية . وخطب
الأستاذ أحمد أمين والدكتور متى عقراوى . وإليك وصف الحفلة فى إحدى
صحف بغداد . قالت :

« وزعت الأماكن على المائدة . وقيل حينئذ أن نخامة نورى باشا
السعيد رئيس الوزراء لم يتمكن من الحضور ، فجلس فى محل الشرف معالي
عبد الحسين الجلبي وزير المعارف ، وإلى يمينه حضرة الأستاذ الكبير
السيد أحمد أمين رئيس الوفد المصرى ، وإلى يسار معالي الوزير سعادة
طه باشا الهاشمى . . . وعن يمين حضرة رئيس الوفد سعادة رشيد بك
الخوجه مدير المعارف العام . . . وفى الصفين الآخرين حضرة الأستاذ
الزهاوى ، وحضرة الأستاذ الرصافي وغيرها بحيث أن المدعوين أشغلوا

خمسين كرسياً ، ٢٤ منها جلس عليها أعضاء الوفد ، و ٢٦ سائر المدعوين
وفى جملتهم أرباب الصحافة وأعضاء نادى المعلمين وغيرهم .

ثم ألقى الدكتور متى عقراوى مدير دار المعلمين خطبة نفيسة ، رحب
فيها بأعضاء الوفد الكريم ، وبحث فى وجوب وكيفية توحيد الثقافة
العربية فى الأقطار الناطقة بالضاد . وأبدى بهذا الشأن الخطير آراء فلسفية
ناجحة كان لها أحسن وقع فى القلوب . «

وختم الحفلة حضرة الأستاذ الجليل السيد أحمد أمين رئيس الوفد
المحتفل به بخطاب بليغ شائق . . . ثم ختم خطابه قائلاً : « أكرر لكم
الثناء وأعترف بما ملأ قلبى شكراً وإخلاصاً وامتناناً من كرمكم وعواطفكم
السامية » .

وبعد العشاء ذهبنا مع الأستاذ جواد الدجيلي المحامى — أخى صديقنا
الأديب الأستاذ كاظم الدجيلي سكرتير قنصلية العراق بمصر الآن —
إلى الكرخ فشهدنا فى الحسينية مجلساً من مجالس العزاء التى يجتمع فيها
إخواننا الشيعة لذكرى مقتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب — فرأينا
داراً واسعة وجمعاً حاشداً فقابلنا إخواننا بالترحاب وخطب أحد طلبة المعلمين .
وهذه الدار يدّعيها الآن البهائيون وقد رفعوا أمرها إلى عصبة الأمم —
ونحن نثبت هنا وصف جريدة العالم العربى لهذه الزيارة بقلم مشاهد :

احتفاء الشيعة بالوفد المصرى

طلب الوفد المصرى إلى الأستاذ جواد الدجيلي المحامى أن يشاهد مأتماً من مآتم عزاء سيدنا ومولانا الحسين عليه السلام التى تجرى عادة فى العراق ، وعندما رأى رغبتهم فى ذلك شديدة أو عنى إلى القائمين بالعزاء أن يستعدوا بالاحتفاء بالوفد الكريم . وقبل أن تزف الساعة العاشرة ونصف الزوالية من مساء الاثنين الماضى ، وقد توافد إلى المآتم الجموع الغفيرة من بغداد والكاظمية حتى غص بهم المجلس مع سعته . وقد ملئت السطوح والأزقة حتى بلغ بهم الشوق والخفاوة أن وقف الناس على جانبي الطريق المؤدى إلى الحسينية الكبيرة الواقعة فى جانب الكرخ حيث يقام العزاء يرحبون بالوفد المصرى ، وكان يتقدمهم المحامى جواد الدجيلي إذ كان هو الواسطة الوحيدة للتعارف بهم ، وعندما استقر المجلس بهم قام أحد الشبان فألقى كلمة ترحيبية تناسب المقام نالت استحسان الجميع ، ثم تلاه حضرة الأستاذ عبد الوهاب عزام فشكرهم على الخفاوة التى لاقاها الوفد ، ثم ذكر طرفاً من سيرة الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ، وذكر مقتله بمناسبة وفاته ليلة ٢١ من شهر رمضان المبارك وذكر فى خطابه أن البلية العظمى بوفاة على بن أبى طالب قد أصابت المسلمين بصورة عامة ثم حثهم على التمسك بالوحدة الإسلامية وشكرهم على احتفائهم بهم ، وهنا جاء جمع عظيم أراد الدخول إلى ساحة الحسينية

فأحدث ضوضاء ، فقام المحامى جواد الدجيلي وخطب بالجمع ومن جملة خطابه قوله :

« أيها الإخوان إن الأمم في العالم يحصل عندها اجتماع أكبر من هذا الاجتماع ولكن السكوت يسودهم ولا يمكن للأمم الراقية أن تحل محلاً رفيعاً وتكسب حسن الأحداث ما لم تخلد إلى الهدوء والنظام ... وبما أن الوفد قد حل بين ظهرانيكم وهو يود أن يشاهد مأتماً من ماتم سيدنا الحسين عليه السلام فأرجو أن تكونوا مثلاً للأخلاق لكي يرى الوفد ما تخفيه جوانحك النقية من الفرح والاستبشار حتى يعلم الجميع أن الطائفة هي من الطوائف التي لا يستهان بأمرها والتي تقدر أهل العلم وحمة الثقافة العربية في الأقطار الإسلامية وخصوصاً مصر وأنه لا يوجد تعصب عندهم خلاف ما هو الشائع عنهم وقد ظهر ذلك جلياً عند ما شاهدوه وما لاقوه من الحفاوة والإكرام

ثم قام الخطيب حضرة الأستاذ كاظم الكاظمي وافتتح الحفلة مرحباً بمقدم الوفد وتطرق بالبحث إلى كتاب (فجر الإسلام) لصاحبه الأستاذ أحمد أمين ، وقد كان حاضراً في مقدمة أعضاء الوفد المصري ، وما أودع في الكتاب من النيل من كرامة الشيعة والتهم الموجهة ضدهم فيه مع أنهم بريئون منها ، وذكر الخطيب أن الأستاذ (أحمد أمين) لم يعلم أن الشيعة كانوا من أهل السنة من حيث تعدد الفرق وإن أحكمهم الإمامية الأصول لأن مستنداتهم كلها مستندة عن رسول الله برواية أهل بيته ولم يودعوا

في كتبهم خبراً ما لم يثبتوا صحة نقله ، ثم يأبون أن توصم طائفتهم بعقائد غيرهم ...

ثم ذكر الخطيب أن ابن حزم الظاهري وأمثاله قد صوب سهام انتقاده نحو هذه الطائفة وأتمتهم الأطهار وذلك بما أوحته إليه مخيلته السقيمة بينما نجد من منصفى علماء السنة والجماعة من ذكروا خلاف ذلك ... وعلى هذا لا يجوز الأخذ بأقواله والتعويل عليه ...

ثم رجا الخطيب من الأستاذ أحمد أمين إذا أراد أن يكتب فيما بعد أن يثبت بالنقل نحو هذه الطائفة حفظاً للجامعة الإسلامية ، نظراً للحالة الحاضرة وما عليه العالم الإسلامي من تفرق الكلمة بين أبنائه ، لا سيما والعالم الغربي يستخف من سوء العادات المنتشرة في الشرق . وصاح : « أرجو أن تكونوا متحدين تجمعكم الجامعة الإسلامية وبالأخص في هذه الأيام العصيبة ... ! » . اهـ

وبعد انتهاء خطبته انفض الجمع وقد احتفل بوداع الوفد بمثل ما قوبل به . ثم خرجنا إلى دار كبيرة جميلة البناء والأثاث ، دار السيد محمد حسن خان من كبار الشيعة في الهند ، فلما استقر بنا المجلس دخل شيخ وقور غنيا ورحب ثم تحدثنا قليلاً ولما عرف أنى أعرف الفارسية شرع يتحدث عن شعرائها وينشد لنفسه أبياتاً من الشعر الفارسي . وبعد قليل خرجنا شاكرين نؤم الشاطئ الشرقي فأوينا إلى الفندق وقد أحمدا ما لقينا .

في يومنا هذا من مشاهد الماضي والحاضر ، وما آنسنا من آيات المودة
حيثما حللنا .

أصبحنا يوم الثلاثاء نتجهز للسفر إلى كر بلاء ومعنا الأخ النجيب
السيد عزيز سامي المفتش بوزارة المعارف — عبرنا دجلة خارجين من
بغداد والساعة عشر من الصباح وسرنا إلى الجنوب فمررنا بقرية اسمها
الحمودية ثم أخرى تسمى السكندرية ، ثم ملنا قليلاً إلى الغرب حتى بلغنا
المسيب على شاطئ الفرات والساعة اثنتا عشرة . وفي المسيب قابلنا من بها
من رجال التعليم فساروا معنا إلى الهندية حيث القناطر التي تسمى
سدة الهندية ، قناطر على الفرات لحبس المياه وتوفيرها للرى . وهي شاهدة
بما يبلغه العراق من الخصب والرفاه حين تقام أمثالها في مواضع الحاجة
من دجلة والفرات . فهناك يتشعب من الفرات أربع شعب عظيمة : إثنان
في الغرب إحداها نهر الحلة ، وإثنان في الغرب إحداها نهر كر بلاء ، عبرنا
الفرات على قنطرة الهندية ميممين كر بلاء ، فاتجهنا نحو الشمال الغربي
والساعة واحدة مؤملين أن نبلغ غايتنا بعد نصف ساعة ، وقد تحول الأحوال
دون الآمال ! كان بعض الطريق وحلاً فارتطمت فيه بعض السيارات
مرة بعد أخرى ثم استقام لنا الطريق من بعد فإذا حدائق كر بلاء والساعة
اثنتان وربع . وفي كر بلاء نخيل وأشجار كثيرة مرّت عليها السيارات نصف
ساعة حتى دخلنا البلد ، فسرنا إلى المدرسة المتوسطة حيث ألقينا مديرها



سد الهندية

ومعالمها منتظرين مُعدّين كل وسائل الحفاوة والإكرام ؛ إسترحنا قليلاً
ثم يمنا المسجد المبارك الذي به ضريح الحسين بن علي رضي الله عنهما فرأينا
مسجداً عظيماً على نسق مسجد الكاظمية في بنائه وزينته. ولجنا الباب إلى
ساحة واسعة فإذا إلى اليسار جماعة قد وقفوا صفوفاً يدقون صدورهم دقات موحدة
موزونة وأمامهم منبر عليه خطيب يتكلم عليهم ، وإلى اليمين أبصرنا جماعة
من النساء جالسات يولولن في الحين بعد الحين مستمعات إلى محدث آخر .
وذلك أن اليوم كان من أيام ذكرى مقتل الإمام علي بن أبي طالب .
وقد دخلنا المسجد فإذا هو يدوى بالقارئین والداعين ، فزرنا الضريح
المبارك ومنعنا جلال الموقف أن نسرّح أبصارنا في جمال المكان وما يأخذ
الأبصار من زينته وحليته وروائه ، وبجانب المسجد مسجد آخر فيه ضريح
العباس بن علي ، وفيه سرداب يهبط فيه نحو عشر درجات إلى مكان
مغطى بشبكة من الحديد يسمونه المذبح ، ويقولون أن دم الحسين
رضي الله عنه سال فيه حيناً قتل في فاجعة كربلاء . وهناك زاوية يقال
أنها مولد المسيح عيسى بن مريم . ثم هناك حجرة في ناحية من المسجد
دفن فيها من ملوك القاجاريين آخرهم أحمد وأبوه محمد علي وجده مظفر الدين .
والقبور ليست عالية وإنما هي بلاطات في ناحية من الحجرة ، وقد علق
في مقربة منها صور الملوك الثلاثة ، ووددت لو أمكننا الوقت فأطلنا المقام
في هذا المشهد العظيم لأطيل الحديث عنه . ولكنها كانت زيارة عجلاً
يكفي بتأدية الواجب .

در این شهر زیارتگاه امام حسین علیه السلام و قبر آن بزرگوار است
 که در این شهر واقع شده و در این شهر است که در این شهر
 قرار دارد و در این شهر قرار دارد و در این شهر قرار دارد
 و در این شهر قرار دارد و در این شهر قرار دارد و در این شهر
 قرار دارد و در این شهر قرار دارد و در این شهر قرار دارد



مقام حضرت امیرالمؤمنین علیه السلام، کربلا

در این شهر زیارتگاه امام حسین علیه السلام و قبر آن بزرگوار است
 که در این شهر واقع شده و در این شهر است که در این شهر
 قرار دارد و در این شهر قرار دارد و در این شهر قرار دارد
 و در این شهر قرار دارد و در این شهر قرار دارد و در این شهر
 قرار دارد و در این شهر قرار دارد و در این شهر قرار دارد

برحنا كربلاء والساعة خمس من المساء قاصدين النجف الأشرف ،
فناوحنّا الجنوب منحرفين قليلاً إلى الشرق في بيدااء جرداء فبلغنا
النجف والساعة سبع . والنجف مدينة مسورة بُنى سورها أيام ثورة
الوهايين الأولى ، خيفة على المدينة من عاديّتهم . نزلنا في دار النائب
الوجيه عبد الرزاق آل شمس فاستقبلنا هناك حاكم البلد (القائمقام) وكثير
من العلماء والفضلاء . ثم سرنا إلى مشهد الإمام على . والمسجد إحدى آيات
البناء عظمة وأبهة ونظاماً . فيه فناء عظيم يحيط به أبنية كثيرة رفيعة فيها
معاهد للدرس ومساكن للطلاب والعلماء . وقد حُذثت أن طلاب العلم
في النجف يزيدون على عشرة آلاف . ولا عجب فهو مشهد تهفو لذكراه
أفئدة المسلمين عامة ولا سيما الشيعة منهم .

يحيط الفناء بمسجد عظيم يزيع البصر في جلاله وأبهته . مقدم
المسجد كله والمئذنتان الشاخصتان على جانبيه — كل هذا مغشى بصفائح
الذهب الخالص . ولكن أنى للدخل إلى حضرة أمير المؤمنين على أن
يعبأ بالذهب والزخرف .

دخلنا إلى المشهد العظيم وللناس حوله جوار بالدعاء والقراءة ، فأطفنا به
في غشية من جلال الموقف ورهبة الذكرى . ولم يمنعني روعة المقام من
تسريح الطرف في القبة الهائلة ، تبهر الأبصار في حلل من البلور والذهب
يتدلى منها المصابيح تزيى بالتيجان المعلقة هنالك . وقد رأينا تاجين أحدهما
فوق المرقد الشريف وهو تاج الشاه إسماعيل والآخر في زاوية من القبة



يقال إنه تاج نادر شاه ويقال إنه تاج أحد ملوك الهند. وفي هذه القبة يقول بعض الناس :

قبة المرتضى على إذا ما فصّلوها أقول بالفضل

هي باء مقلوبة فوق تلك النقطة المستحيلة التأويل

ثم خرجنا إلى الرواق المحيط بالقبة فمررنا بحجرة فيها قبر محمد شاه القاجاري، عليه صفيحة من المرمر مزينة بنقوش، وصورة ملكين ذوى أجنحة يحملان بينهما تاجاً^(١). ثم خرجنا إلى الصحن فخرجنا على حجرة في جانب منها مقصورة أخبرنا أن فيها قبر الشيخ كاظم اليزدي وابنه وقبر أمير بهبور. ورأينا صورة الشيخ كاظم وصورة ابنه معلقتين على سياج المقصورة.

ثم توجهنا إلى مدرسة الشيخ كاظم اليزدي وهبطنا بعض السرايب هناك فإذا طبقات ثلاث أو أربع تحت الأرض ينزل إليها نحو خمسين درجة. وكل طبقة تستمد الهواء من كوة صاعدة إلى ظهر الأرض. وفي السرايب آبار مفضية إلى قنوات تتشعب تحت المدينة من مجرى واحد. والسرايب كما رأينا أعجوبة ناطقة بذكاء أهل النجف ونشاطهم وجدهم. وهي مأواهم في الصيف لا محيص لهم منها. فإن النجف الأشرف في صحرَاء جرداء شديدة الحر. فإذا مَتَعَ النهار هبط الناس جميعاً إلى هذه السرايب فيجدون بلداً آخر بارد الهواء. وقد حَدَّثَنَا أن المقيم في السرداب يحتاج أحياناً إلى اتقاء بردها بالغطاء بينما الحر على ظهر الأرض يأخذ بأكظام الناس.

(١) ينظر الكلام على قبور القاجاريين في مدينة لم في الكلام على رحلة إيران : (بين القاهرة وطوس)

ثم شرفنا بزيارة العلامة المحقق والمجتهد الكبير «السيد محمد الحسين آل كاشف الغطاء» وهو أحد مجتهدين ثلاثة في النجف هو عربي والآخران إيرانيان . فلما استقرّ بنا المجلس في الطبقة الثانية من داره شرع يحدثنا ؛ فعاتب الأستاذ أحمد أمين على ما كتبه عن الشيعة في كتاب «فجر الإسلام» ، ولامه بما كتب غير راجع إلى أمهات كتب الشيعة . وتلك نقطة من إخواننا جديرة بالإعجاب والثناء ، شاهدة بإطلاعهم على كل ما يكتب في العالم الإسلامي . ثم حدث عن سفره إلى مصر منذ زمن بعيد وما قال فيها من الشعر . ثم اقترح عليه بعض الحاضرين أن يشهدنا درساً من دروسه وألحوا عليه فأجاب الدعوة إكراماً لضيوفه ؛ جزاه الله خير الجزاء .

جلس الأستاذ العلامة على كرسي وأحاط به طلابه وكلهم رجال تلوح عليهم سنّ الأربعين أو ما يقرب منها ، وكلهم وقور في سمته وبزّته . تكلم في مسألة من علم الكلام ، مسألة واجب الوجود ، ثم ثنى بتفسير الآية : «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ... الخ» . والطلبة في أثناء ذلك يسألون ويجادلون ، قد رفعوا الكلفة بينهم وبين شيخهم . وقد سمعنا المعجب من بيان الأستاذ وغزارة علمه على قصر الوقت . ثم نزلنا إلى المكتبة فاطلعنا على نواذر الكتب المخطوطة وودنا لو اتسع الوقت لنقضي اللبابة من هذه المكتبة المعمورة . ثم رجعنا إلى الأستاذ فشكرناه وودعناه فرحين بما أتيج لنا من السرور والفائدة بلقائه وشهود مجلسه .

رجعنا بعد إلى الدار التي نزلنا بها دار آل شمس ، فجلسنا نتحدث

ثم دعينا إلى المائدة فتعشنا . وبينما نحن في حديثنا والساعة تسع ونصف من المساء إذ سمعنا دوى طبل هائل وصلصلة سلاسل ، فاطلعنا من الدار على موكب هائل فيه جماعة يضربون ظهورهم بسلاسل من الحديد معقودة ويصيحون : أى تشنه لب حسين واى . ومعناه : آه يا حسين الظمان . وكان مرآهم وصخبهم فى هدوء الليل رائعاً مهيباً . وأهل السلاسل أو أهل الزناجير جماعة من الناديين شهداء آل البيت رضوان الله عليهم . وطائفة أخرى تسمى اللطمية وهم الذين يلطمون صدورهم ، وأخرى تسمى أصحاب السيوف وهم الذين يضربون أنفسهم بالسيوف ولهاً لذكرى مقتل الإمامين على والحسين . أمضينا ليلتنا فى دار آل شمسه مغمرين بحفاوتهم ورعايتهم .

ثم أصبحنا مزمرعين السير إلى الكوفة فخرجنا من النجف والساعة سبع وسبع وأربعون دقيقة من الصباح صباح الأربعاء ٢٤ رمضان — ١١ فبراير — الكوفة قبة الإسلام ومنزل العرب ومهد علوم العربية وملتقى العرب والعجم فى حضانة الإسلام، الكوفة التى خُط مسجدها لیسع أربعين ألف مصل ، وذلك عدة المقاتلة من أهلها إذ ذاك ثم ذخرت بالعمران واستبحرت ، الكوفة التى كانت تحوى أكثر من ثمانين ألف دار عربية ، الكوفة التى مهدت حجرها لعلوم العربية وآدابها ، وللعلوم الإسلامية على اختلافها — أين هى اليوم ؟ سرنا بالسيارات عشرين دقيقة من النجف إلى مسجد

لكوفة ، والمسجد كان سرّة المدينة . وهو الآن قائم وحده لا يحيط به إلا أكوام من التراب . فقد ذهبت الأحداث بالكوفة كلها إلا المسجد المبارك الذى يقوم كالشيخ الهرم اجتاح الدهر أهله وامته به العمر . والمسجد ساحة واسعة يحيط بها أروقة ضيقة تدعمها عمدة مبنية ؛ مشهد عظيم جليل يهولك بماضيه قبل أن يروّعك بحاضره . وفى وسط المسجد سرداب يقال إنه الموضع الذى صنع نوح فيه السفينة والذى فار فيه التنور ، وعلى مقربة من السرداب أسطوانة من حجر منصوبة ، أقامها السيد مهدي الطباطبائى لتكون مروة ؛ ولكن الناس يروون فيها أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قذف بها إبليس فما زالت ، كسهم النميرى ، تتبعه حيثما سار حتى عاذ منها بمسجد الكوفة فسقطت هناك . تقدمنا إلى رواق القبلة فإذا فى الحراب مقصورة صغيرة عليها شبكة من الحديد هى ، فيما يقال ، المكان الذى قتل فيه أمير المؤمنين على . وحسب الإنسان حسرة وحرزاً أن يقف فى مقتل على فيذكر تلك الضربة التى ما يزال الإسلام يدمى منها . وعلى الحراب كتابة قرأت منها بيتين بالفارسية أحدهما :

بسجده بود بدر كاه خالق وهاب زدند تیغ بفرق علی در این محراب
ومعناه : « ضرب مفرق على بالسيف فى هذا الحراب ، وهو ساجد على عتبة الخالق الوهاب » خرجنا من باب فى الجانب الأيسر من المسجد فإذا حجرتان عن اليمين والشمال ؛ إحداها مدفن مسلم بن عقیل بن أبى طالب ، والأخرى مدفن هانىء بن عمرو المرادى ، الذى آوى مسلماً



مقبره مسلم بن عقیل فی الکوفه

Tomb of Moslem Koola.

حين قدم الكوفة من قبل الحسين، وقد ألقى مُسلم من أعلى القصر فمات.
وُصِّلَ عروّة :

فإن كنت لاتدرين ما الموت فانظري إلى هانيء في السوق وابن عقيل
إلى بطل قد هشم السيف وجهه وآخر يهوى في ثياب قتيل ... الخ
خرجنا من المسجد نسرّح الطرف فيما حوله فأشار دليلنا ، وهو خادم
المسجد ، إلى أكوام من التراب دائرة حول أرض واسعة . فقال : هذا
مكان قصر الإمارة . ولم نر نحن في مسرح الطرف إلا أكواماً من التراب
هى بقايا الكوفة قبة الإسلام :

يا دار غيرك البلى ومحاكٍ يا ليت شعرى ما الذى أبلاك
سرنا والساعة ثمان وأربعون دقيقة إلى الفرات حيث رأينا بلدة صغيرة
هى الكوفة الحديثة . وهناك جسر معقود على السفن عبرناه إلى الشاطئ
الشرقى نؤم أطلال بابل ؛ وهكذا تُسلمنا أطلال المجد إلى أطلاله ، ونترك
قطعة من التاريخ محطمة لنطلع على مثلها . مررنا بالحلة مدينة صفى الدين
الحلى الشاعر ولم يكن فى حسابنا النزول بها ؛ ولكن وجدنا أهلها
ينتظروننا ، فنزلنا إلى المدرسة المتوسطة بين أناشيد الطلبة ودخلنا حجرة
المدير فجلسنا قليلاً ورأينا على الجدار صورة سعد زغلول باشا . ثم زرنا
حجر الدراسة وسألنا الطلبة فأعجبنا منهم ، على صغر سنهم ، الجرأة
فى الإجابة والحماسة فى إنشاد الشعر والإحاطة بما يلقىهِ المدرس . والحماسة
والنشاط سمة نشء العراق كله . وذهبنا من المدرسة إلى نادى الموظفين



أسد بابل وعنده أعضاء الرحلة من أساتذة الجامعة المصرية وطلابها

فجلسنا قليلاً على نهر الخلة ، يحيط بنا أهل الخلة الكرام مرحبين يؤسفهم ضيق الوقت وقصر الزيارة .

أهذه بابل سحر القرون الخالية ، وبقية الأحداث العادية ؟ ربوة من التراب عالية يمشي الزائر فيها على أكداس من الأطلال ، جُدُرٌ وحُجَرٌ بقيت من معابد ، وقصور بقيت على الدهر بعض معالمها ، وكلمات بقيت من سطور أنحى عليها الزمان الأُمى . هذا أسد بابل قد استبيح عرينه ، وانهكت حرماته ، فهو في خيسه ذليل ، يرمى بنظراته أطلال الديار وأحداث الأعصار ؛ وما بابل في ترابها ورمالها إلا سطر الخراب خطّه القضاء ثم رمله^(١)

فارقنا بابل والساعة واحدة إلا عشرًا ، وقد حرصت على أن آخذ من ذكرى بابل آجرة ، فجاءني بعض الرجال بأجرة كبيرة حملتها إلى بغداد ، فلما رأيتهما مُخْرِية الأصحاب وعبئًا على أعباء السفر ، خلفتها في بغداد آسفًا أن أخرجتها من بين أهلها وأبعدتها عن رمسها ؛ ولكن الأرض كلها أم رءوم .

بلغنا بغداد والساعة ثلاث بعد الظهر فيمينا السوق تتزود من كتب العراق ومنسوجاته .

وسرنا إلى القصر الملكي وقت الغروب فشرطنا بالجلوس على المائدة الملكية في حضرة جلالة الملك فيصل حفظه الله . ثم توجهنا إلى الكرادة

(١) رماه : جففه بالرمل كمادة الكتاب قبل استعمال الورق النشاف

فزرننا جلالة الملك على ونعمنا بحديثه ساعة ثم خرجنا . (وكانت السماء مصحبة وقد هبت الريح فاصطخبت أمواج دجلة . وكان معنا الأستاذ الصديق أحمد حسن الزيات ، فقال وهو في العراء تحت السماء : مطر ! قلنا: أين ؟ قال: ألا تسمعون الصوت !؟ قلنا : وهل تحس أنت ماء المطر ؟ فكانت إحدى فكاهات الرحلة وما أكثرها ؛ ولولا خوف الإطالة لسطرت منها المعجب المطرب) . سرنا إلى مسجد الكيلاني فزرننا فضيلة مفتي بغداد وسيادة النقيب ، وهناك دعينا إلى مائدة الشاي . قلنا : أعفونا فليس في الإمكان تناول شيء الآن . قيل : فانظروا تمر بغداد ، فأحطنا بمائدة عليها من التمر أصناف هي كما وصف أعرابي تمرأ فقال : « والله إنك لتضع التمرة في فيك فتجد حلاوتها في كعبك » . ولكنا وجدنا حلاوة التمر في قلوبنا ، وخرجنا شاكرين حامدين نتمنى لو اتسع الوقت لإطالة المقام . لم نفارق مسجد الكيلاني لنستريح في الفندق بل عجلنا إلى مأدبة صاحب الفخامة نوري باشا السعيد رئيس وزارة العراق . وهناك رأينا الملأ من أهل العراق وزراء وزعماء وعلماء . وسرّني أن رأيت الحكومة ومعارضها في مأدبة واحدة يجتمعان على إكرام بعثة الجامعة : هنا نوري السعيد باشا وهنا يس الهاشمي باشا . والله يسدد خطاهم جميعاً إلى خير الأعمال . وبعد مأدبة رئيس الوزراء أسرعنا إلى سهرة الأستاذ الفاضل ساطع بك الحصري . وهناك استمعنا لشاعر بدوي يغنى على الرباب ، ويرتجل بين الحين والحين شعراً للترحيب بالمصريين . وكنت بجانب الشاعر

الكبير الزهاوى فالتفت إلى وقال :

وليلة ربابها أبكاني كأنه عبّر عن أشجاني

فقلت : ذكرني الماضي من تحناني وكان كالدهر قد أنساني

ثم أكرهنا سخاء ساطع بك على أن نقف حول مائدة أخرى
لا أستطيع وصف ما عليها إلا أن توضع أمامي الآن ... يا حبذا لو صحت
الأحلام ...

عدنا إلى الفندق وفي النفس ذكرى يوم طويل سعيد، صباحه النجف
الأشرف ، وضحوته الكوفة ، وظهره الحلة وبابل ، ومساؤه المائدة الملكية
وأربع مآدب أخرى في بغداد . وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون .

يوم الموصل

غدونا يوم الخميس إلى القطار الذاهب إلى كركوك . وقد ألفينا القطار
مجهزاً للأسفار البعيدة؛ أعدت مقاعده لتكون مرآقده عند الحاجة . وكانت
سفرة ممتعة جرى فيها القطار عشر ساعات إلى الشمال في سهوب واسعة
معشبة تجري فيها أودية كثيرة تقضي إلى دجلة . وفي الطريق أرض جبلية
سار فيها القطار نحو خمسين دقيقة . وأنا أدع الجغرافيا لأربابها فلا أصف
الأرض والمسافات . والزميل الأستاذ العدوي أقدر على ذلك . وقد قال
الأستاذ بعد السفر بالقطار :

إسمعوا أيها الإخوان ! أقول وأنا جغرافي خبير : إن السفر بالقطار خير من السفر بالسيارات لأنني تعبت من ركوب السيارات !! فضحكنا وقلنا : قد صار التعب من علم الجغرافيا .

كركوك مدينة قديمة في ولاية الموصل ، على مائة وستين كيلاً إلى الجنوب والشرق من مدينة الموصل . وهي ملتقى الجنسيتين العربي والكردى ويتكلم أكثر أهلها اللغات العربية والكردية والتركية . ورأينا اللغة التركية تشارك العربية في المحطة وتغلبها في نادى كركوك حيث رأينا أكثر نشرات النادى بالتركية . وهي على حافة الصحراء ويمجرى بها وادى الأدهم وتوجد بها الفاكهة والبقول . وقد حدثنا أن بها نوعاً من الخيار طوله متران يسمى بالتركية (بام دركى) : أى عمود السقف ، وأن البطيخة يبلغ طولها متراً ودورها ثلاثة أرباع المتر .

ولكننا لم نبلغ من كركوك ما نريد ، فلا بلغتنا الموصل ولا أمكنتنا من التجول بها كثيراً . ذلك أنها استقبلتنا ببردها ومطرها ، والطريق إلى الموصل غير معبدة فهي لا تحمل السيارات بعد المطر .

ولكن الديار بأهلها ، وقد لقينا من الترحاب والإكرام فى كركوك ما هون علينا مطرها وبردها . قابلنا الأديب الفاضل ثابت نورى مدير المدرسة المتوسطة وآخرون من كرام الإخوان على المحطة فحملونا فى سياراتهم إلى الفندق حيث لبثنا ساعة نقسم الحجر بيننا ونستريح . ثم خرجنا إلى نادى كركوك ، وهو ناد كبير يظهر أنه كان من الأندية العسكرية فى العهد

العثماني . وهناك أنسنا بمودة إخواننا وحديثهم وقابلنا سعادة المتصرف
تحسين العسكري بك شقيق نخامة جعفر باشا العسكري فذكرنا بما نعرف
من آداب جعفر باشا ، ودعينا إلى العشاء فطعمنا وتحدثنا شتى الأحاديث
ثم خطب نوري بك ثابت وأجابه الأستاذ أحمد أمين . وبعد السمر عدنا
إلى الفندق .

وكنت أنا والأساتذة أحمد أمين والعبادي والزيات نزلنا في ثلاث
حجرات متجاورة منفردة عن الحجرات الأخرى تعلو عليها بضع درجات .
وكانها لقربها من السماء نالت من المطر نصيباً موفوراً فتحلّبت السقوف
فنقلنا الأسرة إلى مواضع الصحو من الحجرة وبتنا نرصد الجوّ في سقوفنا
وننام على نغمات الماء تتوالى على الأرض قطراته .

ولما أصبحنا أيقنّا أن السفر إلى الموصل محال فلبثنا في النادي مع
مضيفينا الأفاضل إلى ما بعد الظهر . وكان المطر هطالاً ثم انقطع ولاحت
الشمس من نوافذ النادي ففرحنا وأنشدنا مهنئين الأستاذ العبادي :

الشمس لاحت من وراء النادي مشتاقة تصيح يا عبّادي
وكنا جميعاً من عبّاديهـا ذلك اليوم . وبعد الظهر سرنا إلى آبار النفط
وهي آبار حديثة غنية تستغلها شركة من الإنكليز والفرنسيين والأمريكان
فرأينا آباراً قد هُيئت للاستغلال وغطيت ، وصادفنا بئراً تحفر ، وقد شرع
النفط يفيض منها فأرسل في أنبوبتين طويلتين ليحرق بعيداً من البئر
وذلك أن البئر حينما تُستنبط تقذف بالنفط مشوباً بالطين فيُختبر ويحرق



حتى يعرف الخبراء أنهم بلغوا ما يريدون من النفط أو لا يزالون في حاجة إلى الحفر .

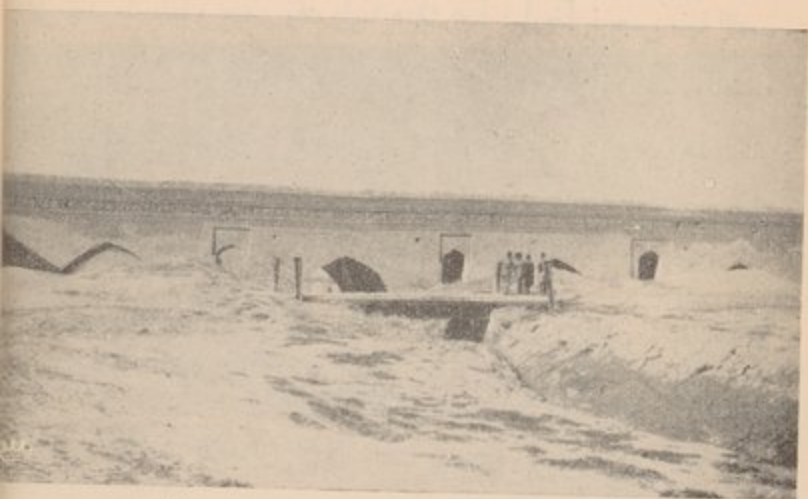
كلما قذفت الأنابيب بالنفط استطار الحريق في هدير كالأمواج الهائجة ترتطم بالصخر ، وقد كان بحراً من السعير يموج لهبه ودخانه فيلحم وجوهنا على بعد ما بيننا وبينه . وقد رأينا هناك عجبا : أرضا ينبجس منها اللهب السنة شتى لا ينطفئ ليلاً ونهاراً ، ولا تذهب به الريح ولا يخمد المطر . وإذا حك الإنسان بعصا أو حجر أديم الأرض على مقربة من هذه النار اشتعلت . وهي نيران قديمة لا يعرف أول عهدها ؛ والناس يسمونها هناك بابا قرقر وهو أحد الأولياء نسبوا إلى كراماته هذه النار .

رجعنا إلى المدينة والساعة خمس من المساء فتهيأنا للعودة إلى بغداد وودعنا الأديب ثابت نوري وبعض الإخوان الكرام إلى المحطة وودت لو عرفت أسماء الإخوان الذين أنسنا بهم في كركوك والذين لا تزال وجوههم ماثلة أمامي وإني لأرجح منهم المعدرة .

سار القطار والساعة سبع من المساء فيممنا بغداد فبلغناها والساعة ثمان من صباح اليوم التالى السبت ...

يوم سامرا

يوم السبت السابع والعشرين من رمضان كان يوماً أغرّ بين أيام



قنطرة المستنصر بالله

رحلتنا ، كان أغرّ وإن كره الساخطون الذين سموه اليوم العصيب ، وسموا سامرا « غم من رأى » بدل « سرّ من رأى » . أليس يوم سامرا أبقى الأيام في نفوسهم أثراً وأعظمها وقعاً ؟

بدأنا رحلة سامراً بأغلاط ؛ غلطنا في تقدير الطريق ظانين أنه ساعتان أو ثلاث . وغلطنا في اختيار المطايا . فأخذنا سيارات من بغداد صغيرة مكان سيارات حيفا القوية ، ثم أضاع سائقو السيارات ٤٥ دقيقة في التزود من البنزين .

خرجنا من بغداد والساعة إحدى عشرة وخمس وأربعون وواصلنا السير مسرعين ما أسمحت السيارات ، متعجلين حين تقف وكثيراً ما وقفنا للعلل . فواعدنا قنطرة المستنصر فاجتمعنا عندها . وهي قنطرة عظيمة من الآجر ذات ثلاث عيون بناها المستنصر بالله على نهر دجيل ولا تزال قائمة متينة وقد كتب عليها بخط واضح آيات من القرآن ، واسم الخليفة وأبيه وجده والثناء عليهم الخ . وقد نسخنا ما كتب عليها إلا كلمات قليلة محالها الزمان . وتاريخ بناء القنطرة تسع وعشرون وستائة . تركنا القنطرة نحمد هذا الخليفة العظيم باني المستنصرية وغيرها من الآثار الناطقة بهمته وحسن سياسته تركنا القنطرة مواصلين السير حتى بلغنا شاطئ دجلة إزاء سامرا والساعة أربع ونصف فوجدنا معبراً يُسَيَّرُ بسلسلة ممتدة بين الشاطئين . وكان لا بد من نقل السيارات ، وهي سبع لا يمكن نقلها مرة واحدة . فعوقنا العبور زمناً طويلاً . سرنا إلى سامرا فإذا مدينة صغيرة مسورة هي سامرا



منارة جامع المتعمم وتسمى الموية

الحديثة ، وإذا أطلال سامرا القديمة منشورة في فضاء فسيح يعيا السائر دون
نهايته . وأقرب الأطلال إلى المدينة جامع المعتصم ، وهو واسع الساحة عظيم
السور يذكر الرأي بجامع ابن طولون ، وكأن ابن طولون بنى جامع
على نسقه . وخارج المسجد على مقربة من جداره الشمالى منارة عظيمة
لها درج من الخارج يدور حولها . ويظن أن منارة ابن طولون كانت محكاة
لهذه المنارة لم تبلغ درجتها من الضخامة والإحكام . سرنا بين الطلول
نقرأ في سطورها تاريخاً عظيماً دارساً ، ورأينا على دجلة مجلساً للمتوكل
بقي من قصره العظيم . يدخل إلى المجلس المشرف على دجلة من رواق
عليه قبة تظهر فيها محكاة إيوان كسرى . ولا تزال بلاطات المجلس
والطريق المفضى إلى الباب واضحة المعالم . ورأينا إلى الشمال بركة عظيمة
جافة حسبنا أنها البركة التي وصفها الباحث^(١) .

عدنا بعد إلى سامرا الحديثة فاسترحنا قليلاً في دار رئيس البلدية
وجاءنا هناك القائمقام أو مأمور المدينة ، فذهبنا إلى مشهد سامرا
وهو مسجد على طراز مساجد الكاظمية وكر بلاء والنجف ولكنه أصغر
وأقل أبهة . وتحت قبته مقصورة فيها أربعة قبور للإمام الهادى وابنه

(١) رجعت إلى سامرا بعد ست سنين فسرت في أطلالها ما بين جامع المعتصم
وجامع المتوكل نحو تسعة عشر كيلاً ، ورأيت شارعا سبعة نحو مائة متر تتفرع منه
شوارع متوازية ، ورأيت أسواراً عظيمة لفصور قديمة . ولا ريب أن سامرا على
ما أصابها أعظم ما ترك الخلفاء العباسيون وأبقى آثارهم وأدلها على الحضارة والبذخ
في أيامهم .

الحسن العسكري والسيدتين سكينه وحليمه ، ويقال لهما هناك سكينه خاتون وحليمه خانون ، وهى كلمة تركية مستعملة فى العراق معناها السيدة .
إحداها زوج الهادى والأخرى عمته

كنا أمرنا سائقى السيارات أن يعبروا وينتظروا على الشاطئ الآخر فلما جئنا لزيارة المسجد لقيناهم هناك . قلنا ما خطبكم ؟ قالوا : لا نستطيع السير ليلاً وليس معنا بنزين . فعرفنا أنها ليلة ليلاء وخرجنا بعد زيارة المسجد مُعَجَلِينَ عن زيارة السرداب الذى اختفى فيه الإمام محمد المهدي ابن الحسن العسكري وهو الإمام الثانى عشر صاحب الزمان ، وكم أسفنا على أن فاتنا زيارة السرداب ونحن بجانبه ^(١) . خرجنا نعالج معضلة السيارات فلما لج السائقون أكرههم القاء مقام على السير وأخرج معنا سيارة مسلحة . وكان السائقين كانوا يحذرون الطريق فلما خرج الحرس معنا اطمأنوا . عبرنا دجلة والساعة ثمان وخمس وأربعون . وبينما نركب المعبر سقط عزيز أفندى فهمى فى دجلة فأخذ بيده الأستاذ درويش المقدادى فخرج يصيح لا بأس ، لا بأس . وكانت ليلة باردة . عبرنا سالمين ، وتزودنا من البنزين ثم سرنا والساعة تسع وثلاث من المساء . سارت أمامنا السيارة المسلحة ، وانتظمتنا خلفها وتواصلنا بأن يرقب بعضنا بعضاً . واستقام لنا

(١) زرت السرداب فى سفرتى الثانية إلى سامرا وهو فى وسط مسجد يهبط إليه درجات ثم يسار فى دهليز يفضى إلى حجرتين الأولى مخفى صاحب الزمان ، فى نهايتها سياج من الخشب جميل الصنع والثانية فارغة .

لطريق حتى قاربنا بغداد . وثم شرع بعض السيارات يرتطم في الوحل كلما أخرجت سيارة وحلت أخرى ؛ وسمعنا إذ ذاك أن لصوصاً سطوا على بعض السابلة على مقربة منا . وحينئذ قابلتنا سيارة مسلحة من بغداد فاستأنفنا السير . فلما شارفنا بغداد لقينا مدير الشرطة وجنده في عدة الليل ولباسه . قال المدير : أنا مدير شرطة بغداد جئت لاستقبالكم . قلت : أأنت السيد أحمد الراوى الذى قابلنى فى الآستانة العام الماضى ؟ فكان تعارف وسلام فى حلك الظلام . دخلنا بغداد فى حراسة شرطتها حتى بلغنا الفندق والساعة اثنتان وثلث بعد نصف الليل . وكنا قدرنا أن نكون ببغداد قبل الساعة السابعة . ووعدنا قنصل مصر مصطفى مخلوف بك^(١) أن نتعشى عنده . فلما بلغنا سامرا متأخرين أبرقنا إليه أننا سنعود والساعة عشر ، وكنا متشائمين حين حددنا هذا الموعد حاسبين أن نكون فى بغداد قبل ذلك . فأنظر كيف أخلفت الظنون وأخطأ الحساب .

سمعنا حين دخلنا بغداد أن القنصل المصرى ورجل الحفظ فى بغداد لبشوا ينتظرون حتى أيقنوا أننا فى المدينة .

فهمزة ليلة سامرا التى بقيت حديثنا حتى اليوم بما لقينا من مصاعب ذلتهامة إخواننا العراقيين الذين بذلوا كل ما استطاعوا ليسروا لنا السير والسلامة على طول الطريق .

يوم الأحد أو يوم الوداع أمضيناه متفرقين فى المدينة كل يشترى

(١) توفى بعد سنة أو سنتين من هذا التاريخ رحمه الله رحمة واسعة .



قبر زيدة

ما يريد ويذهب حيث يشاء . فخرجت في صحبة الأستاذ جواد الدجيلي الحامي شقيق صديق الأستاذ كاظم الدجيلي فزرنا مقابر الصوفية في طرف الكرخ مقابر معروف الكرخي والحلاج والجنيد والسري السقطي ، وحدت الله على أن تيسر لي زيارتهم قبل أن أبرح بغداد . فاعجب لقبور هؤلاء تبقى وقد ذهبت قبور الخلفاء . وهناك قبة عجيبة مخروطية الشكل أقيمت فوق قبر يسمى قبر زبيدة خاتون . ويقال أنها زبيدة زوج الرشيد والله أعلم ، وعلى قبور هؤلاء الصوفية أبنية صغيرة . فيها الحجرة أو الحجرتان خالية من الزينة ، وأشبهها بالتصوف قبر الحلاج وأعظمها قبر معروف . وكل المقبرة هناك تسمى باسمه . فإن يكن معروف الكرخي حُرْم مُلْك الدنيا فقد وسع له في مملكة الآخرة ، والأبنية القائمة على قبورهم حديثة كلها ، فتاريخ قبة معروف : معروف كرخي كنبدي — ١٣١٢ هـ وتاريخ قبة الجنيد والسري : قل أرخوا : هذا المقام معمر ١٢٦٩ هـ ، وهناك قبر بهلول المجذوب الذي تروى أحاديثه مع الرشيد والذي جعله بعض الناس أخاً للرشيد . وقد شيدت قبره زوج كاظم باشا

وهناك قبة صغيرة على قبر بجانبه صورة كبيرة . وذلكم قبر أحد شهداء العرب في الثورة على الإنجليز واسمه عبد المجيد كنة . كانت جولة بين القبور قضينا فيها حق العبرة والتصوف على عجل .

وبعد الظهر ذهبنا إلى مسجد الكاظم لشراء بعض الكتب . ثم اجتمعنا وقت المغرب في الفندق لنذهب إلى دار وزير المعارف للإفطار

وكان حفلاً حافلاً جمع رئيس الوزراء وكثيراً من كبار بغداد . وقد أنشد هنا لك إبراهيم أفندي أمين وعزيز أفندي فهمي (الذي سميناه شاعر دجلة منذ سقط فيها ليلة سامرا) قصيدتين في وداع بغداد ، وسرنا من دار الوزير إلى دار تحسين بك قدرى مرافق جلاله الملك وهو أخو الدكتور أحمد بك قدرى قنصل العراق العام بالقاهرة الآن ، وكانت حفلة وداع سعيدة دامت حتى كاد الليل ينتصف ، وهنا أكل جريدة السياسة العراقية وصف حفلة الوداع .

حفلة قدرى بك

وقد أقام سعادة تحسين بك قدرى المرافق الخاص لصاحب الجلالة الملك حفلة نخمة يوم الأحد الماضي لتكريم بعثة الجامعة المصرية في داره في محلة السنك .

وفي الساعة السابعة مساء تقاطر المدعوون إلى دار قدرى بك وكان سعادته يستقبلهم بلطف يعاونه شقيقه زكي بك ، ويقرهم في المحلات المعدة وقد حضر المحتفل بهم بعد ذلك إذ كانوا مدعوين على العشاء في محل آخر .

وأعد لتشريف آذان السامعين تحت عزروزي الآلاتي المشهور فأجاد سواء في تلحين الأغاني العراقية أو الأغاني المصرية ونحوها وأطرب الحاضرين أما المدعوون فجماعة كبيرة من مختلف الطبقات الممتازة من السياسيين

والوزراء وكبار الموظفين والنواب والوجوه والأدباء والصحفيين .
ثم انتقل الجمع إلى المقصف الذى أعد لهم فى الطابق التحتانى حيث
تناولوا نقيس المطبوخ أو المقلّى أو المشوى أعد بذوق وحذق كبيرين
وصنوف الحلويات .

ونزل تحت عنروزي إلي تحت يطرب الآكلين ويزيد فى شهيتهم .
وأخيراً طلب إلى حضرة الأستاذ الكبير معروف الرصافى أن ينشد
شيئاً من الشعر من الحواضر فنظم حالاً الأبيات التالية وقد أنشدها فتقبلها
الحضور بلهفة :

إنا نودعكم فى دار تحسين	« أبى أسامة » مصحوب السلاطين
المصطفى كل ذى فضل لدعوته	والمحتفى بأولى العلم الأساطين
آراؤكم فى دجى التحقيق نيرة	فى العلم قد مكنتمكم أى تمكين
يا دار تحسين قدرى دمت عامرة	بالمجد آهلة يا دار تحسين
جمعتنا من بنى مصر بأهل علا	أخلاقهم مثل أزهار البساتين
إنا نودّعهم توديع ذى أمل	يرجولهم عودة بعد ما حين
إنا نحملهم من دجلة شغفاً	يهدى إلى النيل محمود الأفانين
وهنا وقف حضرة الأستاذ عبد الوهاب عزام أحد أعضاء البعثة المصرية وأنشد قصيدة تنشرها فيما بعد .	

وانصرف المحتفل بهم فشيّعوا بالأكرام والخفاوة .
وحقاً أن الحفلة كانت آية فى نظامها ونخامتها وحسن خدمتها . وزادها

رونقاً تفانى صاحب الدعوة في العناية بضيوفه بحيث جاء التكريم الختامي أحسن ما شيعت به بعثة مصر العزيزة « ١٥ .

عدنا إلى الفندق فإذا السيارات قد تأهبت للرحيل ففارقنا بغداد نصف الليل بعد تسعة أيام لها في نفوسنا أسعد ذكرى ، وقلوبنا مفعمة محبة وشكراً لآخوان لا عيب فيهم إلا إسرافهم في الحفاوة بنا والتودد إلينا ، وقد ترك الأستاذ أحمد أمين للجرائد هذا الشكر .

شكر البعثة العلمية المصرية

باسم زملائي وباسمي بل باسم الجامعة المصرية أقدم الشكر خالصاً إلى صاحب الجلالة الملك الكريم وإلى صاحب الدولة رئيس الوزراء ورجال حكومته ثم إلى الشعب العراقي النبيل وصحافته على ما تقينا من حفاوة وإكرام يقصر عنهما لسان الذاكر وجهد الشاكر فلقد قابلونا بمقابلة الأهل وغمرونا بالعطف والفضل فأكرموا أمتنا في أشخاصنا وبرهنوا على أن الأمة العراقية لا تعيش لنفسها فحسب وإنما يعيش كل لنفسه وللعالم العربي عامة وإن كل أمة شرقية إنما هي عضو في جسم شرمى حتى أخذ يشعر بالحياة ويعمل لها ويؤسس مدنفة فيها العنصر؟ وفيها العنصر الرومى الشرقى وأقاموا البرهان وأقنناه معهم على أننا بدأنا نشعر بالعبء ونحمله بشجاعة وإقدام أتينا بلادكم فقدمتم إلينا يدكم الكريمة فصاخنائها وكانت هذه المصاخرة أساساً لوضع صلات شعبية علمفة وغير علمفة سىظهر أثرها قريباً

وسيكون لنا وللأُمم الشرقية جميعاً بناء قوى شامخ يتعاون على البر والتقوى
لا على الاثم والعدوان .

فالآن تقتصر على الاعتراف بأننا عائدون إلى قومنا نحمل شعوراً جميلاً
تقصر اللغة عن التعبير عنه ولا يسعنا إلا أن نقول شكراً وشكراً وألف شكر
أُمر أمين

فارقنا بغداد بليل نظوى الطريق عوداً على بدء ، ووقفنا قليلاً على
على الرمادي والرطبة. وقد رافقنا حرس بغدادى فى سيارة مسلحة إلى الحدود
السورية فجزى الله إخواننا خير الجزاء .

ونكرم جاراننا مادام فينا ونُتبعه الكرامة حيث مالا

هذه تدمر والساعة سبع ونصف من المساء بعد ثمان عشرة ساعة من
مفارقة بغداد . ألقينا هناك فندقاً ضحاً بين الأطلال ولكنه غير معدّ لايواء
أربعة وعشرين فافترقنا فنزل جماعة منا فى خان ونزل الآخرون فى الفندق .
وكانت ليلة ذكّرنا نعيم بغداد . وقد استرحنا قليلاً فى مكان هناك لا أدري
أأسميه داراً أم فندقاً ، ولقينا صاحبه مرحباً وسارع ، والتبعة على الراوي ،
فذبح خروفاً بعد أن اتفق مع اسكندر أفندي يارد على أن يشتري نصفه
لعشائنا . ومضت ساعات وساعات حتى مللنا ونمنا ، وليس عن الحروف خبر
فقلنا : كان خروف الشحات أفندي^(١) على علاقته أقرب إلى الوجود .
نقمت على عمرو فلما فقدته وجربت أقواماً بكيت على عمرو

(١) تقدم ذكره فى ص ٣٣ .



أحد المآبذ القديمة في تدمر

غلبنا اليأس والنوم ، فلما أصبحنا سمعنا أن أبطال الخروف صابروا
اسكندر أفندي حتى رأوا اللحم عياناً وأكلوا منه ؛ والله مع الصابرين .
أصبحنا نقلب الطرف في مدينة من الأطلال منشورة على مدّ البصر
فهذه صفوف من العمّد تتوالى مسافات بعيدة وكانت سوق المدينة . وهذه
رسوم قصور وملاعب حول السوق . وهذا المعبد العظيم الذى يشبه معبد بعلبك
الهائل ، وهناك مقابر فيها تماثيل أحسنت فيها يد الصانع كل الإحسان وعليها
كتابة باللغة التدمرية يُذكر فيها ، كما حدثنى القارىء ، إسم الزبّاء ملكة
تدمر . وعلى الرّبى التى تحدّ ساحة المدينة من الغرب قلعة تسمى قلعة ابن معين
وأبنية مربعة عالية كلما ذن دخلناها فإذا هى طبقات بعضها فوق بعض .
كانت توضع فيها نواويس الموتى . ولا تسل عن أكوام العظام التى كدسها
الحافرون هناك :

ودفين على بقايا دفين فى قديم الأزمان والآباد
ولفت أنظارنا فى تدمر صباحة أهلها ونضرة وجوههم وصحة أبدانهم .
وكأنهم أمة وحدهم فى هذه البقعة ورثوا الجمال منذ قرون عدة وحفظه
عليهم هواء تدمر وماؤها .

تركنا تدمر بعد ظهر الثلاثاء ٣٠ رمضان — ١٧ فبراير ميممين
دمشق فبلغناها والساعة سبع ونصف فإذا دار الحكومة فى حلة من النور
وكانت ليلة عيد الفطر . بكرنا إلى جامع بنى أمية فصاينا العيد ورأينا موكب
رئيس الوزراء عائداً من المسجد . وكانت صلاة العيد بجامع دمشق أمنيّة



بقايا العمدة في سوق تدمر

بسرّها الله . وبعد الظهر قصدنا بيروت مجتازين جبال لبنان نذكر قول المتنبي :

وجبال لبنان وكيف بتقطعها وهي الشتاء ، وصيفهنّ شتاء
لبس الثلوج بهاء على مسالكها فكأنها ببياضها سوداء
لاحت قم الجبال شامخة يتلألؤ فيها الثلج ناصع البياض فأشفقنا من
مرآها الجليل الهائل . ثم دارت السيارات وتمعّجت على السفح فاذا نحن
فوق الثلج والسحاب وإذا أغوار هائلة بين الجبال تملؤها السحب ، وقباب
عالية في السحب تملؤها الجبال ، سرنا بين الخوف والرجاء . وسل الدكتور
حسن ابراهيم ! وأشرفنا على مشاهد جميلة رائعة واجتازنا قرى لبنان جميلة
في حداد الشتاء . فليت شعري كيف هي في بهجة الربيع ؟ أغطش الجو
بالسحاب والليل ، والسيارات على شفاهاو عميقة تحترق بأنوارها ثنايا
الظلام متلوية صاعدة هابطة حتى من الله علينا بظهر الأرض . بلغنا بيروت
والساعة ست من المساء وأصبحنا على عيد آخر يوم الخميس . فليت شعري
كيف اختلف العيد بين دمشق وبيروت ؟ ثم زرنا الجامعة الأمريكية
في حفاوة مديرها وأساتذتها ثم المدرسة اليسوعية — وكنا رأيناها العام
الماضي — وليعذرني أهل بيروت الكرام حين أضطر لطي الكلام
والطريق عجلان إلى حيفا . قد خرجنا إليها من بيروت والساعة اثنتان
بعد الظهر والناس في عيدهم فبلغنا حيفا والساعة ست ونصف ونزلنا بفندق
نصار . ثم أصبحنا إلى القطار فسار والساعة ثمان ومازال يضرب في مروج

ثم صحاريه حتى طلعتنا مع المغرب على القنطرة
هذا ما وعته الذاكرة بعد شهرين من رحلة العراق الخالدة^(١)،
وأنا أختتم بإرسال أبلغ تحية ، وأوفر شكر وإجلال لحضرة صاحب الجلالة
الملك فيصل الذي شرفنا برعايته ولرجال حكومته ولا سيما رجال المعارف ،
ثم لأهل العراق جميعاً . وإني لأعتذر لمن ذكرت أسمائهم ولمن فاتني
ذكرهم ، معترفاً أنني لا أفى بمتهم ، وما أردت شكرهم هنا ولكن حرصت
على ألا تفوت رحلة العراق دون أن أكتب عنها على قدر ما يسع الزمان
وتأذن الأعمال .

(١) كتب هذا المقال بعد شهرين من رحلتنا .

وداع بغداد (*)

بغداد ! تاجَ الحَقَبِ الخوالى ودرة المستقبل المكنون

دارَ السلام ! لا عدائِكَ المجد

وارفة ظلاله تمتدّ

ولا حدا نجمك إلا السعد

موصولة الآجال بالآجال لابسة مجدد القرون

فكم لبست عمرُ الدهور

مالكة أزمة الأمور

وموئل الصعلوك والأمير

وموطن الجلال والجمال والدين والعلوم والفنون

فربّ يوم ضاحك الصباح

بين المياه والرياض ضاح

وهبته لشاعر صدّاح

منظّم في وصفك اللآلى مطرّب في شعره مبین

(*) أنشدت في حفلة الوداع بدار تحسين بك قدرى ليلة الرحيل ليلة الاثنين ٢٨

رمضان سنة ١٣٤٩ هـ

ورُبَّ يومٍ للنَّدى جوادٍ
 يفيض فيه بالعطاء النّادى
 وتُشرق الآمال بالأصفاد
 يشهد فيه جيّدُ المقال مِذلةَ الألف والمئتين
 ورُبَّ يومٍ ملؤه الوفودُ
 يلوح في غمرته الرشيد
 محكمًا يُبدي أو يُعيد
 الظلم فيه ضيقُ المجال والعدل فيه مُشرق الجبين
 ورُبَّ يومٍ للوغى مشهودٍ
 بعثت فيه شُهْبُ الجنود
 ترهاهم خفاقة البنود
 يذللون سائر الأهوال ويأسرون الأسد في العرين
 في كل فجٍّ عالمٌ مُطار
 يغار منه الكوكب السّيار
 مُشرقة في حكمك الأمصار
 الشرق والمغرب في اختيال بمجدهك المؤثّل الرصين
 ومنهل يفيض بالعلوم
 يؤمه الطلاب ورَدّ الهيم
 ويصدرون خُفْلَ الحلوم

من كل حبر باحث جوال من مغرب الشمس لأرض الصين

الرأى فيه محكم وثيق

والقول فيه مرسل طليق

والعقل للدين به شقيق

يبعث في الآفاق بالأقوال جوابة السهول والحزون

ومجلس بالباحثين حافل

يقرع فيه الحجة المجادل

يصول في حلبته الفطاحل

الحق فيه مطلق العقال يختال حراً في حمى المأمون

أبو العلاء^(١) أزمع الرحيلا

إليك كيما ينفع الغليلا

فصادف المشرع سلسبيلا

وسار عن مغناك غير سال يقطع الأوقات بالحنين

يشهد أن العلم فيك جار

كالماء في حضارة الزخار

وكالخصى في ساحة الجمار^(٢)

(١) أبو العلاء المعرى أقام في بغداد قليلاً ثم اضطر إلى الرجوع إلى الشام ونظم قصائد كثيرة أثناء إقامته وبعد رحياله

(٢) يقول المعرى : وجدت العلم ببغداد أكثر من الماء بخضارة والخصى عند حجرة العقبة

أبو العلاء كان لا يغالى وكان لا يرمى عن الظنون

سارت على هامتك الخطوبُ

عائية صرصرها هبوب

شؤبوبها يتبعه شؤبوب

حتى لبست حلك الليالى تسلمك الشجون للشجون

فزُلزت صروحك العليا

وصوحت جناتك الغناء

وأعقبت ضياءك الظلماء

من بعد ما قضت بك المعالى أوطارها ستاً من القرون

حتى دهاك الجحفل الجرار

يُرعِد فيه الموت والدمار

وحلّ في ساحتك التتار

لشدّ ما رميت بالأهوال يا سنة الستة والخمسين^(١)

دجلة والقرات فى أطراد

ما غصّ منهما الزمان العادى

وفى بنيك السادة الأمجاد

(١) استولى التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ

كل كريم قائل فعّال يبغي العلاء غير مُستكين
هلمّ للمستقبل الكريم
بنني على تراثنا القمّ حديم
إن العظيم كُفُو العظيم
بغداد ! لاح بارق الآمال ودارت الأيام لليمين
القلب من قريضه خلى
للهمّ في أرجائه دوى
ينفر منه الوزن والروى
بغداد في الآلام والآمال أوحى لقلب جامد ضنين
أوحى الزهاوى لى القوافى
من بعد عهد بالقريض عاف
وهاج من أشجاني الرصافي
فانجابت الهموم كالرمال عن منهل مستعذب معين
أنات شعر ترجمت أشجاني
ردئها وجودها سيّان
تنطق بالآمال والأحزان
قول بدا مقطّع الأوصال ألف في حب لكم مكين
أخلى فيه الشطر بعد الشطر
وأكره الفكرة بين السفر
مشتت القواد لست أدري

ماذا نظمته ولا أبالي بسالم الأوزان والمحجون

يا ميمى إن شطّ بى المزار

فإننى دانت لكم وجار

أبوك لم تبعد به الديار

منعم فى قومه والآل وضاحك الفؤاد والجبين

يا قومنا أعود من بغداد

مقسماً بينكم فؤادى

ومبلغ سلامكم بلادى

تحية اليمين للشمال ووصلة الشمال باليمين

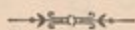
أهل العراق! شكرنا جزيل

وودنا المخلص لا يحول

كيف ينفى ثناؤنا الجميل

مكارماً فى الحل والترحال ؟ كيف نفى بها على السنين ؟

بين القاهرة وطوس



— ١ —

من القاهرة إلى بغداد

أطوى حديث السفر بين القاهرة وبغداد فقد وصفت هذه المراحل من قبل حين تكلمت عن سفرى إلى مدينة العباسيين . وليس فى هذه المراحل من جديد إلا السيارات الضخام التى تعبر بادية الشام بين المدينتين الخالدتين : دمشق وبغداد . أعدت شركات عربية ، وأخرى أوربية ، سيارات كباراً تسع واحداً أكثر من عشرين راكباً على مقاعد وثيرة تريح المسافر صاحباً ، وتمكنه من الإغفاء حين يغلبه النوم . ركبنا إحدى هذه السيارات ، ففصلنا من دمشق صبيحة الثلاثاء سادس عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة (الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٣٤م) وبلغنا بغداد والساعة تسع من صباح الأربعاء بعد ست وعشرين ساعة .

فهذه بغداد العظيمة فى جمالها وكبريائها ، تزدهم فيها أحداثات التاريخ أكثر من ازدهام أهلها ، وتزخر فيها ذكرى الماضى أعظم من أمواج دجلتها . والله ببغداد ! ما يستقر بها فكر زائرهما حتى يحلّق فى أرجاء العصور

وأجواء التاريخ أمداً بعيداً؛ ما يفتأ البصريترامى بين الرصافة والكرخ،
يبتغى أن يقع على موكب من مواكب الخلفاء، أو مجلس من مجالس
العلماء، أو حفل للأدباء والشعراء. ففي كل نظرة ذكرى خليفة، وفي كل
فكرة حديث فيلسوف أو عالم أو شاعر.

ثم يقع الفكر وقوع الطائر بعد طول التدويم، فيستريح من بغداد
الحاضرة إلى أمة قد أخذت للمجد أهبتها، وأعدت للعظام عُدتها،
وعرفت بين الأمم غايتها، وشقت بين الخطوب سبيلها. فسارت في مواكب
من الهمة القعساء، والعزة الشماء، تحذوها غيرة إسلامية، وأنفة عربية.
قد آلت لتسيرن سيرتها الأولى حتى تبلغ غايتها. وسيبر الله يمينها ويبلغها
مُنيتها، وسيعنو الزمان لها صاعراً، ثم يتحدث عن العرب فاخراً:

وما جهد هذا الدهر إلا هزيمة إذا نازلت غزيم الكرام كَتائبُه
ذلكم ماض مجيد يمدّ حاضراً مجيداً. ذلكم تاريخ يتدفق من قم
المجد الشاهقة في مجرى العزمات الماضية إلى المستقبل الوضاء. ومن ذا يصدّ
السيل إذا هدر؟ أو من ذا يردّ على الله القدر؟ بل من يسلسل البحر
بأمواجه، أو يردّ الحرّ الأبى عن منهاجه؟

سلام يا دار السلام: رعاك الله في كل خطوة، وخارك في كل غزوة:
دار السلام لا عدالك المجد وارفّة ظلاله تمتدّ
ولا حدا نجمك إلا السعد موصولة الآجال بالآجال
لابسة مجدّد القرون

إن حديث بغداد لا ينفد ، وحبّها في القلوب لا يُحدّ ، وإنك أيها القلم لأعجزُ من أن تخطّ الزمان الماجد ، والتاريخ الخالد ، والخطوب والعبر ، والقضاء والقدر في هذه الأسطر ، فحدث عن الرحلة إلى طوس ، وحسبك أن تحمّل (الرسالة) هذه الرسالة ^(١)

لبثنا ببغداد من صباح الأربعاء إلى عشية السبت . في حفاوة إخوان كرام ، وسرور بدار السلام . ويوم السبت ركبنا نحن والوفود التي قدمت ببغداد في طريقها إلى طهران ، قطار الليل نؤم خاتنين ، والمسافة بين خاتنين وبغداد زهاء مائة ميل . ولكن قطار خاتنين المتمهل يقطعها في عشر ساعات ، فيمكن المسافر أن ينام ملء جفونه حتى يصبح . برحنا ببغداد والساعة ست مساء ، وودعنا على المحطة القائم بأعمال المفوضية المصرية حافظ بك عامر ، ووزير إيران في بغداد . وسافر معنا الأدب الفاضل أحمد حامد الصراف مندوب العراق إلى مؤتمر الفردوسى . وكان المندوب الثانى - الشاعر الكبير الزهاوى - قد سبقنا إلى خاتنين في سيارة . وصحبنا في القطار إلى منتصف الطريق الأخ الهمام ، إبراهيم الواعظ المحامى ، وكان ذاهباً إلى كركوك ، فمازلنا في إكرامه وإيناسه حتى افترقنا ؛ أهدى إليّ وإلى رفيق الأستاذ العبادى ديوان السيد محمد سعيد حبوب النجفى فكان خير زاد للمسافر ، ولما وقف بنا القطار على محطة باب الشيخ ببغداد اشترى لنا قلةً بغدادية روينّا بها في سفرنا ، وقلل ببغداد تقيّة الطينة ، برّادة

(١) المراد بمجلة الرسالة وكانت هذه الرحلة نشرت فيها

تمنيت أن أحمل بعضها إلى مصر فلم يتيسر لي . وهي أمنية أعجزت
الأستاذ الزيات من قبل^(١)

بلغنا خانقين والساعة أربع من الصباح . فبقينا في القطار حتى أسفر
النهار ، فنزلنا وحملنا أمتعتنا إلى حجرة من حجرات المحطة ، استبد بها
الأديب الصراف فشاركناه فيها . ولبثنا ننتظر قدوم مندوبي الحكومة
الإيرانية حتى جاء القنصل الإيراني والسيد روشن المهاندار ، الذي كان
طليعة ركبنا في رحلتنا كلها . وعلمنا حينئذ أن موعد السفر غد ، أول
تشرين الأول (أكتوبر) فتفرقنا ؛ ذهب جماعة إلى دار القنصل وآخرون
إلى منازل أخرى . ودعانا صديقنا الصراف إلى دار صديقه عبد القادر
صالح معاون جمر ك خانقين ، وكلمه بالتليفون فأرسل لنا سيارته ، فذهبت
إلى الدار فإذا فتى نبيل من فتيان العراق ، وكم في العراق من فتى نبيل ؛
فلبثنا في ضيافته إلى صبيحة اليوم الثاني ، وسعدنا بصحبته وصحبة موظفي
خانقين الكرام . وخانقين مدينة صغيرة على حدود العراق وعلى الجادة
القديمة إلى خراسان ، يمر بها نهر (الوند چای) وهو نهر حلوان وفرع
من نهر دىالى أحد روافد دجلة . وعند المدينة قنطرة كبيرة من آثار
الساسانيين . وقد وصفها ياقوت في المعجم . وكانت المدينة في العصور الإسلامية

(١) قد ظفرت بما فاتني حين رحلت إلى العراق سنة ١٩٣٥ فنقلت قللا من العمادية إلى
حلوان وأحسبها أول نقلة إلى مصر في تاريخ هذه القلل ، وأهديت إلى الزيات إحداها
حين رأيت شغفه بها

الأولى معروفة بالتمر والقمح، ولا تزال كثيرة التمر. وقد مدح ابن المعتز نبيلها
وقال عتبة بن الوعل التغلبي :

كأنك يا ابن الوعل لم تر غارة كورد القطا النهي الخفيف المكذرا
على كل محبوبك السراة مفزع كميت الأديم يستخف الخزورا
ويوم بباجسرى كيوم مقيلة إذا ما اشتهى الغازي الشراب وهجرا
ويوم بأعلى خاتقين شربته وحلوان حلوان الجبال وتسترا
ويوم الاثنين اجتمع المندوبون عند محطة خاتقين ، وجاء آخرون
من بغداد منهم أستاذي السير دينس رُس ، والشاعر الإنكليزي
دِرِنكووتر ، وعبد الكريم افندي الحسيني ، والدكتور نظام الدين
مندوبا حيدر آباد . وتقسمنا السيارات ، فركبت أنا والأستاذ العبادي
والأديب الصراف معاً . وكانت صحبة الصراف فألاً سعيداً في هذه السفرة
فقد نعمنا بحديثه وإنشاده من الشعر العربي والفارسي . سرنا إلى الحدود
في طريق مبددة مقيرة ، فوقفنا قليلاً . وجاء إلينا رسول إيراني فرحب بنا
وأعطانا دليلاً مكتوباً بالفارسية والفرنسية فيه طرف من أخبار البلاد التي
نمر بها بين خاتقين وطوس . وهنا تركت الرفيقين الكريمين ، وركبت
مع صديقي السيد عبد الكريم الحسيني مندوب حيدر آباد ، إذ كان
في سيارة وحده فأردنا أن نؤنسه في السفر .

بلغنا قصر شيرين بعد نصف ساعة فتوقفنا لشرب الشاي على الطريق .
وقصر شيرين مدينة صغيرة على طريق خراسان ، وعلى نهر حلوان ، سميت

باسم القصر الذى بناه كسرى برويز (٥٩٠ — ٦٢٧ م) لامرأته شيرين . ولا تزال أطلال قصور كسرى قائمة إلى الشمال والشرق من المدينة . وقد وصفها ياقوت فقال : « وفيه أبنية عظيمة شاهقة يكلّ الطرف عن تحديدها ، ويضيق الفكر عن الإحاطة بها ؛ وهى إيوانات كثيرة متصلة ، وحلوات وخزائن ، وقصور وعقود ، ومتنزهات ومستشرفات ، وأروقة وميادين ، ومصايد وحجرات ، تدل على طول وقوة » .

ولا تزال ذكرى كسرى وشيرين وعاشقها فرهاد الرائز^(١) والمعنى بلمهذ تطيف بهذه الخربات ، وأساطيرهم تُسمع فى هذه الأرجاء .

وحلوان المدينة القديمة المذكورة فى الأخبار والأشعار قريبة من قصر شيرين . وكانت مدينة كبيرة عامرة ، ثم خربت منذ القرن الثامن فلم يبق منها إلا أطلال دارسة . ونخلتا حلوان وقصصهما وما قيل فيهما من الأشعار والأحاديث الذائعة .

وكانتا نخلتين على عقبة حلوان قال فيهما مطيع بن إياس :

أسعدانى يا نخلتى حلوان وابكىالى من ريب هذا الزمان
واعلمأ أن ريبه لم يزل يفر ق بين الألف والجيران
ولعمرى لو ذقنا ألم الفرقة قد أبكا كما الذى أبكاى
أسعدانى وأيقنا أن نحساً سوف يلقا كما فتفترقان ... الخ
ومن أجل هذا البيت الأخير تحامى الناس قطعهما ليفسحوا الطريق

(١) الرائز هو الممار

فتجنب قطعهما الخليفة المهديّ العباسي . ويقال إن الرشيد احتاج إلى حُجَّار وهو في حلوان ففُطعت إحدى النخلتين . فلما انتهى إلى العقبة نظر إلى النخلة القائمة وقد قطعت قرينتها ووجد عليها البيتين الأول والآخر من الأبيات المتقدمة فقال: يعزّ عليّ أن أكون نحسكاً . ولو سمعت بهذا الشعر ما قطعت هذه النخلة^(١) .

وقال حماد عجرد :

جعل الله سُدرتي قصر شيرين فداء لنخلتي حلوان
جئت مستسعداً فلم تُسعداني ومطيعٌ بكت له النخلتان
وقد أكثر فيهما الشعراء من بعد .

من قصر شيرين إلى همدان

سرنا من قصر شيرين تلقاء كرمانشاهان فررنا بعد خمسين دقيقة بقرية ذُهاب ، ثم أضعدنا في جبل شامخ فسيح ، فلبثنا بين قمه وشعابه نصف ساعة . وذلك « كوه باطاق » أي الجبل ذو الطاق ، سُمّي بطاق قديم قائم في منتصف هذه الطريق الجبلية . ثم انبسط بنا السهل نصف ساعة إلى قرية كِرِنْد ، وهي قرية خضراء شجرة . وبعد أربعين دقيقة

(١) الأغاني : أخبار مطيع بن إلياس .

وقفنا في شاه آباد . وهي قرية ذات بساتين فيها ضياع لجلالة الشاه وباسمه سميت . وله بها دار صغيرة نزلنا بها فاسترحنا قليلاً وشربنا الشاي ، وأكلنا فاكهة طيبة ، فيها عنب صغير جيد . وكان ذلك أول ما طعمنا من فاكهة إيران .

ثم استمرر بنا المسير فاجتزنا جبلاً آخرى إلى كرمانشاهان فبلغناها بعد ساعة وثلث من شاه آباد وكرمانشاهان (قرميسين) مدينة عامرة فيها شوارع جديدة واسعة وأسواق كبيرة . وموقعها على درجة ٣٤ من العرض و٤٧ من الطول ، في بقعة طيبة الهواء يسقيها نهر قره صو^(١) . وهي على الجادة الكبرى من بغداد إلى همدان ، تبعد عن كل منهما خمساً وستين ومائة كيل . أنشأها الملوك الساسانيون ، وكانوا يقيمون بها أحياناً . ونزلها في العصر الإسلامي الخليفة هارون الرشيد وعضد الدولة البويهى . ولم تبلغ مكانة عظيمة إلا في القرن العاشر حين اتخذها الملوك الصفويون قاعدة لمحاربة الدولة العثمانية .

والمدينة في وسط ولاية كرمانشاه . وهي الأرض التي قامت عليها الدولة الميديّة القديمة ، وفيها من المدن والقرى قصر شيرين وكرند وأسدآباد وكنكاور أو كنكاور (وكانت تسمى في العصور الإسلامية الأولى قصر اللصوص) وبيستون ونهاوند وخرائب الدينور . وبها آثار من الأكمنيين والساسانيين . وهي من أغنى ولايات إيران .

(١) قره صو بالتركية : الماء الأسود .

نزلنا من المدينة في دار أحد كبرائها — معتمد الدولة . وهي دار جميلة ذات حديقة كبيرة . فيها بناء على يسار الداخل استرحنا به وغسلنا عن وجوهنا غبار الطريق . ثم سرنا في الحديقة في مستوى به حوض كبير فصعدنا درجات كثيرة إلى مستوى آخر فيه حوض يسيل الماء منه إلى المستوى الأسفل متفرقاً على درجات السلم فيملاً العين رواء . وعلى المستوى العالى بناء آخر صعدنا إليه درجات ، فاجتمعنا للغداء . وخطب معتمد الدولة مرحباً بنا وأجابه السير دِنْسُنْ رُسْ . ثم أخذت صورتنا على الدرجات التى بين المستويين ؛ ثم انتقلنا إلى دار أخرى في أقصى المدينة لأحد الأعيان — أمير الكل . وهي دار واسعة بها حديقة جميلة فيها أحواض ونافورات كثيرة . فتقَسَّمْنَا حجراتها للبيت . وهاتان الداران تشهدان بما لأهل إيران من كَلَفٍ بالحدائق والمياه وبراعة في تنسيقها .

وخرجنا في المساء لنرى آثار « طاقِ بُستان » على أربعة أكيال^(١) من المدينة في لحف جبل شاهق مشرف على الجادة . وهو طاق من آثار الساسانيين يقابل داخله تمثال فارس منحوت في الصخر . وهو فيما يظن تمثال كسرى برويز على فرسه شبديز ، وبجانبه تمثال شیرين زوجه . وعلى جانبي الطاق نقش كثير يمثل الصيد في اليبس والماء وغير ذلك . وفي أعلى الجانب الأيسر صورة فتح على شاه أحد الملوك القاجاريين ، وجماعة من رجاله منحوتة في الحجر ؛ أراد ذلك الملك أن يزاحم كسرى برويز في داره .

(١) ينبغى أن يعرب كيلو بحذف الواو فيقال كيل وأكيل .

والجبل فسيح وأرض الله واسعة ، وشبذير ومعناه هادى الليل ، فرس
لكسرى برويز مشهور فى قصص الفرس وشعرهم وفى الشعر العربى أيضاً .
ومما يقص عنه ما رواه ياقوت فى المعجم :

« وكان سبب صورته فى هذه القرية أنه كان أذكى الدواب ،
وأعظمها خلقاً ، وأظهرها خلقاً وأصبرها على طول الركض ، وكان ملك
الهند أهدها إلى الملك أبرويز . فكان لا يبول ولا يروث مادام عليه سرجه
ولجامه ، ولا ينخر ولا يزبد . وكانت استدارة حافره ستة أشبار . فاتفق أن
شبذير اشتكى وزادت شكواه . وعرف أبرويز ذلك وقال : لئن أخبرنى
أحد بموته لأقتلنه . فلما مات شبذير خاف صاحب خيله أن يسأله عنه
فلا يجد بداً من إخباره بموته فيقتلنه . فجاء إلى البلهبذ مغنيه ، ولم يكن
فيما تقدم من الأزمان ولا ما تأخر أحذق منه بالضرب بالعود والغناء — قالوا
كان لأبريز ثلاث خصائص لم تكن لأحد من قبله : فرسه شبذير ،
وسرّيته شيرين ومغنيه بلهبذ — وقال : اعلم أن شبذير قد نفق ومات ،
وقد عرفت ما أوعده به الملك من أخبر بموته . فاحتل لى حيلة ولك كذا
وكذا . فوعده الحيلة . فلما حضر بين يدى الملك غناه غناء وورّى فيه عن
القصة ، إلى أن فطن الملك وقال له : ويحك ! مات شبذير . فقال : الملك
يقوله . فقال : زه ! ما أحسن ما تخلصت وخلصت غيرك . وجزع عليه جزعاً
عظيماً فأمر قنطوس بن سِنَارَ بتصويره . فصوّره على أحسن وأتمّ تمثال .

حتى لا يكاد يفرق بينهما إلا بإدارة الروح في جسدهما . وجاء الملك فرآه .
فاستعبر باكياً عند تأمله إياه الخ .

ومما رواه ياقوت عن الهمداني أن بعض فقهاء المعتزلة قال : لو أن
رجلاً خرج من فرغانة القصوى ، وآخر من سوس الأبعد قاصدين النظر
إلى صورة شبديز ما عُنفا على ذلك .

وأما أنا فلم أر التمثال من الإتقان والإحكام على النحو الذي وصفوا .
ولا ريب أن الزمان قد ذهب برؤائه ، وقد كسر رأس الفرس وبقى سائره .
وقد نظم خالد القنّاص قصة شبديز التي تقدمت . ومما قيل في شبديز
من الشعر قول أبي عمران الكردى :

وهم تقروا شبديز في الصخر عبدة وراكبه بَرويز كالبدْر طالع
عليه بهاء الملك والوفد عُكّف يُخال به فجر من الأفق ساطع
تلاحظه شيرين واللخط فاتن وتعطو بكف حسنتها الأشاجع
يدوم على كَرّ الجديدين شخصه ويُلبى قويم الحسيم ، واللون ناصع
وعلى الجبل إلى يسار الطاق صور أخرى ساسانية ؛ منها صورة تمثل
أردشيرين بابل مقيم الدولة الساسانية ، وقد داس عدوه أردوان ، وصورة
أخرى تمثل الملك سابور ، وقد جثا أمامه أسيره الامبراطور فلريان .
برحنا كرمانشاهان صباح الثلاثاء . فنزلنا عند طاق بستان مرة أخرى .

النعيد النظر إلى برويز وشبديز وما هنالك من الصور ؛ ثم استأنفنا المسير
والساعة ثمان ونصف ، فوقفنا بعد نصف ساعة على آثار الملك دارا في جبل
بيستون . وهو جبل شاهق يكاد الطرف يعيا دون قمته ؛ وقد سُويت فيه
على ارتفاع عظيم ، صفحة صُور فيها الملك دارا وأمامه وفود الأمم المغلوبة .
وتحت الصورة نقوش كثيرة بالفارسية القديمة ، والأشورية . وكانت هذه
النقوش مفتاح اللغة الفارسية القديمة ، كما كان حجر رشيد مفتاح اللغة
المصرية . وعلى مقربة من هذه الآثار موضع في الجبل منحوت يظن أنه
أريد تسويته للنقش ثم عدل عنه . ولكن الروايات الفارسية تقص
في ذلك قصة عجيبة عن فرهاد عاشق شيرين الذي ذكرته آنفاً . وسأعود
إلى هذه القصة حين أصف مرورنا بجبل بيستون ليلاً ، ونحن قافلون
من طهران .



من همدان إلى طهران

ثم مررنا بكنكاور بعد ساعتين من كرمانشاهان ؛ وهي قرية صغيرة
يها آثار معبد قديم . وبعد ساعة مررنا بقرية أسد آباد . وقد زعم بعض
الرفاق أنها قرية السيد جمال الدين الأفغانى ، وبها بعض قرابته .
ويقول الأفغانيون أنه من أسد آباد القريبة من مدينة كابل . وكذلك
أخبر السيد عن نفسه . ومهما يكن فقيح أن تتنازع رجال الإسلام العظام
عصبية الأقاليم والبلدان . فقد كان المسلمون أمة واحدة لها موطن واحد
هو دار الإسلام . والسيد جمال الدين عربى هاشمى حسينى ، ولكنه
كما قال الشاعر :

أبي الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

فنحن بنو الإسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله من شكر
فإن أراد المسلمون أن يفترقوا أقواماً وبلداناً وشيعاً ؛ فلا يظلموا أسلافهم
العظام بزجهم فى هذا المترك . فقد كانوا أعظم نفوساً وأسمى أفكاراً من
أن تحيط بهم عصبية اللحوم والدماء ، والأرض والبناء . وأسد آباد
قرية أسسها أسد بن ذى السرو الحميرى فى زعم الرواة . وهى على مرحلة
من همدان إلى الجنوب والغرب منها فى حضيض جبل ألوند : (جبل أسد
م — ٧ مكررة

آباد). وكانت منزلاً كبيراً على الجادة العظمى بين بغداد وهمدان . وكانت في العهد الإسلامي إلى عصر المغول غنية رائجة التجارة كثيرة السكان . نشأت كثيراً من العلماء . وهي اليوم قرية صغيرة . وعندها كانت الموقعة الكبيرة بين السلطانين السلجوقيين محمود بن محمد بن ملكشاه وأخيه مسعود سنة أربع عشرة وخمسمائة . وعلى ثلاثة فراسخ من أسد آباد أبنية ساسانية تعرف في الكتب العربية باسم مطابخ كسرى .

ثم ارتقينا جبل أسد آباد . وهو جبل شامخ فسيح ، تترأى بين قمه وأوديته مناظر جميلة جلييلة محبوبة هائلة ؛ رأينا وقد ذبلت أعشابه ورياحينه وأشجاره . وقيل لنا إنه في الربيع يبدو في حلل رائعة من الأزهار مختلفة الألوان ، لا يعرى منها مكان في القمم والأودية . وترى الطرق جدائد على سفح الجبل ، تتمتع فيها السيارات صاعدة وهابطة . وقد عدّ سائقو السيارات في بعض الطريق اثنتين وسبعين ثنية . فما ينعطف السائق إلى اليمين إلا لينعطف إلى اليسار ، وهكذا اثنتين وسبعين مرة أو أكثر . ولكن الطريق في جملتها ممهدة واسعة مأمونة ، لم نشعر فيها بالخطر الذي أُنذرنا به من قبل .

هذه همدان الجميلة ! في حجر جبلها الأشم — جبل ألوند — تبدو في زينة من أشجارها الباسقة ، وبساتينها الواسعة . هذه بلدة بديع الزمان ،

وأحمد بن فارس ، وابن الفقيه . هنا مرقد الشيخ الرئيس أبي علي ابن
سيناء ! ليت الوقت يتسع فنقضى بهمدان أياماً نتعرف حاضرها ونتلمس
أعلام التاريخ من ماضيها !

همدان مدنية عظيمة قديمة ، ذكرت في الآثار الفارسية القديمة باسم
هكمتانه ، وهي في الثوراة أختتا ، وفي كتب اليونان أكتانا . وقد لجأ إليها
داراً بعد أن هزمه اسكندر في موقعة « إربل » . وكانت واسعة العمران
حتى قال ابن حوقل إنها كانت هي وأرباضها فرسخاً مربعاً . وصارت حاضرة
لبعض دول السلاجقة .

وقد روى ابن الفقيه الهمداني وياقوت كثيراً من أخبارها وما قاله
الشعراء فيها . وبردها شديد جداً . وقد روى في ذلك أن عبد الله بن المبارك
قدمها فأوقدت بين يديه نار ؛ فكان إذا سخن باطن كفه أصاب ظاهرها
البرد ، وإذا سخن ظاهرها أصاب باطنها البرد . فقال :

أقول لها ونحن على صلاء أما للنار عندك حرّ نار ؟
لئن خيَّرتُ في البلدان يوماً فما همدان عندي بالخيار
وقال آخر :

همدان متلفة النفوس بيردها والزمهرير ، وحرّها مأمون
غلب الشتاء مصيفها وربيعةها فكأنما تموزها كانون

وقيل لأعرابي : كيف رأيت همدان ؟ فقال : أما نهارهم فرقاص ،
وأما ليلهم فخمال . يعنى أنهم بالنهار يرقصون لتدفأ أرجلهم ، وبالليل يحملون
ثياباً كثيرة .

دخلناها والساعة واحدة بعد الظهر ، فنزلنا فى دار بظاهرها اسمها باغ
رئيس الإسلام . وهى دار جميلة ذات حديقة كبيرة وفيها مجلس واسع
حول حوض عظيم . نزلنا بها فاسترحنا وتغدينا وجلسنا برهة وأخذت صورتنا
وقد رأيت صاحبنا السندباد الذى ذكرته آنفاً يرتب الحاضرين
لأخذ الصورة . فقلت : يا سندباد أنت فى كل مكان ولكل عمل . إنك
أبو الفتح الاسكندرى أو أبو زيد السروجى ؛ فقال الأستاذ منورسكى :
هذا ابن بطوطة .

ومما أذكر من لطائف هذا المجلس أن أحد مندوبى الهند محمد إسحق
نظر إلى أشجار عنب قصار فسألنى ما هذا ؟ قلت : كرم ولكنه صغير ؛
فقال : إذا ما كذب الثعلب فى حكايته المعروفة حين قال : هذا حصرم ؛
فعنب هذا الكرم فى متناول الثعالب .

ثم خرجنا لزيارة قبر الشيخ الرئيس ؛ دخلنا الباب إلى رحبة تنتهى
إلى بايين أيسرها باب مكتبة صغيرة عامة ، والأيمن مكتوب فوقه :
(أرامكاه أبو على بن سينا) أى مرقد أبى على بن سينا . دخلنا حجرة

صغيرة بها قبران متشابهان يغطى كلا منها صفيحة واحدة من الحجر عليها نقوش كثيرة ، ويحيط بهما سياج من حديد . فالقبر الذى يلي الباب قبر الشيخ الرئيس ، والذى إلى جانبه قبر رجل اسمه أبو سعيد . قال بعض أصحابنا : إنه أبو سعيد ابن أبي الخير الصوفى المعروف . وليس هذا مقبولا فابن أبي الخير مات فى خراسان .

ثم ذهبنا لزيارة مزار هناك يعظمه اليهود ويحجون إليه ، ومن أجله كثر عددهم فى همدان حتى صاروا زهاء ألفين — وهو فى زعمهم قبر إيستر ومردخاى . وهما امرأة ورجل من اليهود لها قصة فى التوراة فى (سفر إيستر) وخلاصة القصة أن إيستر كانت فى حضانة ابن عمها مردخاى فى مدينة سوس ، وأن ملك الفرس اخشويرش غضب على امرأته وشتى وأراد أن يختار غيرها ، فعرضت عليه فتيات مملكته فاختار إيستر اليهودية وحظيت عنده . وكان هامان وزير الملك قد نقم على مردخاى أنه لا يسجد له كما يسجد الناس ، فأغرى الملك باليهود وأخرج أمره بقتلهم حيثما تُقفوا فى المملكة . وكاد مردخاى وإيستر لهامان حتى أمر الملك بصلبه على الخشبة التى أعدها هو لصلب مردخاى . وكتب الملك إلى الولاة ألا ينفذوا أمره فى اليهود وأن يسلطوا اليهود على أعدائهم فيقتلوه .

والقبران كبيران عليهما سياجان ، وهما فى حجرة ذات قبة لها مدخل

صغير واطى* لا يدخله الداخل إلا راعياً .

قضينا في همدان ثلاث ساعات ونصفاً ثم برحناها والساعة أربع ونصف
متوجهين تلقاء قزوين .

برحنا همدان وما قضت النفس منها لبانة .

وتلفتت عيني فمد خفيت عنى الطلول تلفت القلب

وبعد ساعة نزلنا منزلاً على الطريق اسمه رزان ، وقد أعد لنا الشاي
والفاكهة والفسق والحصى واللوز الخ . فرأينا ضرباً من الحمص والفسق
كبيراً لم نر مثله من قبل . وكان السير دُسنُ رُس ، والشاعر الإنكليزي
دِرِنك ووتر قد سبقا إلى هذا المنزل ، إذ فارقا همدان قبل الركب دون
أن يزورا قبري إيستر ومردخاي فطال بهما الانتظار في هذا المنزل .
فلما بلغته أنا ورفيقي عبد الكريم الحسيني قابلني أستاذي رمرّ دهشاً
يقول : لماذا تأخرتم ، هل زرتم إيستر ومردخاي ؟ قلت : نعم . قال :
هل ألقى فلان هناك محاضرة طويلة ؟ قلت : محاضرة قصيرة . قال : ذلك
ما ظننت ، قد تأخرنا جداً وأظلم الليل . ثم سرنا قبل أن يدركنا الرفاق
في طريق موحشة تتخللها قرى وضياح قليلة منها مكان اسمه آب كرم
أى الماء الحار فيه حمة ، أى ينبوع ماء حار .

وقفنا للاستراحة قليلاً ورؤية ينبوع ، فتركنا السيارة ومشينا

وراء رجل يحمل مصباحاً حتى أتينا النبع ، فإذا حجرة فيها حوض يفور منه الماء . فقلت لصاحبي : ما أحسنه حماماً لو هُيَّئَ له بناء . وكم في الشرق من معادن ومياه أغفلتها الأفكار والأيدى ! واستأنفنا السير وطال بنا السفر حتى لاحت قزوين تحت ظلام الليل ، فوردناها متعبين والساعة تسع ونصف من المساء . وقدم بقية الركب بعد ساعة . بتنا في دار جميلة بجانب كنيسة روسية . وقد وهبت الدولة الروسية هذه الدار والكنيسة وما يتصل بهما للدولة الإيرانية

قزوين بلد قديم ذكره بطليموس باسم قساين . وهي على الجادة العظمى من بغداد إلى خراسان . وتلتقي عندها طرق القوافل الآتية من الشرق والغرب والشمال والجنوب . فمن أجل ذلك اتسع عمرانها في القديم وراجت تجارتها . وهي على مقربة من جبال البرز ، ويمجرى عندها نهر صغير يفضى إلى نهر أبهر . وتبعد عن طهران مائة وخمسين كيلاً . وكانت قبل الإسلام وبعده ثغراً لمحاربة الديلم . وقد مَصَّرَها سعيد بن العاص بن أمية ، وجعلها مغزى أهل الكوفة . وأغزى الحجاج ابنه محمداً الديلم ، فنزل قزوين وبنى بها مسجداً سُمي بعدُ مسجد التور . وبنى موسى الهادي مدينة بجوارها عرفت بمدينة موسى . وبنى المبارك التركي مولى المأمون أو المعتصم حصناً بها سماه المباركية . وروى ياقوت :

« اجتاز الرشيد بهمدان ، وهو يريد خراسان ، فاعترضه أهل قزوين ، وأخبروه بمكانهم من العدو ، وعنائهم في مجاهدته ، وسألوه النظر لهم ، وتخفيف ما يلزمهم من عُشر غلتهم في القصبه فسار إلى قزوين ودخلها ، وبني جامعها ، وكتب اسمه على بابه في لوح حجر . وابتاع بها حوانيت ومستغلات ، ووقفها على مصالح المدينة وعمارة قبتها وسورها » .

وقد ذكرها بديع الزمان باسم الثغر ، في المقامة القزوينية التي أولها : غزوت الثغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين . وروى بعض المحدثين أخباراً في فضائل قزوين ، والحث على الإقامة بها لكونها من الثغور . وقد ذكرت في الشعر العربي . ومن ذلك قول الطرمّاح بن حكيم :

خليلى مدّ طرفك هل ترى لى طعائن باللوى من عوكلان

ألم تر أن عرفان الثريا يهيج لى بقزوين احتزاني

وقد نشأت قزوين جماعة من العلماء والأدباء ، منهم الرافعى صاحب كتاب التدوين فى أخبار قزوين توفى سنة ٦٢٣ هـ وزكريا بن محمد صاحب عجائب المخلوقات المتوفى سنة ٦٨٢ ، ومحمد الله المستوفى المؤرخ صاحب تاريخ كزیده ، ونزهة القلوب فى الجغرافيا المتوفى سنة ٧٥٠ ، وأبو حاتم محمود بن الحسن الفقيه الشافعى أخذ عن الاسفرائينى والباقلانى ، وأخذ عنه الشيرازى وله كتب كثيرة ، منها كتاب الحيل فى الفقه وتوفى

سنة ٤٤٠ ، ومنهم الحكيم شاه محمد الذى أخذ عن جلال الدين الدوانى ،
وذهب إلى مكة للمجاورة فدعاه السلطان بايزيد الثانى إلى استانبول فعاش
فى رعايته ورعاية سليم وسليمان من بعده ، وكتب فى التفسير والعقائد
والفلسفة وترجم حياة الحيوان للدميرى إلى الفارسية

تركنا قزوین والساعة تسع ونصف من صباح الأربعاء ٢٤ جمادى
الثانية سنة ١٣٥٣ (١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٤) فبلغنا طهران بعد الظهر ،
ونزل جماعة منا فى الفندق الكبير (جراند أوتيل) وآخرون فى الفندق .
« النادرى » .

طهران

استرحنا بقية اليوم وزرنا بالليل دار المفوضية المصرية . ومصرّ وزير
المعارف فترك بطاقاته للمندوبين ، ووُزع عليهم منهاج المؤتمر وأوراق أخرى .
فيها دعوات إلى حفلات كثيرة . وعرفنا من المنهاج أن أيام المؤتمر والحفلات
خمس عشرة يوماً من الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الثانية سنة ١٣٥٣
(١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٤ — ١٢ مرمهه سنة ١٣١٣) إلى يوم الجمعة عاشر
رجب . ومن ذلك ستة أيام فى طهران ، وثلاثة أيام فى مشهد ، وستة
فى الطريق بين طهران ومشهد ذهاباً وأوبة . وقد سجل فى بيان أعضاء
(ط)

المؤتمر اثنان وأربعون من ممثلى الأمم المختلفة ، ومثلهم من الإيرانيين .
ومندوبو الأمم يمثلون ثمانى عشرة أمة بينها من أم الشرق مصر والعراق
وتركيا وأفغانستان والهند واليابان

وفى اليوم التالى بدئت أعمال المؤتمر بمدرسة دار المعلمين فى بهو فسيح
صفت فيه مقاعد كثيرة ، صفوفها الأولى لأعضاء المؤتمر والأخرى للحضار
من غيرهم . ووضع فى صدر المكان تمثال للفردوسى ، ومنصة للرياسة ،
ومنصة الخطابة . واستمر اجتماع المؤتمر خمسة أيام . وكان الموعد من الساعة
التاسعة صباحا إلى الواحدة بعد الظهر . وزيدت جلستان فى مساء اليومين
الثالث والرابع لكثرة مريدى الكلام من الأعضاء . وقد تكلم زهاء
أربعين ، قليل منهم الإيرانيين . وترك بعض الإيرانيين الكلام ليفسحوا
مجال القول لضيوفهم

افتتح المؤتمر فروغى خان رئيس الوزراء ، ولجنة الآثار القومية ، فشكر
الوفود باسم الأمة الإيرانية والحكومة ، ولجنة الآثار على ما أجابوا الدعوة
وتحملوا مشاق السفر ، وأبلغهم سرور جلالة الشاه بقدمهم ، وأنه سيقابلهم
فى طوس ، وقال :

يقول الشيخ سعدى : « إن السفر لا يطول على قاصد الجيب ^(١) »
وإنما أجاب السادة الفضلاء دعوة الفردوسى . وإذا كان الداعى هو

(١) سفر دراز نباشد بىای طالب دوست

الفردوسى أمكن أن نقول : « ليس فى السفر الروحى بُعد المنازل ^(١) » .
 ونحن ، مواطنى الفردوسى الذين عهد إلينا شرف الترحيب بكم نيابة عنه ،
 نعرف أنكم كنتم على يقين مما تلقون من المشقات الجسمانية ، ولكن
 أرواحكم الكبيرة الكريمة قلبت المشقة راحة بهمتها العظيمة ، وأولت
 إيران يداً لا تنسى . أجل قد حملتمونا المن العظيمة ، ولكن كان لكم
 الحق فيما حملتم أنفسكم من مشقة ، فإن الفردوسى إن تعلق بإيران جسماً
 فهو ابن الإنسانية روحاً ، بل أقول إذا أذتم لى : إنه من آباء الإنسانية .
 وبعد فبصيح أن يتصدى جاهل مثلى تعريف علماء أمثالكم بالفردوسى ،
 فمن الخير ألا أشغل أوقاتكم النفيسة ، وأن أفسح المجال لأعمالكم المفيدة »
 ثم أعلن افتتاح المؤتمر ، وأخبر أن « على أصغر حكمت » كفيل وزارة
 المعارف ^(٢) سيتكلم بالفرنسية لأن بعض الحاضرين لا يعرف الفارسية .
 فتكلم كفيل المعارف مبدياً سرور الإيرانيين وشكرهم للعلماء الذين وفدوا
 للمشاركة فى حفلات الفردوسى ثم قال :

إن اجتماع هذا العدد من العلماء على اختلاف الأوطان دليل قاطع
 على ما قيل من أن العلم والأدب لا وطن لهما . فحيثما لمع نور هذه الموهبة
 الإلهية اتجهت إليه النفوس المستعدة والأرواح المشتاقة كالفرش ، فيرون

(١) بعد منزل نبود درسفر روحانى

(٢) كفيل الوزارة هو القائم بأعمالها

أنفسهم في هذه المرأة المشتركة بينهم ويقولون : كنا متحدين ، كنا جوهرأً واحداً ، كنا بغير أجسام ورءوس ، كنا جوهرأً وضأ كالشمس ، وكنا صافين كلماء ، فلما تصور هذا النور الجميل ظهرت أعدادنا ظهور ظلال الشرفات (١)

إن اهتمام الأمم العظيم بعيد الفردوسى الألفى واحتفاءها به في بلادها ، وإرسال فضلائها إلى قبر شاعر إيران برهان على أن الأمم لا تختلف في الحقائق على رغم ظواهر الأمور . إن بين الأمم اختلافأً في السياسة والاقتصاد ، والتجارة والمعيشة والآداب والعادات — اختلافأً جعل العالم الحاضر ملؤه الشرور والآفات ، ولكن كلما لاحت للناس الأمور المعنوية والفوائد العلمية والأدبية تحت هذه الاختلافات وتجلي الوفاق والوئام . ثم يبين كيفيل المعارف أن الاشتراك في مثل هذه الأمور أحسن وسيلة إلى التقريب بين الأمم ، وقال : لذلك أفتخر بأن أقول أن اهتمام الأمة الإيرانية بعيد الفردوسى ودعوة الأمم إلى المشاركة فيه يعد في الحقيقة خطوة إلى التفاهم الحقيقي بين الأمم وإن يكن في ظاهره ذا مقصد أدبى وتاريخى .

(١) هذه ترجمة أبيات صوفية أظنها من المتنوى وهى :

متحد بوديم يك جوهر همه بى تن وبى سربليم آت سرحمه
يك كهر بوديم همجوت آفتاب بى كهر بوديم وصافى همجواب
جون بصورت آمد آن نور سره شد عدد جون سابه هاى كنكره

(ل)

وبعد فراغ وزير المعارف من كلمته دعى الحاضرون إلى انتخاب مكتب المؤتمر فكانت نتيجة الانتخاب :

الحاج محتشم السلطنة اسفنديارى	رئيس
الأستاذ كريستنسون الدانمركى	نائب الرئيس
» زاره الألمانى	»
» هنرى ماسى الفرنسى	منشى (سكرتير)
الدكتور عبد الوهاب غزام	»

ثم تلا الرئيس رسائل كثيرة من الحكومات والجامعات تبين عن مشاركة الإيرانيين فى الحفاوة بشاعرهم . ثم تكلم بعض المندوبين كلمات قصيرة أبانوا فيها عن سرورهم بالمشاركة فى هذا الاحتفال .

وكان من المتكلمين الأستاذ عبد الحميد العبادى فتكلم بالعربية عن فضل الفرس على الأدب العربى ، وألقى الشاعر الكبير الزهاوى قصيدة فارسية .

ثم بدئت المحاضرات على ترتيب حروف الهجاء اللاتينية فكان أول المتكلمين الأستاذ العبادى فتكلم عن الأخلاق فى الشاهنامه واستمرت كلمته خمساً وعشرين دقيقة وتلقاها الحاضرون بالاستحسان ، واقتبس منها بديع الزمان أحد أدباء إيران حينما تكلم عن الشاهنامه من بعده .

وفي اليوم التالي تكلم سفير الروس ، وترجمت كلمته إلى الفارسية ، وأهدى عن دولته كتباً وصوراً فارسية قيمة . ثم خطب سفير الألمان وقدم هدايا من الكتب منها فهرست للشاهنامه ، وأعلن منح بعض الجامعات الألمانية رئيس وزراء إيران دكتوراه في الآداب ، وانتخاب وزير المعارف عضواً في جمعية المستشرقين الألمانية . ثم تكلم آخرون وانتهت الجلسة بإنشاد الشاعر الكبير الزهاوى قصيدة عربية (نشرت في الرسالة حينئذ) وفي اليوم الثالث كانت جلستان في الصباح والعشى ، وتكلم ثمانية . وكنت ثاني المتكلمين في الصباح فالتقيت بالفارسية كلمتي « مكانة الشاهنامه في آداب الأمم » في عشرين دقيقة . وقد تفضل الحاضرون فأحسنوا استقبالي حينما قمت للكلام ، وأحسنوا الاستماع إليّ ، ثم أبدوا استحساناً عظيماً حينما فرغت . وإني أدع للجرائد الإيرانية الكلام ، فإن القارىء المصرى يهمل أن يعرف ما قالت جرائد إيران في ذلك .

قالت جريدة اطلاعات :

« ثم ألقى الدكتور عبد الوهاب عزام معلم الأدب الفارسي والعربي بالجامعة المصرية ، خطبة بالفارسية موضوعها « مكانة الشاهنامه في آداب الأمم » وقد بدأ كلامه بقوله : أنا لا أحسن التكلم بالفارسية ، ولكني لا أريد في حضرة هذا الشاعر الكبير (وأشار إلى تمثال الفردوسي) أن أتكلم إلا بلغة الشاهنامه » .

ولخصت الجريدة المحاضرة، ثم قالت : « وفي نهاية الخطبة أبدى سروره بشاركته هو وزميله في عيد الفردوسى باسم الأمة المصرية والحكومة . وقدم إلى رئاسة المؤتمر نسخة نفيسة من الشاهنامه العربية التي أخرجها الدكتور غزام أخيراً بعد أن صححها وعلق عليها وقدم لها مقدمة نفيسة جامعة . وطلب أن ترفع هذه النسخة إلى الحضرة الهايونية الشاهنشاهية . وكذلك قدم نسخة إلى حضرة رئيس الوزراء ، وأخرى إلى كفيل وزارة المعارف ، وكانا حاضرين . وقد قوبلت خطبته وعمله بتصفيق مديد . وحينئذ تقدم إلى منصة الخطاب السيد حكمت كفيل وزارة المعارف ، وشكر الدكتور غزام على ما أظهر من عواطف المودة وقال :

« أشكر الدكتور عبد الوهاب غزام من جهتين : الأولى أنه تحمل مشقة في ترجمة الشاهنامه وتصحيحها والتعليق عليها . والثانية أنه تكلم بلغة الشاهنامه . يقول حافظ الشيرازى : إن الترك المتكلمين بالفارسية يهبون لى الحياة^(١) . وأنا أقول أن العرب المتكلمين بالفارسية يهبون لى الحياة . والحق أن لسانى قاصر عن الشكر . والأستاذ غزام من أدباء الشرق الذين درسوا الفارسية برغبة وعشق وكلف خاص . وإنى أختم شكرى بهذين البيتين للشيخ سعدى :

قلت لقابى : إن الناس يجلبون السكر من مصر فيهدونه إلى الأحياء

(١) ترکان پارسی کو بچشد کان عمرم

فإن تكن يدي خالية من هذا السكر فعندي كلام أحلى من السكر^(١)»
ولما جلس الدكتور عزام في مكانه من منصة مكتب المؤتمر قال له
الرئيس : « لقد أردت أن تثبت أنك أستاذ الأدب الفارسي بحق » ا. هـ
ثم توالى المتكلمون في اليومين الرابع والخامس ، وأنشد الشاعر
الإنكليزي درنكووتر قصيدة . وترجمها نظماً وأنشدها في المؤتمر من بعد
الشاعر الفارسي بهار الملقب بملك الشعراء .

وتكلم في اليوم الأخير الأديب أحمد حامد الصراف أحد مندوبي
العراق فالتقى بالعربية كلمة قصيرة بليغة تكلم فيها عن المودة بين
العراق وإيران .

وكانت هذه الأيام الخمسة مزدهجة بحفلات الغداء والعشاء ، ومشاهد
التمثيل والألعاب الرياضية ومشاهدة الأماكن العظيمة في طهران .

(١) بدل كغم از مصر قند آورند بردوسنات أرمفاني برند
مراکه نهی یود آزين قند دست سخنهاي شیرين تراز قند هست



طهران

تلقينا يوم قدومنا طهران دعوات كثيرة إلى حفلات رتبها الحكومة — دعوات باسم رئيس الوزراء ، ووزراء الداخلية والخارجية والمعارف ، ولجنة الآثار القومية ، ونادى (إيران جوان) . وكانت دعوة رئيس الوزراء إلى العشاء في قصر كلستان ، والدعوات الأخرى إلى الغداء في دار البلدية ونادى إيران . وقد دعت لجنة الآثار إلى شهود التمثيل مرتين في مسرح (سألن نيكوئي) ، وإلى شهود لعب الجوكان ، وألعاب أخرى في ميدان سلطنت آباد .

تعشنا الليلة الأولى في القصر الملكي : (قصر كلستان) . وهو بناء جميل يرى الداخل إليه حديقة فيها أحواض ماء كبيرة ، وقد رأينا على حافة الأحواض شموغاً كثيرة توقدت فيرى للألأها على صفحة الماء رواء جميل وصعدنا إلى بهو فسيح غُشيت جدُّه وسقفه بالمرايا وقطع البتور — وهذه زينة شائعة في إيران رأيناها في أمكنة كثيرة — وضُفت في جوانب المكان خزائن فيها ذخائر الملوك السالفين : قطع كبيرة من الأحجار النفسية ، وسيوف وخنابر وتروس ، وأدوات للزينة ، وأباريق وطسوت . كل ذلك محلى بالماس والياقوت ، والعقيق والفيروز . وفي صدر

المكان عرش محلي بالأحجار الثمينة له مسند على صورة ذنب الطاووس ،
ويسمي عرش الطاووس ؛ وكذلك رأينا كتباً قديمة فيها من عجائب الخط
والنقش والتجليد وآيات الصناعات الإسلامية . أمتعنا النفس برؤية هذه
الأعلاق ، ثم تعشنا ، وشهدنا بعد العشاء ألعاباً نارية كثيرة .

ومن الأبنية الفخمة التي رأيناها في طهران : مسجد سباهسار ، وهو
مسجد كبير فيه مدرسة تسمى الآن : مدرسة المعقول والمنقول ؛ ولها مكتبة
بها مخطوطات قيمة . ومساجد إيران كلها متشابهة في قيامها على عقود كبيرة
وقباب ، وفيما يجلها من الكاشاني والخط الجميل .

وزرنا مجلس الشورى الملى (مجلس النواب) ، وهو بناء جديد رائع ؛
تناولنا الشاي في الطبقة الثانية منه في حجرة غشيت جدرانها وسقفها بقطع
البلور ، يتخللها ضوء النهار ؛ أضاء الكهراء ليلاً فإذا حجرة من النور
يحار فيها الطرف .

وكذلك رأينا مدرسة الصنائع المستظرفة : (الفنون الجميلة) . وهي
مدرسة ناشئة ، يرجى لها في الاحتفاظ بصنائع إيران مستقبل عظيم .

وزرنا مصيف جلاله الشاه : (قصر سعد آباد) . وهو بناء جميل
في سفح جبل شمران شمالي طهران ، يُحلق على منظر رائع من الأشجار
المتددة على السفح وتنحدر إليه المياه متدفقة من الجبل . والقصر بناء صغير
به بضع حجرات ، وقد بنى كله بأحجار ذات ألوان طبيعية مختلفة جلبت
إليه من أرجاء البلاد . ومن حجراته واحدة فيها مكتب جلاله الشاه .



في قصر سعد آباد
من اليمين : الدكتور عبد الوهاب عزام ، علي حكمت وزير المعارف ،
الأستاذ عبد الحميد العبادي ، وخلفهم احمد حامد الصراف مندوب العراق

وقد لفت الأنظار إليه جمال صنعه ، وصورة مدفع صغير فوقه ، ومقلمة لها سياج من رصاص البنادق . تناولنا الشاي في حديقة نسقت بها الأزهار تنسيقاً رائعاً . ثم انصرفنا حين أشفقنا من برد العشي .

وشهدنا التمثيل مرينين : مثلت في الليلة الأولى ثلاث قطع من الشاهنامه . وفي الليلة الثانية قصة سهراب . وشهدنا يوم السبت ١٤ مهرماه (٦ أكتوبر) في ميدان سلطنت آباد على مقربة من المدينة لعب الجوكان (جوكان بازى) وألعاباً رياضية أخرى (نمايشات زورخانه) .

والجوكان لعب الكرة والصولجان على متون الخيل . وكان لعباً شائعاً في العالم الإسلامي ولا سيما إيران . ويذكر كثيراً في الشعر الفارسي . وأخذت منه في اللغة كنايةات كقولهم : « كوى برد » أى أخذ الكرة ، بمعنى حاز قصب السبق في اللغة العربية يقول الشيخ سعدى :

« فسحت ميدان أرادت بيار تازند مرد سخنكوى كوى »
وترجمته : أفسح ميدان الأرادة ليضرب الرجل المنطيق الكرة أى أحسن الاستماع ليستطيع النصيح أن يتكلم . وكان بجانب وقت اللعب ملك الشعراء بهار فقلت : كم قرأت عن (أخذ الكرة) في الشعر الفارسي وما فهمته حقاً إلا الآن .

والألعاب الأخرى ، وتسمى : (نمايشات زورخانه) ضروب مختلفة من أظهار القوة : ضرب الطبل فجاء جماعة يلبسون سراويلات من الجلد ،

وسائر أجسامهم عار ؛ ونزلوا إلى حفرة مستديرة قريبة الغور . وجلس على مقربة منهم رجل على منصة يدق الطبل وينشد شعراً من الشاهنامه وغيرها . شرعوا يرقصون على هذه الأنغام ، ثم لعبوا ألعاباً مختلفة : يدور واحد على نفسه مسرعاً باسطاً يديه أو يحمل سلسلة ثقيلة دائرة يرفع بها يديه واحدة بعد الأخرى . أو يستلقي على ظهره ثانياً رجله ، ويأخذ بكل يد قطعة من الحديد مبسوطة لها مقبض في وسطها ، فيرفع بها يداً بعد أخرى مائلاً على جنبه ، أو يقوم ممسكاً بيديه حديدتين ثقيلتين يحركهما حركات مختلفة ، وهكذا ، وهى ألعاب قديمة تدل على القوة والمران .

أمضينا في طهران خمسة أيام . وطهران مدينة حديثة ، كانت قرية صغيرة بجانب مدينة الري الكبيرة . ثم بنى لها الشاه طهماسب الصفوى سوراً عظيماً . ثم اتخذها آغا محمد خان القاجارى دار ملك ، فشرعت تعظم وتتسع .

ويوم الثلاثاء ٣٠ جمادى الثانية (٩ أكتوبر — ١٧ مرمه) برحنا طهران مبكرين متوجهين تلقاء مشهد . وبين المدينتين ٨٩٧ كيلاً قطعناها في ثلاثة أيام ؛ وكان جلاله الشاه قد سار إلى مشهد قبلنا بيومين .

إجتزنا جبال فيروز (فيروزكوه) . وهى جبال وعرة مديدة تهجد فيها السيارة صاعدة وهابطة ثلاث ساعات ؛ وبلغنا مدينة سمنان بعد الظهر فنزلنا داراً بظاهر البلد فى فناء مصنع كبير حديث لغزل القطن ونسجه ، وفى الفناء حوض واسع ، جلسنا على حافته فرحنا عن الوجوه وعث السفر

استرحنا وتغدينا ، ثم استأنفنا المسير فقطعنا إلى دامغان ١١٣ كيلا ، واخترقنا البلد ولم نقف به .

وسألكم عن سمنان ودامغان حين أصف عودتنا من مشهد إلى طهران . وقطعنا من دامغان إلى شاهرود ٦٧ كيلا . وبلغنا المدينة بعد الغروب ، وقد زين شارعها بسجاجيد كثيرة ، فنزلنا بدار كبيرة خارجها ؛ نزل بعضنا في حجرائها ، وآخرون في خيام ضربت في الحديقة وفرشت فرشاً حسناً . وقد شعرنا بالبرد الشديد في هذا البلد ، وأصابني به برد لازمني حتى عدت إلى طهران . فنغص على السفر قليلاً وأفانني بعض المشاهد . فلها في سفرنا ذكرى لا تنسى :

إذا أنت لم تنفع فضررنا فما
يرجى الفتى كيما يضر وينفع
وشاهرود قرية غربي خراسان على مقربة من حدود ولاية استرآباد طولها ٥٢ درجة وعرضها ٣٦ وارتفاعها ١١١٠ أمتار .

وهي مكان تجارى على الجادة من طهران إلى مشهد ، ويذهب منها طريقان إلى استرآباد ، وفيها مجرى ماء عذب ، وبساتينها كثيرة . وإلى الشمال منها بسطام بلد الصوفي الكبير أبي يزيد البسطامي المتوفى سنة ٣٦١ ، وبها قبره . وقد تحولت التجارة عنها إلى شاهرود في القرن الماضي فتضاءلت حتى صارت قرية صغيرة . وقد بنى بها ألبايتوخان من السلاطين الایلخانية مسجد أبي يزيد والمسجد الجامع . حرصت على زيارة أبي يزيد فقبل لى سنزوره في عودتنا من مشهد ، ثم لم يتيسر لنا هذا حينما رجعنا إلى

شاهرود قافلين إلى طهران لضيق الوقت وتعلل سائق السيارة بوعورة الطريق . وأنا أنقل هنا ما كتبه ياقوت وقد زارها قبل سبعة قرون

فاتنى أن أرى الديار بعينى فلعلى أرى الديار بسمعى

قال ياقوت : « وقد رأيت بسطام هذه ، وهى مدينة كبيرة ذات أسواق ، إلا أن أبنيتها مقتصدة ليست من أبنية الأغنياء ، وهى فى فضاء من الأرض ، وبالقرب منها جبال عظام مشرفة عليها ، ولها نهر كبير جار ورأيت قبر أبى يزيد البسطامي رحمه الله فى وسط البلد فى طرف السوق ، وهو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان الزاهد البسطامى »

وبسطام ودامغان كانتا من مدن قومس المعروفة فى التاريخ الاسلامى . تركنا شاهرود صباحاً ونحن ننشد ما قاله أبو تمام حين اجتاز بقومس وهو يؤم عبد الله بن طاهر فى نيسابور :

يقول فى قومس صحبى وقد أخذت منا السرى وخُطى المهرية القود
أطلع الشمس تبغى أن تؤمُّ بنا ؟ فقلت كلا ولكن مطلع الجود
ونذكر ما قاله يحيى بن طالب الحنفى :

أقول لأصحابى ونحن بقومس ونحن على أثباج ساهمة جرد
بعدنا ، وبيت الله ، من أرض قرقرى وعن قاع موحوش وزدنا على البعد

وقال الجوهري صاحب الصحاح وهو فى قومس :

يا صاحب الدعوة لا تجزعن فكلنا أزهد من كرر
فالماء كالعنبر فى قومس من عزّه يجعل فى الحرز

فسقنا ماء بلا منة وأنت في حل من الخبز

فصلنا من شاهرود والساعة ثمان إلا ربعاً من صباح الأربعاء وممرنا بعد نصف ساعة بقرية قفر اسمها خير آباد . قال سائق السيارة : هذه قرية هاجت بساكنيها العقارب حتى تعذر عليهم الإقامة بها فهجروها . ونزلنا بعد ساعة وعشر دقائق في منزل على الطريق اسمه : (باغ زيدر) . فشربنا الشاي على جدول عليه أشجار جميلة ، وسلكنا طريقاً موحشة ذات تلال ومخان كثيرة . قال محدثنا : كانت طريقاً مخوفة لا يفارقها خطر التركان . ورأينا هناك قلاعاً قديمة مشرفة على الطريق . ونزلنا وقت الظهر في قرية اسمها داورزن في خان ضربت فيه خيام كبيرة فاسترحنا وتغدينا . ثم ركبنا بعد ساعة ونصف نوّم سبزوار . وهي كاسمها في إقليم مخضر ، كثير البساتين فيه مجرى ماء ؛ وكانت مدنية عامرة ، قامت فيها في القرن الثامن الهجري (٧٣٥ — ٧٧٢) إمارة عرف أمراؤها باسم السربدارين (سربداران) . وأولهم : خواجه عبدالرازق أحد رجال السلطان أبي سعيد آخر ملوك الدولة الإيلخانية . ودامت الإمارة خمساً وثلاثين سنة تداول فيها الأمر المضطرب اثنا عشر أميراً حتى قضى عليهم تيمورلنك .

وسيزوار الآن بلدة صغيرة لا يبدو عليها غنى ولا جمال . دخلنا وقد زين شارعها سُمُوط من مصابيح الكهرباء فنزلنا بها وأوينا إلى خان واسع ذي طبقتين ، فرشت حجراته فرشاً حسناً من أجل وفود الفردوسي . وبتنا ليلتنا مسرورين على ما صحب بعضنا من برد شاهرود . ونحن الآن على مائة كيل من نيسابور العظيمة .

نيسابور

برحنا سبزوار والساعة ثمان من صباح الخميس ثانی رجب سنة ١٣٥٣ (١١ أكتوبر سنة ١٩٣٤) . فصرنا في السهل صوب الشرق نصف ساعة . ثم ارتقينا جبلاً هبطنا منه إلى سهل فسيح . وهكذا رأينا إيران ما بين قصر شیرين وطوس : سهولاً تحيط بها جبال : فما يزال المسافر على جبل أو في سهل يفضي النظر فيه إلى جبل حيثما توجه . هبطنا سهلاً كثير الشجر والزرع ، قد انتشرت القرى في أرجائه ، تحيط بها الأشجار الباسقة ، ورأينا زروعاً شتى منها البطيخ والقطن . ورأينا لوز القطن قد تفتح ، ولما تعد الأعواد ذراعاً .

وبعد مسيرة ساعة وربع من سبزوار ، نزلنا بقرية على الطريق اسمها شوراب ، فأكلنا من عنبها واسترحنا قليلاً . ثم استأنفنا المسير لتلقاء نيسابور والقلوب يملؤها الشوق ، والفكر يستجمع ما وعى من أحاديث التاريخ عن المدينة العظيمة ذات المياه والقرى والأشجار ، المدينة ذائعة الصيت في العلم والأدب التي نشأت علماء يفتخر بهم المسلمون على الأدهار ، بلد مسلم ابن الحجاج صاحب الصحيح والحاكم المحدث الكبير ، وأبي القاسم القشيري صاحب الرسالة ، ومحيي الدين النيسابوري الفقيه ، وفريد الدين العطار ، وعمر الخيام ، المدينة التي يقول فيها الخيام :

فإن تكن يدي خالية من هذا السكر فعندي كلام أحلى من السكر^(١) ،
ولما جلس الدكتور غزام في مكانه من منصة مكتب المؤتمر قال له
الرئيس : « لقد أردت أن تثبت أنك أستاذ الأدب الفارسي بحق » ا . هـ
ثم توالى المتكلمون في اليومين الرابع والخامس ، وأنشد الشاعر
الإنكليزي درنكووتر قصيدة . وترجمها نظماً وأنشدها في المؤتمر من بعد
الشاعر الفارسي بهار الملّقب بملك الشعراء .

وتكلم في اليوم الأخير الأديب أحمد حامد الصراف أحد مندوبي
العراق فألقى بالعربية كلمة قصيرة بليغة تكلم فيها عن المودة بين
العراق وإيران .

وكانت هذه الأيام الخمسة مزدهجة بحفلات الغداء والعشاء ، ومشاهد
التمثيل والألعاب الرياضية ومشاهدة الأماكن العظيمة في طهران .

(١) بدل كغم از مصر قند آورند بردوسنات أرمفاني برند
مرا که نهی یود آیین قند دست سخنهاى شیرین ترأز قندهست



طهران

تلقينا يوم قدومنا طهران دعوات كثيرة إلى حفلات رتبها الحكومة — دعوات باسم رئيس الوزراء ، ووزراء الداخلية والخارجية والمعارف ، ولجنة الآثار القومية ، ونادى (إيران جوان) . وكانت دعوة رئيس الوزراء إلى العشاء في قصر كلستان ، والدعوات الأخرى إلى الغداء في دار البلدية ونادى إيران . وقد دعت لجنة الآثار إلى شهود التمثيل مرتين في مسرح (سألن نيكوئي) ، وإلى شهود لعب الجوكان ، وألعاب أخرى في ميدان سلطنت آباد .

تعشنا الليلة الأولى في القصر الملكي : (قصر كلستان) . وهو بناء جميل يرى الداخل إليه حديقة فيها أحواض ماء كبيرة ، وقد رأينا على حافة الأحواض شموعاً كثيرة توقدت فيرى للألأئها على صفحة الماء رواء جميل وصعدنا إلى بهو فسيح غُشيت جذره وسقفه بالمرايا وقطع البتور — وهذه زينة شائعة في إيران رأيناها في أمكنة كثيرة — وصُفّت في جوانب المكان خزائن فيها ذخائر الملوك السالفين : قطع كبيرة من الأحجار النفسية ، وسيوف وخناجر وتروس ، وأدوات للزينة ، وأباريق وطموت . كل ذلك محلى بالماس والياقوت ، والعقيق والفيروز . وفي صدر

شراب نشابور وآب دبیر جوانی کند گر خورد مرد پیر

(شراب نیسابور وماء دبیر . یردان الشیخ إلى شبابه)

و يقول الأنوری :

حبذا شهر نشابور که در بُشت زمين

گر بهشت است همین است و کر نه خود نیست

(حبذا مدنية نيسابور ! أن يكن على ظهر الأرض جنة فهذه ، وإلا فلاجنة)

نيسابور مدينة أزلية ، يروى الفرس أن بانها طمهورث ثالث الملوك

البشداديين ، وأن اسكندر الكبير خربها ثم عمرها شابور الملك الساساني

فسميت باسمه . وقد عرفها اليونان القدماء وسموها نيسوس . ويقال أنهم

سموا باكوس إله الخمر « ديونيسوس » أى إله نيسابور .

وقد تعاقبت عليها البناة من الساسانيين والعرب والغزنويين والسلاجقة

كما توالى عليها النوائب من الزلازل والغارات فى عصور شتى : أصابها

زلزال عظيم سنة نيف وخمسة من الهجرة سنة ٦٦٦ وسنة ٨٠١ ودمرها

الغز سنة ٥٤٨ حين غلبوا السلطان سنجر السلجوق وأسروه . وهى المصيبة

التي نظم فيها الأنورى الشاعر الفارسي قصيدته المعروفة « دموع خراسان »

ولكن المدينة على رغم هذه المصائب كانت فى مقطع العهد الإسلامى قبل

الثار عامرة مزدهرة حتى سميت أم البلاد وقبة الإسلام .

وقد رووا فى عمرائها ونضرتها ما يستبعده العقل . فمن عجائبها الإثني

عشريّة أنه كان بها إثنا عشر معدناً للفيروز والنحاس والمرمر وغير ذلك ،

وإثنا عشر نهراً تنحدر من الجبال ، وإثنا عشر مائة مدرسة (أى ألف ومائتان) ، وإثنا عشر مائة قرية ، وإثنا عشر ألف قناة تجري من اثنا عشر ألف ينبوع .

قال ياقوت ، وهو ممن أدركوا غارات التتار :

« وأصابها الغزى سنة ٥٤٨ بمصيبة عظيمة حيث أسروا الملك سنجر وملكوا أكثر خراسان ، وقدموا نيسابور ، وقتلوا كل من وجدوا ، واستصفوا أموالهم حتى لم يبق فيها من يُعرف ، وخرّبوها وأحرقوها . ثم اختلفوا فهلكوا . واستولى عليها المؤيد أحد ممالك سنجر . فنقل الناس إلى محلة منها يقال لها شاذباخ وعمرها وسورها ، وتقلّبت بها أحوال حتى عادت أعمر بلاد الله وأحسنها وأكثرها خيراً وأهلاً وأموالاً ؛ لأنها دهليز المشرق . ولا بد للقوافل من ورودها » . وقال يصفها قبيل غارة التتار : « وعهدى بها كثيرة الفواكه والخيرات » . وقال : « لم أر فيما طوّقت من البلاد مدينة كانت مثلاً » .

ثم كانت القارعة التى دمرت حضارة الإسلام ، كارثة التتار ، فأحرقوا وهدموا وقتلوا وسبوا وسلبوا ؛ وتركوها خاوية على عروشها ، ويقال بالفارسية : « آمدند وكشتند وسوختند وكندند وبردند ورفتند » أى جاءوا وقتلوا وأحرقوا وهدموا ونهبوا وذهبوا .

ولم تنسها المصائب من بعد ، فقد أغار عليها الأتراك وغيرهم فى عصور مختلفة .

ذكرنا هذه الخطوب ونحن قادمون على نيسابور ، ولكن خيال
المدينة الكبيرة المزدهرة المزدهمة بمساجدها ومدارسها كان يغلب علينا
فتمنى النفس برؤية نيسابور في زينتها وجلالها .

وردناها والساعة عشرون وثلث . فأبصرنا إلى يسار الجادة قرية هي بقية
الأحداث من نيسابور ؛ كما يبقى من الجنة الناضرة عود يابس ، أو من
الرجل العظيم قبر دارس .

ماتت المدينة فلم يبق إلا أن نزور قبرها فيما بقي من قبور أبنائها ،
فها نحن أولاء نسرع المسير إلى قبر عمر الخيام . وقفت بنا السيارات بعد
قليل على حديقة بعيدة من البلد فدخلنا بستاناً كبيراً تتوسطه طريق واسعة
فهبطنا درجات إلى مستوى سرنا به خطوات ، وهبطنا إلى مستوى آخر ،
وبجانبتنا قناة تنحدر إلى المستوى الأسفل فتفضي إلى حوض . وتنتهي
الطريق إلى مسجد صغير جميل نقشت على بابه آيات من القرآن ، واسم
الشاه طهماسب الصفوى الذى بناه . وفي المسجد ضريح لأحد أنباء الأئمة
من آل البيت النبوى رضى الله عنهم ، واسمه محمد المحروق ، وينتهى نسبه
إلى زين العابدين على بن الحسين .

وإلى يمين المسجد مصطبة لها درجات قليلة ، ولها سياج من الرخام ،
وفي وسطها عمود كتب على أوجهه أبيات من الشعر . فهذا قبر عمر الخيام .
وقد سمعت ممن زاروا القبر قبلاً أنه كان فى طاق فى جدار المسجد . (وفى
جدار المسجد على جانبي الباب طاقان) ثم نقل إلى هذا الموضع .



النصب الذي على قبر الخيام
والجالسون على الدرج من اليمين : نظام الدين مندوب الهند
والصراف (العراق) والعبادي وعزام ، والحسيني (الهند)

قلت لوزير المعارف : « كان ينبغي أن تكون بجانب القبر أشجار تهدل أغصانها عليه . وتثر الأزهار فوقه كما وصف الخيام قبره قبل موته فيما حكى نظامى العروضى ، وكما رآه نظامى نفسه بعد موت الخيام فوجده مصدقاً لما قال :

كتب على صفحة من العمود : « الحكيم عمر الخيام — وفاة الحكيم سنة ٥١٧ هـ — » . وفوق ذلك رباعية من نظم ملك الشعراء بها ، وترجمتها :
إجلس إلى قبر الخيام ، وقض الوطر ، وابتغ فراغ ساعة من غم الأيام .
أن تسأل عن تاريخ بناء مرقده . فهو : « أطلب سر القلب والدين من قبر الخيام » ؛ (رازدل ودين زقبر خيام طلب) .

وعلى الصفحة الثانية رباعيتان للخيام ترجمتهما :

« عاد السحاب يبكى على العشب الأخضر ، فلا ينبغي العيش بغير الشراب الأحمر . هذا المرج مسرح أبصارنا اليوم ؛ فليت شعري من يسرح بصره في أعشاب قبورنا غداً ؟

نحن لعب ، والفلك بنا لاعب ، حقيقة لا مجاز فيها ، كنا لاعبين على نطع هذا الوجود ، فعدنا إلى صندوق العدم واحداً بعد آخر ^(١) »
وعلى الصفحة الثالثة رباعيتان :

« ظهر بحر الوجود من الخفاء ، وما استطاع أحد أن يثقب جوهرة الحقيقة

(١) إشارة إلى لعبة الشطرنج

هذه ، كل تكلم بما يهوى ، وما قدر أحد أن يبين عن السر .
ليس عندنا يقين ولا حقيقة ، ولا استطاع تزجية العمر كله في رجاء
هذا الشك ، هلم نأخذ أقداح الصهباء بأيدينا لا نضعها ، ما فرق الصاحي
والسكران في هذه الجهالة ؟ »

وعلى الصفحة الرابعة رباعيتان :

« أولئك الذين كانوا بحار الفضل والآداب ، وصاروا في كالمهم مصابيح
الأنحاب ، لم يجدوا للخروج من هذا الليل المظلم طريقاً ، فخذثوا بالأساطير
ثم أخذهم النوم .

إن هذا الدوران الذي يتجلى فيه مجيئنا وذهابنا ، لا يستبين له بداية
ولا نهاية ، ولا يستطيع أحد أن يخبر صادقاً من أين جئنا وإلى أين نذهب »
ووراء قبر الخيام مزهرة جميلة كُتب على أرضها بألوان النبات : « حكيم
عمر خيام » . ورأينا بجانب القبر حباً ، كأن واضعيه رأوا مناسبة بينه
وبين قبر الشاعر الذي كان مستهتراً بالخر . وقرأت على هذه الحب أنه وقف
على مسجد إمام زاده محمد المحروق . فقلت : قد وضع في غير موضعه ،
وقرن بما هو منه براء .

مدّ وراء قبر الخيام رواق كبير نُظِم فيه مجلس ومدّت فيه موائد الطعام .
إستراح الوافدون قليلاً ، واحتسوا ما شاءوا من أصناف الشراب . ثم
وقفوا يشربون على ذكر الخيام . قلت : بش ما ذكرتم صاحبكم ! وانتبذت
أنا وزميلي الأستاذ العبادي جانباً وتركنا القوم وخيامهم . وقلت لبعض رفقاءنا

الإيرانيين : أين قبر العطار ؟ فلا بد لقادم نيسابور أن يزوره . فيسّر لنا
المسير إليه . فذهبت أنا وبعض الحاضرين إلى قبر العطار . سارت بنا
السيارات في طريق غير معبدة . فأنتهينا إلى حديقة ذابلة الشجر وازهر ،
وفي وسطها بنية ثمانية عليها قبة . ولجنا الباب خاشعين إلى قبر عال عليه
كسوة خضراء ، وإلى رأسه عمود أسود أطول من القامة قليلاً عليه آية
الكرسى ، وأبيات في مدح الشيخ فريد الدين العطار .

لبثنا برهة في حضرة شيخ الصوفية الجليل ، والشاعر الملقب بالكثير
الذي نظم زهاء ثلاثين منظومة فيها أكثر من ألف ألف بيت ، ناظم منطق الطير
والإلهي نامه ، وأسرار نامه ، وجوهر الذات . الخ . ومؤلف تذكرة الأولياء .
ثم يؤنا بغير ما بآء به أصحاب الخيام ، والقلب خاشع ، والذكرى الجليلة
أخذة على النفس آفاقها

وهنا لطيفة لا يسعني إهمالها :

بينما أخرج من حديقة العطار أحسست بوخزة في كفي فظننت زنبارا
لسعني ، فأخبرت رفيقي الشاعر الشاب النابغة رشيد الياسمي . فضحك
وقال : قبلت الزيارة . قلت : لا غرو أن تكون وخزة من العطار ينهني
بها من الغفلة . ألم يقل معاصرو العطار : « أن شعره سوط السالكين ؟ » .
قال : بلى . ثم ارتجل بيتا فارسياً :

نيدش عطار است أين ، زینور نیست کر تحمل میکنی زو دور نیست
(هذه وخزة العطار لاحمة الزنبار فإن تحملت فهو أهل لذلك) فأجبتة :

لسع الزنبار كفى عادياً ودواء كان شعر الياسمي
ولما قدمنا مشهداً جاء إلى شاعرنا النابغة ، وقد نظم أبياتاً كثيرة
في هذه الواقعة أترجمها نثراً فيما يلي معتذراً إليه من هذه الترجمة المرتجلة
التي لا تفي بشعره السلس ، ومعتذراً إلى القراء عما فيها من مدح :
جاء غزام من أرض مصر المختارة إلى نيسابور من أرض إيران ،
فأراد أن يقبل تربة العطار إذ ملأت محبته روحه ، وذهب إلى مرقد الخيام
فرأى مكاناً ناضراً زاهراً ، وسمع صيحات الطرب ، ورنات الكؤوس من
كل جانب ، ورأى القلوب تقور بنار الصهباء . قال غزام : أيها القلب
دع بساط الشراب والسرور ، واعجل إلى العطار ذلك الشيخ الوقور ، فسلك
الصحراء رجل الطريق ^(١) حتى رأى قبراً عليه حجر أسود ، فلم يَسُدْ
العطار وطاف في هذه البقعة المباركة . ثم صاح بغتة وقال مضطرباً : قد
أصاب كفى زنبار . قال له الياسمي : يا عالم مصر ! بل يا أيها الدر المتلألئ
في بحر مصر :

(هذه حمة العطار لا لسعة الزنبار ؛ فإن تتحمل فهو لذلك أهل)
حمة العطار توقظك حتى لا تخلو لذة من ألم ^(٢) . أن تبغ الحبيب
فلا بد من السعي الجاهد ، وأن ترد اللذة (توش) فلا بد من الحمة (نيش)
أن تكن ذقت حلاوة الخيام ، فوخزة العطار خير يا غزام .

(١) الطريق هنا : طريق الصوفية .

(٢) في الأصل : « ينش دنوش » . أي الوخزة واللذة ، وهما كلمتان مقترنتان
في الأدب الفارسي التغارب اللفظين .

من يحرّك يوقظك من الغفلة ، ومن ينعمك يدعك في غمرة . الوخزة .
توقظك من الرقاد ، واللهو ينأى بك عن السداد .

وانبعثت حينئذ من هذا الحديث صيحة بيّنة مفصّحة وعتها أرواحنا :
يا من اختلط وجوده بالعدم ، وامتزجت لذته بالألم ! إذا لم يتداولك
المهبط والصعود ، فكيف تعرف نفسك في هذا الوجود^(١) .

وقد وعدت الأستاذ الياسمي أن أجيب قصيدته بعد العودة إلى الوطن .
ثم مرّت الأيام وحالت المشاغل حتى قدم الأستاذ في الصيف الماضي .
في وفد المصاهرة الملكية فأجبتّه بأبيات نشرتها في جريدة البلاغ
(٢٠ ربيع الثاني سنة ١٣٥٧ — ١٩ يونية سنة ١٩٣٨) :

يا رشيد والليالي حول	قل في أحداثها من يصل
أذكرت العهد إذ كنا معاً	بعلى شاعركم نحتفل
يقطع التاريخ والأرض بنا	سفر من غرمننا متصل
بين طهران وطوس مسرح	يتأدى سهله والجبل
ولنيسابور وافى ركبنا	ولدى الخيام كان النزل
نشد الأشعار في ساحته	ومن الذكرى لدينا مثل
وتركنا الصحب في محفلهم	سيرة الخيام فيهم مثل
وأمننا بقعة ميمونة	للهدى والشعر فيها منزل
غبرت للناس فيها عبرة	وثوى للخلد فيها بطل

(١) هذان بيتان للمطار نفسه .

قد أنار القلب بالشعر كأنه هو بالشعر نبي مرسل
 ذلك « العطار » من خلده « منطق الطير ^(١) » ونعم الرجل
 عطر الأفاق طرا شعره وأنار الأرض منه شعل
 فأطفئنا بضريح رائع عالم مد عليه جنـدل
 وقضينا حقه في زروة مثل ما يقضى حبيب عجل
 ولدى الباب أحست راحتي وخزة للكف منها وجل
 قلت : ما هذا ؟ أراها نحلة لا أرى النحلة : هذا معضل !
 قلت : — والشعر موات طيع تتروى فيه أو ترتجل —
 « وخزة العطار هذى ، فاصبرن إنما مثلك من يحتمل . »
 قلت : « شعر الياسمى المرتضى بلسم تبرؤ منه العلـل »

وحثنا السير نبغى « مشهدا » وإليها تستحب الرحل
 وحططنا رحلنا عند الرضا ^(٢) والرضا غاية من يرتحل
 ثم بكرت إلينا حاملا روضة في ورق تنتقل
 فإذا الزهرة روض مزهر ناضر تحتار فيه المقل
 وإذا القصـة نظم رائع لفنون السحر فيه حيل
 في قريض مثوى مبدع وزن الأنعام فيه الرمل
 قلت : « هذا الشعر قرض رجهه في ديارى ، إن يمد الأجل »

(١) منطق الطير كتاب منظوم للعطار

(٢) على الرضا بن موسى السكاظم أحد الأئمة الاثنى عشر

ثم ديوانك أهديت . به نفحة الروض وزهر خضل
فإليك الآن منى باقة يزدهيها في يديك الجـذل
باقة تهدي لروض ناضر أتراها من رشيد تقبل ؟
مرحباً أهلاً وسهلاً مرحباً في قلوب لا ديار تنزل

* * *

مرحباً بالوفد جاءوا إخوة رسلاً للخير . نعم الرسل
قد نهجتم المعالي سبلاً وهدت للرشد هذى السبل
مرحباً بالوفد ينبغي وصلة لبلاد الشرق فيها أمل
مرحباً بالوفد لم يغتربوا أنهم في أهلهم قد نزلوا
مرحباً (خوش آمدی) إن أقبلوا و (حذا حافظ) أما قفلوا
رجعت من مزار العطار إلى قبر الخيام وأنا أنشد قول حافظ الشيرازي :

« جاء مرشدنا البارحة من المسجد إلى الحانة^(١) ... »

ولما رجعنا إلى قبر الخيام قال بعض الحاضرين من الشرقيين كيف
تركتم الخيام إلى العطار ؟ قلت : لكل رجل وجهته ، وإن لم يكن من
القياس بد فصاحبنا أعظم من صاحبكم ، وأكرم حياة ، وأجل أثراً .
فانصرف ثم عاد وهو يقول : ليس أحد من المتأدين في الشرق والغرب
يجهل الخيام ، وهذا أحد الوافدين من الأوربيين يسأل : من العطار ؟

(١) شب از مسجد سوى میخانه آمد بیرما

فهذه حجة لى . قلت : دعنى فىنى لا أقيس عطاءنا بمعرفة الأوربيين
وجهلهم ، ومدحهم وذمهم ... الخ .

دعينا إلى الموائد فطعمنا ، وتكلم الشاعر الإنجليزى درنكووتر عن
الشعراء ومذاهبهم فى الحياة وقال : إنه لا ينبغى أن يفضل شاعر على غيره
بصواب رأيه ، وسداد طريقته ، بل بمقدار إبانته عما أحسه فى هذه الحياة
وأدركه فى هذا المعترك ؛ نحن لا نستطيع أن نقضى بالخيام فتمضى أوقاتنا
بين امرأة جميلة وكأس وعود ، فإن علينا فى هذه الحياة واجبات تأبى
ذلك ، ولكننا لا نغض من قدر الخيام فقد أبان عن رأيه بهذا الأسلوب
الشعرى الجميل ... الخ

ثم أنشد قطعاً من رباعيات الخيام كما ترجمها فيتز جرال : وأنشد
أحمد الصراف مندوب العراق بالفارسية بعض الرباعيات ، وتكلمت فقلت
بالفارسية : إننا مغتبطون بقدمونا مدينة نيسابور العظيمة ، ذات الأثر
العظيم فى الحضارة الإسلامية . وها نحن أولاء بجانب الخيام الفلسفى
الشاعر الكبير ، فى روحه الطاهرة مناتحية ودعاء . ولا ننسى أن نرسل
تحيتنا إلى الشاعر العظيم ، والصوفى الجليل فريد الدين العطار ، ذى المآثر
الخالدة فى الشعر والتصوف .

وإننا نرجو أن تعود هذه البلاد سيرتها الأولى فى العلم والأدب ،
وأن ييسر الله لها السير فى سبيل الرشاد فى ظل صاحب الجلالة الشاه المعظم .

فقام الأديب سيف آزاد صاحب مجلة إيران باستان (إيران القديمة) فتكلم وحيًا صاحب الجلالة ملك مصر ، وقال أنه قد ساءه أن سمع اليوم بمرض جلالته . وطلب من الحاضرين أن يدعوا له بالشفاء والعافية . وألقى الأديب رشيد الياسمي قصيدة من الضرب الذي يسمى في عرف أدباء الفرس غزلا . وهي مردوفة القافية . والرديف في الشعر الفارسي أن تكرر كلمة بعينها آخر كل بيت ، ويبنى الروى على الكلمة التي قبلها والرديف في قصيدة الياسمي كله « رُو » بمعنى الوجه . وهذه ترجمة القصيدة نثرًا :

« قد استسر وجهك في كمال الظهور ، وصار من التجلى في حجاب من ذلك النور

لا يرى أحد في العالم وجهك ، وإن كان العالم مرآئك
إني أدعوك حبيب الروح ، إذ لا يتجلى وجهك إلا في عالم الأرواح
ول وجهك شطرناء ، نُحوّل عن الكون والمكان وجوهنا
أيها الربيع لا تستر من العندليب خدك ، فقد جعل وجهه كورق
الخريف هجرُك

فلا حرارة في هذا القلب المتوقد ، ولا بسمه في ذلك الوجه المورد
لقد أمضيت العمر في انتظار وحسرة ، وآمل أن يلوح وجهك لى مرة
أيتها الشمس أنى من الشوق إلى شعاعك الوضاء ، أقلب كالهلال
وجهى فى السماء

أبتغى أثراً من هذا الوجه ، ولا أثر ، كما ابتغى اسكندر ماء الحياة فلم يظفر

أن تبشرني بوجهك يوماً واحداً ، وضعت وجهي على عتبةك أبداً
أن تطلب يا رشيد الكنز فانصب ، فإن السعادة لا تبدى وجهها
لمن لم يتعب »

قدّمتنا الساعة خمساً وعشرين دقيقة ، وهي فرق ما بين وقت طهران
ونيسابور ، وركبنا والساعة ثلاث وربع بعد الظهر متوجهين تلقاء مشهد
وبينها وبين نيسابور ١١٦ كيلاً ، فسرنا صوب الشرق والجنوب في سهل
كثير الشجر ، فبلغنا قرية اسمها قدمكاه أى موضع القدم ، وسأذكرها
في الأوبة من مشهد . ثم اجتزنا بشريف آباد وعندها انعطفت الجادة
صوب الشرق فارتقينا جبلاً ضربنا فيها أربعين دقيقة ثم هبطنا إلى المشهد
المقدس ، فدخلناه بعد مغرب الشمس

افترق الركب فنزل جماعة بفندق هناك ، ونزل آخرون في دار أحد
الكبراء جليل بك نصير زاده ، وكنت وزميلي الأستاذ العبادي ممن
شرفوا بالنزول في هذه الدار المعمورة ، فلقينا من الحفاوة والرعاية ما لا ينسى

مدينة المشهد

في عام اثنين وتسعين ومائة سار هارون الرشيد إلى خراسان لحرب رافع بن الليث بن نصر بن سيار ، وكان قد ثار بخراسان وأعيان الولاية وفي صفر من سنة ثلاث وتسعين اشتد به المرض وهو بمرجان فسار عنها إلى طوس ، ونزل بضبعة اسمها سناباذ في دار الجنيد بن عبد الرحمن . فلما أحس أجله أمر خفروا له قبراً في بستان الدار ، وأمر جماعة فنزلوا فيه وقرأوا القرآن ، وتوفي نصف الليل ، ليلة السبت ثلاث خلون من جمادى الآخرة ، ودفن في القبر الذي أعده

وفي سنة ثلاث ومائتين كان الخليفة المأمون بن هارون قافلاً من خراسان يريد العراق ، وقد ثار عليه عمه ابراهيم بن المهدي . فلما بلغ سناباذ نزل عند قبر أبيه أياماً ، وكان معه عليّ الرضا بن موسى الكاظم ولحقه عهد فمات الرضا في ذلك المكان في شهر صفر ، فدفن إلى جانب الرشيد ، وفي هذا يقول دعبل بن علي الخزازي فيما يزعم الرواة :

قبران في طوس خير الناس كلهم وقبر شرهم هذا من العجب
اشهرت قرية سناباذ وسميت «سناباذ المشهد» ، ثم سُميت «المشهد» ، وبهذا الاسم ذكرها المقدسي . وسمّاها ابن بطوطة مدينة مشهد الرضا واتسعت المدينة ونسيت على مر الزمان مدينة «نوقان» التي كانت بجانب سناباذ وصار اسمها اسم محلة في المدينة الجديدة . ونافت مدينة المشهد مدينة طوس في أقاليم خراسان حتى أخلتها . ثم اختفت طوس حين حاصرها ميرانشاه ابن تيمور وفتحها فأحرقها عام ٧٩١

وقد لقيت المدينة من غير الزمان سعادة وشقاوة ، وتقلب بها أحوال مختلفة ، ولكن شأنها كان يزداد نباهة على مر العصور . وعُني عظماء المسلمين منذ القرن الرابع الهجرى بمشهد الرضا والمدينة التي نشأت حوله . قال ابن الأثير في أخبار السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى : « وجد عمارة المشهد بطوس ، وكان أبوه سبكتكين أخربه . وكان أهل طوس يؤذون من يزوره فمنعهم من ذلك . وكان سبب فعله أنه رأى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فى المنام وهو يقول له : إلى متى هذا ؟ فلم أنه يريد أمر المشهد فأمر بعمارتها . ثم بنى ابنه السلطان مسعود سوراً حول المشهد ليقية غارات القبائل المجاورة . وفى القرن السادس الهجرى استولى الغز على المدينة ونهبوها ولكنهم أبقوا على مشهد الرضا . وكذلك نهبت فى القرن الثامن فى عهد السلطان محمود غازان من الملوك الأيلخانيين

وأعظم الملوك عناية بالمشهد قبل عهد الصفويين السلطان شاهرخ ابن تيمورلنك (٨٠٩ — ٨٥٠) وزوجه جوهر شاد ؛ وسندكرها حين الكلام على مسجدتها العظيم

وكان عهد الصفويين عهد نماء وازدهار للمدينة ؛ فقد تنافس الملوك الصفويون فى تعمير المشهد وتجميله ، وتعمير المدنية كلها ، ولا سيما الشاه طهاسب الأول (٩٣٠ — ٩٤٨) والشاه عباس الكبير (٩٩٥ — ١٠٣٩) ولكن عناية الصفويين لم تكفها الغارات والنهب ، فقد غصبها أمراء الأوزبك والشييبانية ثلاث مرات على رغم الصفويين وسيطروا عليها أزمدة مختلفة . وكذلك استولى عليها الأفغان حينما استولوا على إيران . ثم جاء

البطل الكبير نادر شاه ، فأكثر الإقامة فيها واختط قبره بها ، وبني في المشهد الرضوى أبنية رائعة . ثم عادت إلى الأفغان حينما زلزلت دولة نادر شاه بتنازع خلفائه على العرش ، وتداولتها حوادث أخرى حتى استولى عليها آقا محمد خان القاجارى ، وقتل سلطانها شاهرخ الأفشارى في سنة ١٢١٠ . وفي العصر الأخير ثار بها على القاجاريين بعض الثائرين فتذرع الروس بهذا إلى الاستيلاء عليها ، فأطلقوا مدافعهم على المدينة في ٣٩ مارس ١٩١٢ م . وهى الآن تنال نصيبها من العمران والطمانينة السائدين في إيران اليوم .

والمدينة على ارتفاع ٩٣٠ متراً وطولها ٥٩ وعرضها ٣٦ ، فى وادى كشف رود (نهر كشف) الذى ينبع على عشرين كيلاً إلى الشمال الغربى من طوس ويسمى أحياناً آب مشهد (نهر مشهد) ويصب فى نهر هرة (هرى رود) على ١٥٠ كيلاً إلى الجنوب الشرقى من مشهد ، وتبعد المدينة عن شاطئه سبعة كيلات إلى الجنوب ويبلغ ارتفاع الجبال عندها ثلاثة آلاف متر ، فهى باردة الشتاء جيدة الهواء . ونهر كشف لا يسقى المدينة ، بل يأتىها الماء من عين اسمها چشمه كلاس عند منبع نهر كشف فى قنوات طولها ٣٤ كيلاً جرّها إليها الوزير الكبير ، والأديب العظيم ، والشاعر المفلق على شير نوائى وزير السلطان حسين بن منصور بن بايقرا من أحفاد تيمور لنگ (المتوفى سنة ٥٩١٢ هـ) .

ومشهد أكبر مدن خراسان اليوم ، وتسمى أحياناً خراسان . وسكانها زهاء سبعين ألفاً وتجارها رائجة . ولكنها ليست كعندها الأول ، فقد

كانت ملتقى طرق القوافل قبل أن يستولى الروس على التركستان وينشئوا
سكة الحديد القزوينية . وبالمدينة شارعان عظيمان مشجران يخترقانها .
وكان بها في عهد نادرشاد ٦٠ ألف دار وسكانها الآن زهاء ٨٠ ألفاً .
وهي كثيرة المساجد والمدارس بها زهاء عشرين مدرسة للعلوم الدينية ،
أقدمها المدرسة التي أسسها شاهرخ في سنة ٨٢٣ ويقصدها الطلاب من
أرجاء إيران ومن أفغانستان والهند ، فيحصلون العلوم الدينية بها تسع
سنين . ومن شاء أن يزدد علماً توجه إلى النجف الشريف

ويحج إلى المشهد كل عام آلاف كثيرة يختلف التقدير فيها من ثلاثين
ألفاً إلى مائة ألف . وبها مقابر كثيرة يحرص الشيعة على أن يدفنوا بها ،
فتنقل جثثهم إليها من الأقطار البعيدة ، وتختلف قيمة القبور بها على قدر
قربها من الحرم وبعدها

وهي عند علماء الشيعة في المنزلة السابعة بين الأماكن المقدسة مكة
فالمدينة فالنجف فكر بلاء فسامرا فالكاظمية فالمشهد . وفي رواية
أخرى أن الترتيب بعد كربلاء هكذا : الكاظمية فالمشهد فسامرا فهي
السادسة . ولكنها من حيث كثرة الزائرين واتساع المسجد وضخامته
تعدّ بعد مكة والمدينة وقبل المزارات الأخرى فيما أظن .

المشهد

يرى الوافد على مدينة المشهد قبة عالية مغطاة بالذهب ومنارتين
مذهبتين رفيعتين . فهذا أول ما يسرّ البصر من مسجد الإمام عليّ الرضا .

فإذا ذهب إلى المسجد الذي يسمى الحرم الرضوى أو العتبة المقدسة (آستانه مقدس) رأى أبنية جميلة شائخة واسعة رائعة لا يستطيع المشاهد أن يعرف خططها ويدرك أقسامها إلا بعد تأمل طويل وزيارات كثيرة إذا دخل القادم المدينة من غربها فسار في الشارع الكبير تلقاء الشرق انتهى إلى أبواب ضخام رائعات وراءها طريق مبلط ينتهى إلى مدخل الحرم الرضوى فيلججه إلى الصحن القديم (صحن كهنه) وهو فناء واسع تجرى في وسطه قناة ماء ويحيط به مساكن لطلاب العلم وغيرهم. وإني أشفق على القارئ من تفصيل الكلام في وصف هذا الحرم العظيم الذى توالى عليه الأيدي بالتشييد والتزيين قروناً كثيرة. فحسبى أن أقول أن في وسط الحرم قبة الإمام الرضا وأروقة متصلة بها. ويمتد الصحن القديم شمالى هذه الأبنية، والصحن الجديد شرقها، ومسجد جوهر شاد جنوبها. ويحار الطرف في جمال القبة الشريفة وزينتها وفيما في المسجد كله من الكاشانى والبلور والذهب الخالص. والقبة تقوم على قبر الإمام الرضا وهو في جانب منها، ويظن أن قبر هرون الرشيد في وسط القبة ولكن لا يرى الزائر منه أثراً

أقدم ما في هذه الأبنية يرجع إلى سنة ٥١٢ وهو بناء السلطان سنجر السلجوق وقد توالى الملوك والكبراء من بعده على البناء والتنافس فيه، ومن هؤلاء السلطان ألبايتو، من الملوك الإيلخانية وشاه رخ ابن تيمور لنك وزوجه جوهر شاد، وعلى شير نوائى وزير السلطان



الشهد

حسين بايقرا ، ثم الملوك الصفويون ولا سيما طهماسب وعباس الكبير ، ومن القاجاريين فتح علي شاه وناصر الدين شاه . كل هؤلاء بذلوا جهدهم في أن يؤثروا في المشهد الرضوى أثراً خالداً يكشف آثار من سبقهم فتركوا هذا البناء الجليل الذي يعجز القلم عن تصويره للقارى

وقد وعدت في المقال السابق أن أصف مسجد جوهر شاد هذه الأميرة النقية الخيرة ، فهو مسجد يمتد جنوبي المشهد الرضوى من الشمال إلى الجنوب (٩٥ × ٨٤ متراً) وأعظم أواوينه الايوان الجنوبي ، وهو عقد هائل ارتفاعه ٢٥ متراً غشي كله بالكاشاني الجميل وعلى حافته آيات من القرآن بأحرف كبيرة جميلة كتبها بخطه الأمير بايسنقر بن شاه رخ بن تيمورلنك . وذلك ، إلى آثار أخرى ، دليل على عناية أمراء المسلمين بالفنون الجميلة ولا سيما الخط .

وفي هذا الإيوان كرسي من الخشب يقال إن المهدي سيجلس عليه أول ما يظهر للناس ؛ وفي وسط المسجد مصلى يسمى مسجد بيرزن (مسجد المرأة العجوز) وفيما يلي المشهد الرضوى بنية اسمها دار الحفاظ ، وتصل المسجد بالمشهد الرضوى أبواب صغيرة

زرنا المسجد الرضوى صبيحة الجمعة ثالث رجب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف فرأينا أفواجا من الزائرين والزائرات متزاحمين بين مصلى ومستبح وداع وبالك ومقبل للأعتاب ومطيف بالضريح المقدس . ولهذا الحشر دوي يملأ القلب خشوعاً ورهبة . وسار بنا الدليل إلى بناء في ناحية

من الحرم اسمه حجرة التشريفات ، فصعدنا إلى حجرة كبيرة بها جماعة من القوام على الحرم فأحسنوا لقاءنا وقدموا إلينا الشاي ، وتحدثوا معنا بالعربية والفارسية معلنين سرورهم واغبتابهم ، متحدثين عن الأخوة الإسلامية التي تجمعنا وإياهم . ثم انصرفنا شاكرين آملين أن نعود إلى شرف الزيارة مرات حتى تقضى النفس لباتها من مشاهدة هذا الجلال والجلال

ويوم الأحد التالى زرت المكتبة الرضوية وهى فى الصحن الجديد فى الطبقة الثانية ، وقد اطلعت فيها على مصاحف يحار الإنسان فى مرآها ويعجز عن وصفها . وحدثنى قيم المكتبة أن بها آلافاً عدة من المصاحف المخطوطة : رأيت قطعة من مصحف بخط كوفى آخرها : « كتبه على بن أبى طالب » ، ومصحفاً كاملاً بخط كوفى فى آخره : « كتبه الحسن بن على ابن أبى طالب » ، ورأيت مصحفاً وقفه ابرهيم قطب شاه سنة ٩٧٠ فيه ٣٣٩ ورقة ، وفى كل صفحة ١٢ سطراً بحالة بالذهب والمينا ، وطول الصفحة ٥٦ قيراطاً وعرضها ٣٧ ، وفيه من بدائع الصناعة ما يجلب عن الوصف ، فما يزال الناظر فيه حائر القلب والطرف . ومصحف آخر وقفه السيد محمد جعفر خان سنة ١١٤٨ فيه ٦٠٦ ورقات كل ورقة لها نقش خاص يخالف نقش الورقات الأخرى وفى هذه المصاحف من عجائب النقش والوراقة والتجليد ما لا يدركه إلا الرأى ، وقد قيل لى أن بعض الأوربيين بذل فى جلد مصحف منها مئات الجنيهات فلم يظفر به . ورأيت ورقة

واحدة من مصحف في طول قامة الرجل الطوال ، وبها سبعة أسطر بخط الأمير بایسنقر .

وقد شهدنا في مدينة المشهد افتتاح مستشفى الشاه رضا . وهو مستشفى كبير مجهز بأجهزة حديثة . وشهدنا معرض صناعات خراسان ؛ ورأينا ألعاباً رياضية كالتي رأيناها في ميدان سلطنة آباد بطهران وقد وصفتها آنفاً ، وكانت حفلات للغداء والعشاء دعا إليها رئيس الوزراء ومتولى الحرم الرضوى ألقى فيها خطب كثيرة . وزرنا مدفن نادرشاه ، وهو البطل الكبير الذي رفعت همة من رعى الغنم إلى رعاية الأمم ، والذي أخرج الأفغانيين من إيران ، ودبر الأمور باسم الصفويين حيناً ، ثم استبد بالأمر وتسمى نادر شاه ، ثم فتح أفغانستان والبنجاب وغنم كنوزاً لا تحصى من دهلي ، واضطر الدولة العثمانية إلى مصالحته على ما أراد لدولته ، وتوفي سنة ١١٦ بعد أن سيطر على إيران عشرين سنة — دخلنا حديقة واسعة في وسطها بناء مرتفع قليلاً يشتمل على حجرات عدة ، دخلنا واحدة منها فقبل هنا دفن نادر شاه وسيدشاد له قبر

طوس

على خمسة وعشرين كيلاً إلى الشمال من مشهد ، آثار المدينة الكبيرة التي كانت من أعظم مدن خراسان ، والتي نشأت جماعة من كبار العلماء والأدباء : مدينة طوس . وطوس اسم إقليم في خراسان كان فيه مدينتان

كبيرتان : طابران ونوقان . فأما طابران فقد اتسعت ونهت حتى سميت طوسا باسم الأقليم كله ، وبقي اسم طابران على إحدى محلاتها . وأما نوقان فكان على مقربة منها قرية سنا باز التي دفن فيها الرشيد العباسي والرضا العلوي فتمت حتى صارت مدينة المشهد الحاضرة واتصلت بأبنيتها بنوقان . ونسخت اسمها . وقد اشتبه أمر طوس ونوقان على بعض الجغرافيين فقالوا أن مدينة طوس مدينتان : طابران ونوقان . قال ياقوت عن طوس : « وهي مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ تشتمل على بلدين يقال لإحدهما (طابران) وللأخرى (نوقان) » والحق أن لأقليم طوس مدينتين كبيرتين هما طابران التي سميت طوسا ونوقان التي اندمجت في مشهد كما قدمت . وكان لطوس شأن في التاريخ الإسلامي ، تقلبت بها الغيرة حتى أخرجها ميرانشاه ابن تيمور لنك سنة ٧٩١ هـ . وينسب إلى مدينة طوس الإمام الغزالي ، ونصير الدين الطوسي ، وغيرهما من العلماء . وقد مات الغزالي بها ودفن بالطابران إحدى محلاتها ، رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ ، ورثاه الأبيوردي فقال :

بكى على حجة الإسلام حين ثوى	من كل حي عظيم القدر أشرفه
وما لمن يمتري في الله عبرته	على أبي حامد لاح يعنفه
تلك الرزية تستهوى قوى جلدي	والطرف تسهره والدمع تنزفه
فما له خلة في الزهد منكرة	ولا له شبه في الخلق نعرفه
مضى ، وأعظم مفقود فجعت به	من لا نظير له في الخلق يخلفه

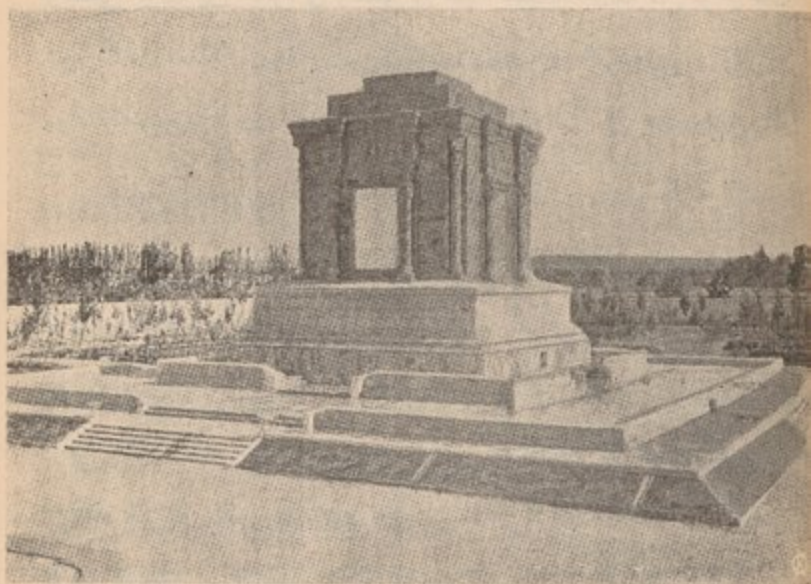
وينسب إلى طوس كذلك الشاعر الفارسي « أبو القاسم الفردوسي » صاحب الشاهنامه المتوفى سنة ٤١١ . وبها مات ودفن على مقربة من باب رزان أحد أبواب المدينة ، في سورها الشمالى الشرقى .

وقد زار نظامى المروض قبر الفردوسى سنة ٥١٠ وقال : « وكان داخل الباب بستان للفردوسى فدفن فيه وهو اليوم هناك » . وقال دولتشاه السمرقندى سنة ٨٩٣ : « وقبره فى طوس بجانب مزار العباسية وممرقه الشريف معروف اليوم يزوره الناس » . ويقول القاضى نور الله فى أواخر القرن العاشر الهجرى أنه زار قبر الفردوسى .

وقد زآه بعض سياحى أوربا ، أوائل القرن التاسع عشر الميلادى . وقال خانيكوف سنة ١٨٥٨ : إن البناء الصغير الذى كان يميز قبر الفردوسى قد اندثر .

وقد اجتهد أدباء إيران حتى عرفوا بالقرائن ، مكان القبر فشادت الدولة عليه بناء نفخاً يرى القارى صورته تحت هذا .

سرنا إلى طوس عشية يوم الجمعة ثالث شهر رجب : (١٢ أكتوبر سنة ٩٣٥ — ٢٠ مهرماه سنة ١٣١٣) فبلغناها بعد نصف ساعة . فلما إلى الشرق ، واجتزنا نهر كشف فى جادة واسعة تفضى إلى حديقة الفردوس ، فرأينا بستاناً كبيراً يتوسطه حوض واسع ، وراءه بناية جميلة رائعة . وهى مصطبة واسعة مربعة يتوسطها بناء مربع القاعدة يرتفع زهاء أربعة أمتار كتب على أربعة أوجهه أبيات من الشاهنامه ، وزيد على الوجه الأول



قبر الفردوسی

كتابة تبين عن عناية جلالة الشاه رضا بهلوى بالفردوسى ، وأمره بتشيد البناء فى التاريخ المبين به .

وللبناء باب صغير على جانبه نقوش تمثل حوادث فى الشاهنامه .
ويفضى الباب إلى حجرة فى وسطها قبر عليه صفيحة مربعة من المرمر نحت فيها كلمات معناها أن أدلة كثيرة تثبت أن هنا قبر الفردوسى ، وتاريخ مولد الشاعر ووفاته . وفى الجدار المقابل للباب كوة والبناء فى جلته جميل رائع جلسنا فى سرادق ضرب هنالك ، فلما اقترب مقدم جلالة الشاه ، سرنا إلى النصب فوقفنا على سجاجيد فرشت بين الحوض والبناء ؛ وقف الوفود وحدهم ، وأعيان الإيرانيين وحدهم . ثم أقبل جلالة الشاه ، فسلم على الوافدين واحداً واحداً ، يعرفه بهم رئيس الوزراء ووزير المعارف . ثم ارتقى جلالة الشاه النصب ، ووقف يقرأ كلمة افتتاح تذكّر الفردوسى . ثم قطع بمقراض الشريط المحيط بالنصب ودخل فرأى قبر الشاعر . ثم دعى الوفود فدخلوا . ثم وقف جلالة الشاه فى ناحية من الحديقة يتحدث مع وزرائه ، ثم ركب سيارته . وبقينا زمناً نمتع العين بما نرى ، ونأخذ بأطراف الحديث .

ورأيت على يسار الجادة المفضية إلى حديقة الفردوسى بناء له قبة قد تهدمت أعاليه . فقال من كان معنا من أهل مشهد أنه قصر بناه الرشيد وقال بعض المستشرقين أنه قبر الغزالى ، وأنه بنى على نسق مرقد السلطان

سنجرفى مرو ، وعلى نسقه بُنى مرقد السلطان أجايتوفى السلطانية .
وإنما العلم عند الله .

رجعنا إلى مشهد فبقينا إلى صبيحة الإثنين . ثم أخذنا طريقنا عوداً
إلى طهران .

من طوس إلى طهران

برحنا المشهد عائدين إلى طهران والساعة عشر إلا ربعا من صباح
يوم الإثنين سادس رجب (١٥ أكتوبر) . فمررنا بقرية اسمها قدمكاه :
(موضع القدم) . وقد ذكرتها فى سيرنا من نيسابور إلى مشهد ، وأرجأت
الكلام عنها إلى الإياب إذ لم نعرّج عليها فى الذهاب .

وقفت السيارة فنزلنا وملنا ذات اليسار . فدخلنا ساحة بين جدارين
فيها طاقات لا أبواب لها . بناها بعض السلاطين لياوى إليها المسافرين .
ثم صعدنا إلى مستوى ينحدر منه مجرى ماء . فانتبهنا إلى شجرات عادية
بجانبيها حجرة كبيرة . ولقينا قِمْ المكان فقال أنا كشيش قدمكاه : قلنا
يا صاح إن الكشيش رجل الكنيسة وأنت رجل مسلم . فقال : أنا خادم
القدم المبارك . ولجنا الباب فرأينا على يسارنا بنية فيها حجر بركانى أسود
فيه أثر قدم . قال : دليلنا هذا قدم الإمام على الرضا . ثم خرج بنا إلى
حجرة أخرى فى وسطها بركة صغيرة مستديرة بها ماء صاف يشف عن
سمكات صغيرات يجلن بين سطحه والقاع . قال : هذه عين الإمام الرضا

فاشربوا. فغسلنا أيدينا داعين منشدين: وعين الرضا عن كل عيب كلية.
نزلنا سائرين إلى الجادة فشربنا الشاي وقوفاً ، واستأنفنا المسير إلى
نيسابور . ونزلنا في الخيام التي ضربت لنا من قبل عند قبر عمر الخيام .
فاسترحنا وطعمنا .

خرجنا من نيسابور والساعة ثلاث بعد الظهر ، فوردنا سبزوار ستاً
إلا ثلثاً ، فأويننا إلى النزل الذي وصفته من قبل . وبعد العشاء اجتمع
بعضنا في حجرة الأستاذ العلامة كوبريلي زاده محمد فؤاد مندوب الحكومة
التركية . وجاء مغنون من أهل القرية فغنوا من رباعيات الخيام وغيرها
ضارين على التار (آلة تشبه العود) . فطربنا لهذا الغناء وهذا المجلس
الذي جلس فيه علماء من أم شتى دون ترتيب ولا تكلف ، بعضهم
على السرر والآخرين على الأرض، فأخذنا نوقع بأيدينا على نغمات التار .
ولا أنسى الأستاذ كريستنسون الدانمركي ، وقد مدّ رجله وأمسك عود
الدخان (البببة) بفمه ونشط للصفق على أنغام الموسيقى .

برحنا سبزوار والساعة تسع ونصف فبلغنا داورزن بعد ساعة ونصف
ونزلنا بها منزلنا الأول فاسترحنا وتغدينا . ثم فارقناها والساعة واحدة
ونصف نؤم شاهرود ، وكان بردها لا يزال عالقاً بي . فقلت لأصحابي :
سأترك في شاهرود العلة التي أخذتها منها . قال الأديب رشيد الياسمي :
إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . وبعد ساعة وقفنا على قرية
إسمها عباس آباد . فجاء شبان يعرضون علينا من صنعة القرية مسابح

وأزراراً وأشياء أخرى مصنوعة من حجر أزرق ضارب إلى السواد فاشترينا منها للذكرى . ثم سرنا فمررنا بزَيْدٍ فَنَزَلْنَا بِهَا رُبْعَ سَاعَةٍ فَشَرَبْنَا الشاي عند شجيرات وقناة هناك، وأسرعنا المسير لينسنى لنا أن نعرّج على بسطام فنزور أبا يزيد قبل الغروب . فاختلّت سيارتنا على مقربة من شاهرود ، وذهبت فضلة الوقت في إصلاحها . فاضطررنا أن نعدل عن بسطام إلى شاهرود . فوردناها بعد المغرب ونزلنا في دارين داخل البلد استبدلتنا بالدار التي بظاهر البلد بعد الذي أصابنا من بردها في الطريق إلى المشهد . وبكرت أنا والأستاذ عبد الحميد العبادي ، والأديب أحمد الصراف آملين أن نزور بسطام ونرجع قبل أن يتأهب أصحابنا للسفر . فازلنا ننتظر سيارتنا حتى فقدنا الرجاء في زيارة أبي يزيد . فسرنا مع الركب آسفين مرسلين للشيخ الصوفي تحيئنا على البعد

سرنا من شاهرود والساعة سبع ونصف من صباح الأربعاء مزعمين أن نبلغ طهران عشية اليوم . وبين شاهرود وطهران أربع مائة كيل وثلاثة . وردنا دامغان بعد ساعة ، فرأينا أن نتلبث بها لنرى بعض مشاهدتها ، ولم نكن وقفنا بها في ذهابنا إلى المشهد .

كانت دامغان مدينة قومس ، وهي اليوم من ولاية طبرستان وتبعد ٦٤ كيلاً من استر آباد جنوبي جبال البرز ، على حدود العراق العجمي وخراسان . ويقال إنها في موضع مدينة هَكْتَمَبِيلِس إحدى المدن العظيمة

في مملكة الاشكانيين القديمة ، وأن اسكندر المقدوني أدرك دارا الثالث قتيلا على مقربة منها

قال ياقوت راوياً عن مسعر بن مهلهل : « الدامغان مدينة كثيرة الفواكه ، وفاكهتها نهاية ، والرياح لا تنقطع بها ليلاً ونهاراً ، وبها مقسم للماء كسروى عجيب يخرج مأوّه من مغارة في الجبل ثم ينقسم إذا انحدر منه على مائة وعشرين قصباً مائة وعشرين رستاقاً لا يزيد قسم على صاحبه ، ولا يمكن تأليفه على غير هذه القسمة وهو مستطرف جداً ما رأيت في سائر البلدان مثله ولا شاهدت أحسن منه » .

قال ياقوت : « قلت أنا جئت إلى هذه المدينة في سنة ٦١٣ . مجتازاً بها إلى خراسان ، ولم أرفيها شيئاً مما ذكره لأنني لم أقم بها » .
وأنا أقول قول ياقوت ، وأزيد أن مقسم هذه المياه تهدم أبان الغارة الأفغانية فيما يقال :

وإلى الشمال الشرقى من المدينة ينبوع عظيم يسمى جشمه على (ينبوع على) يزوره الناس ، ويزعمون أنه يفيض على حجرة به أثر من حافر فرس الرسول صلوات الله عليه . وقد بنى حوله فتح على شاه سنة ١٢١٧ .
وقال ياقوت : « وبينها وبين كردكوه قلعة الملاحدة يوم واحد ، والواقف بالدامغان يراها في وسط الجبال » .

سألنا عن الآثار الساسانية التي بدامغان فقليل لنا أنها بعيدة عن البلد وطريقها غير معبّدة ، وهي ليست ذات خطر . ثم هدينا إلى بناء إسلامي

قديم ، فدخلنا إلى فناء فيه قبور لاطئة بالأرض ، ينتهى إلى حجرة كبيرة في وسطها قبر كبير عليه سياج من الخشب ، وعليه كتابة قديمة كثيرة . وإلى يسار الداخل قبر صغير لا سياج له . فأما الضريح فقليل أنه لأحد أبناء الأئمة العلويين ، وأما الذى إلى يسار الداخل فقليل أنه لشاهرخ ، ورأينا حجرة أخرى مغلقة كتب عليها : أمر بعمارة هذا البناء شاهرخ . وقد ظننت أنه شاهرخ بن تيمورلنك ، وعجبت كيف دفن هنا وقد مات فى الرى ثم تذكرت شاهرخ حفيد الملك نادرشاه ، الذى أسره أغا محمد القاجارى فى دامغان ، وما زال يعذبه ليسلم إليه خزان جده نادرشاه حتى مات سنة ١٢١١ . فقلت هذا قبر الأمير الضرير المنكود الطالع .

بلغنا سمنان والساعة إحدى عشر وربع فنزلنا منزلنا الأول فى المصنع الذى بظاهر البلد . وقلت للأستاذ العبادى لا يفوتنا اليوم أن نرى مسجد الجمعة فى سمنان . فقلنا للأديب سيف آزاد صاحب مجلة « إيران باستان » فرافقنا ، وصحبنا فى الطريق أحد ضباط الشرطة ، ودخلنا من باب كبير تزينه نقوش وتماثيل وكتابة فيها اسم ناصر الدين شاه إلى طريق على جانبها أبنية للجند ، وخرجنا من باب آخر فسرنا فى شارع مشجر وأزقة ضيقة . ثم ترجلنا وتركنا السيارة ، وتخللنا الطرق حتى انتهينا إلى مسجد صغير جميل ، فرأينا فيما عليه من كتابة اسم الشاه طهماسب الصفوى .

ثم ذهبنا إلى مسجد الجمعة وهو قديم عظيم ، وأقدم ما فيه منارته . وهى فيما يظهر بقية مسجد كبير بناه السلاجقة ثم هدمه التتار فأقيم المسجد

الحاضر على جانب من عرصته ثم زاد فيه إيواناً كبيراً أحد وزراء السلطان
شاهرخ بن تيمورلنك سنة ٨٢٨ .

وخرجنا من مسجد الجمعة فمشينا في سوق طويلة مستقيمة تنبئ بعظم
المدينة في الماضي . وقد أنشدني الأديب سيف آزاد في مسجد سمنان بيتاً
معناه :

« وأسفا على المسجد الذي في سمنان ، إنه يوسف في السجن ^(١) »
اجتمعنا على الغداء في سمنان ، ونحن نعلم أن الركب سيتفرق في طهران
فلا يجتمع . فتكلم بعض الوافدين شاكرًا لحكومة إيران ، والموظفين الذين
رافقونا في مسيرنا إلى طوس وإيابنا . وأجاب السيد ابتهاج ، والأديب
رشيد الياسمي ، معربين عن سرورهم وافتخارهم بمصاحبة الضيوف ... الخ
وأرسلنا برقية إلى وزير المعارف تبلغه والحكومة الإيرانية شكرنا . وكان
الوزير قد تخلف في المشهد هو والوزراء الآخرون ليصحبوا جلالة الشاه
في سفره إلى جرجان

ركبنا السيارات والساعة اثنتان وربع بعد الظهر ، فجدبنا المسير حتى
نزلنا في فيروزكوه فاسترحنا وشربنا الشاي في مطعم هناك . ثم ركبنا فمارلنا
في فيروزكوه (جبل فيروز) قمه وشعابه ووديانه حتى عيل الصبر ، وأظلم
الليل ، ورهقنا الأعياء . ثم دخلنا طهران والساعة ثمان من المساء فأوينا
إلى الفندق بشقّ الأنفس .

(١) حيف بر مسجد که در سمنان بود ، يوسف حسنی که در زندان بود

طهران إلى قم وأصبهان

أوى الركب إلى الفندق متعباً ، وجمعت التعب والمرض ، وكان وزير المعارف والعلامة بديع الزمان قد كلماني والأستاذ العبادي في إلقاء محاضرة في مدرسة سبهرسار بعد الإياب من مشهد ، فعدنا إلي طهران وإذا رفاع الدعوة قد أرسلت وإذا الجرائد تخبر بأن سألني محاضرة في مدرسة سبهرسار والساعة ست من يوم الخميس . فأصبحت في شغل من هذا الأمر أجهد للوفاء بالوعد ، فإذا جسم عليل وصوت مبحوح ، فكلمت الأستاذ البديع معتذراً . فجاء إلي الفندق هو ورئيس المدرسة ، وطلبا من الأستاذ العبادي أن يقول كلمة ، فوعدها . ووعدتهما أن أكون طوع أمرهما إن رزقت العافية ، وإلا أرسلت كلمة تقرأ على الحاضرين^(١) . فلما دنا الموعد أجاب الأستاذ العبادي الدعوة وأرسلت كلمتي مع السيد صالح الشهرستاني مكاتب البلاغ في طهران ، فقرأها على الجميع . وكان موضوعها موقف المسلمين من مدينة أوربا ، وما يلزمهم من الاستمسك بسننهم ، وأخذ الحذر أن يفتنوا فيقلدوا فيضلوا . وتكلم الأستاذ العبادي في العلائق التاريخية بين مصر

(١) لما بلغت بالكتابة هذا الموضوع دق التليفون فقلت من ؟ قال : السندباد . والسندباد اسم سميت به السائح المسلم الهمام محمود بشير المغربي الذي صحبنا في إسفارنا بإيران وتغلف عنا في طهران . فقلت : أهلا وسهلا بالسندباد البري . فقال : والبحري والهوائي وأحسب السندباد سيطوف العالم قبل أن أتنهى من كتابة رحلتي بين القاهرة وطوس

وإيران . وقد قرأت في الجرائد الإيرانية بعد العودة إلى مصر وصف الاحتفال وترجمة الكلمتين ، وخطبة الأستاذ بديع الزمان في مكانة اللغة العربية بين الفرس . وقد نشرت جريدة البلاغ الخطب الثلاث . كما نشرت بياناً وافيّاً عن حفلات الفردوسى كلها .

وكان في خطة وفود الفردوسى الذهاب إلى أطلال مدينة الرى ، وهي على مقربة من طهران . فتخلفت مكرها أسفاً . ويوم الجمعة جلنا في المدينة فاشترينا من الكتب والاسطوانات (والإيرانيون يسمونها الصفحات . وهي تسمية أقرب إلى الحقيقة واللغة) ، وزرنا المفوضية المصرية مودعين ثم خرجنا إلى دار على أصفر خان المعروف في طهران باسم المصرى ، وهو أخو حسن بك اليزدى التاجر الكبير بالقاهرة . وكان يحتفل بختان أنجاله فجلسنا في جماعة من الفضلاء ، واستمعنا للمرة الثانية إلى غناء المطربة ملوك خانم ، واقترحت أن نسمعنا الأغنية المطرية « مرغ سحر ناله سر كن » لنودع طهران على هذه النغمات الحزينة . ثم تحدثت المغنية : فإذا هي تعرف أم كلثوم ، ومحمد عبد الوهاب ، وتدلي برأيها بينهما ، فقلنا هذا كلام ملوك قالت نعم : وكلام الملوك ملوك الكلام . فانظر كيف يعنى الإيرانيون نساء ورجالاً باللغة العربية عناية آبائهم من قبل . ثم استأذنا في القيام لناخذ أهبتنا للسفر الباكرك صباح الغد .

برحنا طهران والساعة عشر من صباح السبت حادى عشر رجب (٢٠ أكتوبر) أنا والأستاذ العبادى في سيارة مفردة ، وهو أول سفر لنا

في إيران منفصلين عن وفود الفردوسى ؛ سافر جماعة من طريق الشمال ، وآخرون أخذوا طريق بغداد أدراجهم ، وجماعة آثروا المقام في طهران يوماً أو يومين ، وكانت نيتنا أصهبان وبينها وبين طهران تسع ساعات بالسيارة . وقد تقدمنا بمدة يسيرة الشاعر الإنكليزى درنك ووتر وقفنا بعد أربعين دقيقة على قرية ، فرئيت جوازات السفر . وكذلك طلبت الجوازات في كل مدينة مررنا بها ، حين ندخلها وحين نخرج منها حتى رجعنا إلى همذان على طريقنا الأولى من بغداد إلى طهران . وذلك أن هذه الطريق كانت طريق الوفود في ذهابهم وإيابهم فيستر لهم السير وأعفوا من مراسم السفر في إيران

وبعد الظهر بقليل نزلنا في محطة على الطريق اسمها منظرية فدخلنا بستاناً فيه أشجار رمان فأكلنا واسترحنا ساعة ، ثم سرنا حتى بلغنا مدينة قم والساعة اثنتان وثلاث . فدخلنا ونحن نذكر قصة الصاحب بن عباد وقاضى قم . كتب إليه الصاحب :

أيها القاضي بقم قد عزلناك فقم

فكان القاضي يقول إذا سئل عن سبب عزله : أنا معزول السجع

من غير جرم ولا سبب

قم مدينة في العراق العجمى على الجاده بين طهران وأصهبان وعلى ١٢٠ كيلا إلى الجنوب الغربى من طهران . يشقها نهر يأتى من جرباذقان قرب همذان . وفاكهتها كثيرة منها الرمان والتين والبطيخ والفسق

قال ياقوت : « وهى مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها ، وأول من مضرها طلحة بن الأحوص الأشعرى » وذلك فى عهد الحجاج ابن يوسف . والظاهر أنها قديمة كانت قبل الإسلام ، ثم عمرت فى الإسلام ومضرت . وقد قال دعبل بن على فيها :

تلاشى أهل قم واضمحلوا تحل الخزيات بحيث حلوا
وكانوا شيدوا فى الفقر مجدداً فلما جاءت الأموال ملوا

ظلت بقم مطيتى يعتادها هان : غربتها وبعد المدلج
ما بين عالج قد تعرب فانتفى أو بين آخر معرب مستعلاج

وأهلها عرفوا بالتشدد فى التشيع قبل أن يعم التشيع إيران ؛ وقد روى ياقوت فى ذلك حكاية ظريفة قال : « ومن ظريف ما يحكى أنه ولّى عليهم وال ، وكان سنياً متشدداً . فبلغه عنهم أنهم لبغضهم الصحابة الكرام لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر قط ولا عمر . فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم : بلغنى أنكم تبغضون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنكم لبغضكم إياهم لا تسمون أولادكم بأسمائهم . وأنا أقسم بالله العظيم إن لم تجيئوني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ، ويثبت عندى أنه اسمه لأفعلن بكم . ولأصنعن . فاستمهلوه ثلاثة أيام ، وقتشوا مدينتهم واجتهدوا فلم يروا إلا رجلاً صعلوكاً حافياً عارياً أحول أقبح خلق الله منظرًا ، اسمه أبو بكر لأن أباه كان غريباً استوطنها فسماه بذلك . فجاؤا به فشتهم وقال : جئتمونى

بأقبح خلق الله تتنادرون على وأمر بصفعهم : فقال له بعض ظرفائهم :
أيها الأمير اصنع ما شئت فإن هواء قم لا يجيء منه من اسمه أبو بكر
أحسن صورة من هذا . فغلبه الضحك وعفا عنهم »

وقم تلى المشهد الرضوى بين مزارات الشيعة في إيران ؛ بها حرم
السيدة فاطمة بنت موسى الكاظم وأخت على الرضا . ولذلك دفن فيها
كثير من العلماء والصالحين والملوك . وقد روى الشيعة فيها عن جعفر الصادق :
ألا أن لله حرماً وهو مكة . ألا أن لرسول الله حرماً وهو المدينة .
ألا أن لأمر المؤمنين حرماً وهو الكوفة ، ألا أن حرمى وحرم ولدى
من بعدى قم . ألا أن قم الكوفة الصغيرة . ألا أن للجنة ثمانية أبواب
ثلاثة منها إلى قم تقضى امرأة هي من ولدى واسمها فاطمة بنت موسى .
ويدخل بشفاعتها شيعتى الجنة بأجمعهم » اهـ

لما اقتربنا من المدينة رأينا قبة المعصومة أخت الرضا تبص في الهواء
في حلقتها الذهبية . ولما دخلنا المدينة وقفنا على مخفر الشرطة فرأوا جوازات
السفر . وقال سائق السيارة لشرطى : هذان من المستشرقين يريدان زيارة
الحرم فاصحبهما . فسار الشرطى أمامنا في رحبة تملؤها أنقاض دور مهدمة ،
وبصرنا بنهر صغير سريع الجرية . قال الشرطى : طغى الماء على المدينة منذ
أشهر نخرت مئات من دورها . ثم عبرنا الماء على خشبات ممدودة عليه فرأينا
ماء ضحضا خا يخوض فيه الناس والدواب . وسرنا في شارع به دكاكين
وفنادق صغيرة ، فاتهبنا إلى باب المسجد . رأينا صحفاً رحباً ينتهى إلى بناء

عال مقبب . ولقينا شيخ فتقدمنا فدخلنا إلى مرقد السيدة فاطمة . وهو خريج كبير عليه سياج من الفضة كثير الحلى . فوقف الشيخ يدعو بالعربية دعاء طويلاً ذكر فيه الأئمة العلويين . ثم ملنا ذات اليسار إلى حجرة بها قبر كبير مربع لا سياج له ولا زينة . قال هذا قبر الشاه عباس . ثم ولجنا باباً إلى حجرة أخرى بها قبران أحدهما للشاه حسين آخر الصفويين . والآخر للشاه طهماسب ، فيما أذكر . فهؤلاء ثلاثة من الملوك الصفويين دفنوا في جوار المعصومة . ثم خرجنا إلى الصحن فرأينا حجرات فيها قبور ملوك القاجاريين وبنهم ؛ رأينا فيها قبر محمد قاجار وفتحلى شاه وعليهما صفيحتان من المرمر الشفاف عليهما صور ملائكة ذات أجنحة ، وعلى قبر فتحلى صورته منحوتة في المرمر . وقد رأينا من قبل في النجف الأشرف في مسجد الإمام علي قبراً آخر للقاجاريين على هذه الشاكلة

ولست أعرف في القبور الإسلامية قبوراً عليها صور غير هذه القبور . وسرنا إلى يسار الداخل إلى الصحن فإذا باب يفضى إلى صحن آخر فسيح . وهذا المسجد معهد للدراسة الدينية يقيم به الطلاب

قال الشرطى وهو يحدثنا : فى قم أربعة وأربعون وأربعمائة وأربعة آلاف من بنى الأئمة الطاهرين قتلهم الظالمون . ركبنا السيارة والساعة ثلاث وعشر نسير صوب الجنوب نؤم أصبهان

اسمذراك :

١ — نسبت أن أذكر في حديثي عن مدينة المشهد أني زرت فيها قبر الشيخ الكبير بهاء الدين العاملي الهمداني أحد أعلام المسلمين في القرن الحادي عشر وصاحب المؤلفات الكثيرة في التفسير والحديث والعلوم العربية والفلك والحساب . دخل مصر وألف بها كتاب الكشكول وقال فيها :

يا مصر سقياً لك من جنة قطوفها يانعة دانية
تراها كالتبر في لطفه وماؤها كالفضة الصافية الخ
توفي بأصفهان سنة إحدى وثلاثين وألف ، ونقل إلى المشهد فدفن بها في داره . وقبره اليوم في حجرة في السوق قريبة من أحد أبواب مسجد الإمام الرضا

٢ — كان طبيب قافلتنا في الذهاب من طهران إلى المشهد والاياب ، الطبيب الحاذق نجم الدين آبادي ، وقد عني بي وبغيري ممن توقعوا في السفر . فكان حقاً على أن أذكره بالثناء ، وقد جاء إلى ونحن بنيسابور عند قبر الخيام فقال اكتب لي في دفتری تذكاراً . فكتبت :

قد عراني على الطريق سقام ولنعم الطبيب نجم آبادي
قد نعمنا بخلقـه ودواه وشكرنا له جميل الأيادي

أصفهان « نصف جهان »^(١)

خرجنا من قمّ والساعة ثلاث بعد الظهر ، سائرين إلى الجنوب تلقائياً
أصفهان . وبين قم وأصفهان ٢٨٢ كيلا . فما زلنا نضرب في سهوب مترامية
تعمرها قرى قليلة ، حتى قطعنا ٩٢ كيلا في ساعتين ، فبلغنا قرية دليجان
وهي قرية كبيرة على الجادة يبدو عليها الفقر ، ويوتها كغيرها من قرى
إيران ، مسنمة السقوف ، مطينة الجدر . وقفنا في القرية على بناء كتب
عليه بالإنكليزية أنه مطعم ومشرب شاي . وهو طبقتان في كل واحدة
حجرتان ، وللطبقة العالية سلم من اللين يهبط إلى الطريق

دخلنا فقدم لنا الشاي والبطيخ ، واسترحنا قليلا . ثم ركبنا سيارتنا
وقد كادت الشمس تغرب . قلنا : كم بيننا وبين أصفهان ؟ قيل أربع
ساعات . وبين دليجان وأصفهان ١٩٠ كيلا . وقال سائق السيارة لصاحب
المطعم سنمرّ بك بعد غد فهيّ لنا دجاجة وحساء ، قال نعم وكل ما تشتهون
ضربنا في أرض بلقع يتخللها عمران قليل ، حتى بلغنا بلداً اسمه
شاه عباس ، بينه وبين أصفهان خمس وعشرون دقيقة بالسيارة ، فتغير
مرأى الأرض ، وبدت لنا الأشجار والزروع والمياه . وما زلنا في أرض
مخصصة محضرة حتى دخلنا المدينة والساعة تسع وخمس دقائق من مساء
السبت حادى عشر رجب (٢٠ أكتوبر)

(١) يقول الفرس أصفهان نصف جهان . أى أصفهان نصف العالم

أصفهان : مدينة العراق العجمى ، على ٤٣١ كيلا إلى الجنوب من طهران ، وعرضها ٣٢ درجة وطولها ٤٩ وارتفاعها ١٣٤٤ . وهى فى سهل واسع خصب ، حسن الهواء كثير الماء والشجر ؛ قال ياقوت : « وكانت مساحة أصفهان (أى الأقليم) ثمانين فرسخاً فى مثلها ، وهى ستة عشر رستاقاً كل رستاق ستون وثلاثمائة قرية قديمة سوى المحدثه » ولا ريب أن فى رواية ياقوت غلواً تابع فيه الأقوال الشائعة ، وقد قال هو عن أصفهان : « مدينة عظيمة مشهورة ، من أعلام المدن وأعيانها ، ويسرفون فى وصفها حتى يتجاوزوا حد الاقتصاد »

وقد أدى إلى إغراق الناس فى وصف أصفهان وأقليمها استبحار العمران هناك . وكثرة القرى ، والمياه والزرع . وقد حدثنى مهندس ألمانى فى مدينة أصفهان أن من بقاع أصفهان بقعة يسير فيها السائر خمسة عشر كيلا بين الأشجار

وينبت الأقليم القطن والتبغ والبطيخ وكثيراً من الفاكهة والمدينة على نهر زنده رود (النهر الحى) ، ويسمى اليوم زاینده رود (النهر الولود) ؛ حدثت أنه سمى بهذا لانبجاس مياهه من الأرض فى مواضع كثيرة . قال ياقوت : « زنده روز نهر مشهور عند أصفهان ، عليه قرى ومزارع ؛ وهو نهر عظيم أطيب مياه الأرض وأعذبها » وقال فى موضع آخر : وقد وصفه الشعراء فقال بعضهم :

لست آسى من أصفهان على شيء سوى مأبها الرحيق الزلال

ونسيم الصبا ومنخرق الريح وجو صاف على كل حال
ولها الزعفران والعسل الما ذى والصافات تحت الجلال
وكذلك قال الحجاج لبعض من ولاه أصبهان : قد وليتك بلدة
حجرها الكحل ، وذبابها النحل ، وحشيشها الزعفران .
وقال آخر :

لست آسى من أصبهان على شىء أبكى عليه عند رحيلى
غير ماء يكون بالمسجد الجا مع صاف مروق مبذول . اه
ولعل قول كل من هذين الشاعرين « لست آسى » لما تحدث به
القدماء من وصف أهل أصبهان بالبخل . وقد حكى عن صاحب بن عباد
أنه كان إذا أراد الدخول إلى أصبهان قال : من له حاجة فليسالنيها قبل
دخولى إلى أصبهان ، فإني إذا دخلتها وجدت بها فى نفسى شحاً لا أجده
فى غيرها . وقد روى ياقوت بيتين كتب فى بعض الخانات اتى فى طريق أصبهان :
قتبح السالكون فى طلب الرزق على أيدج إلى أصبهان
ليت من زارها فعاد إليها قد رماه الإله بالخذلان^(١)

وعلى نهر أصبهان اليوم ثلاث قناطر من عجائب الآثار ، أكبرها
قنطرة « الله ويردى خان » أحد قواد الشاه عباس ، وتسمى اليوم
« پل سى وسه جشمه » ، أى القنطرة ذات الثلاث والثلاثين عيناً .
وهى مبنية بالحجارة الضخمة ، تسير فوقها طريق واسعة لها جدران عالين .

(١) وأنا أعترف إلى الصديق ميرزا مهدى بك وإخواننا الأصهبانيين بمصر من
هذه الروايات فسحاؤهم بكفى لدحضها .

والنصف الأسفل من عيونها يسدّ بالخشب إذا أريد حبس الماء . وعلى جانبي العيون في قاع النهر سنادان من الحجر يسير عليهما الناس حين انخفاض الماء .

ومدينة أصفهان قديمة ذكرها بطليموس . وكانت ذات مكانة عظيمة قبل الإسلام ؛ ولم نزل في الإسلام معدودة من أمهات المدن الفارسية . وقد تقلبت بها غير كثيرة ، واهتمت بالسيطرة عليها كل الدول الإسلامية الشرقية ؛ فتولى أمرها السامانيون والبويهيون والغزنويون والسلاجقة . وكان السلطان ملكشاه السلجوقي يحب المقام بها . ولما سالت على المسلمين كوارث التتار ساروا إليها سنة ٦٢٥ فدفعهم عنها البطل العظيم جلال الدين خوارزمشاه . ولما كانت الدولة التيمورية ثار أهل أصفهان على الجبار تيمورلنك سنة ٧٩٠ فقتلهم حتى قيل إنه جمع سبعين ألف رأس فبنى بها أهراماً .

وأجد عهد أصفهان عهد الدولة الصفوية ، ولا تزال آثارها ناطقة بما كان لها من جلال وجمال في ظل هذه الدولة ، وقد بلغ سكانها في ذلك العهد ستمائة ألف . وكان بها ثمانية وثلاثون ألف دار ، واثنان وستون ومائة جامع ، وثمان وأربعون مدرسة ، وثلاث وسبعون ومائتا حمام ، وثمانمائة وألف خان (كاروانسراي) وكان محيطها فيما يقال أربعة وعشرين ميلاً . ولما أغار الأفغانيون على إيران وقضوا على الدولة الصفوية ؛ ثم صارت طهران دار الملك تناقص عمران المدينة ، ودالت دولتها . وسكانها اليوم

ثمانون ألفاً ، ومحيطها ميلان ، ولكن لها شأنًا عظيمًا في التجارة والصناعة .
دخلنا المدينة ليلاً فأوينا إلى فندق اسمه (فندق الفردوس) . وكان
يسمى الفندق الأمريكي . وهو في شارع واسع مشجر قديم يقال إن أشجاره
من عهد الشاه عباس الكبير ، وهو أعظم شوارع المدينة . وجاءنا بعد قليل
رئيس البلدية فخيانا وقال إنه يود أن تنزل داراً خاصة في ضيافة الحكومة
فشكرنا له وللحكومة هذه الحفاوة ، وآثرنا أن نبقى في الفندق ، فأبلغنا
دعوة الحاكم إيانا إلى العشاء في داره غداً .

لم يمكننا الإعياء من التجوال في المدينة تلك الليلة ، ولكن نعمنا
بمراى أشجار الحور الباسقة تنثر على الأرض ضوء القمر ، كما تتناثر في خيالنا
ذكرى الماضي الجيد من هذه البلدة الخالدة ، التي نشأت من علماء الإسلام
الأعلام أمثال أبي الفرج الأصفهاني ، وداود بن علي صاحب المذهب
الظاهري ، وأبي نعيم صاحب الحلية ، وحمزة المؤرخ .

وكنا نسمع في الحين بعد الحين جلبة الأجراس في أعناق الإبل
أو الثيران السائرة في المدينة . وهذا صوت مطرب في جوف الليل ولكنه
يذهب بالنوم . وغدونا إلى دار الحكومة فقابلنا حاكم أصفهان وهو أحد
الوزراء السابقين ورجال الصحافة القدماء . وكان له جريدة تسمى صور
إسرافيل فغلب اسمها عليه فهو اليوم يسمى قاسم صور إسرافيل ، ويتسمى
هو بهذا الاسم ويكتبه على بطاقته . وكذلك جاء إلى دار الحكومة نفر
من الألمان ، منهم الدكتور شميت الصحافي الذي ينشر جريدة في أنقرة

الآن ، وكان مندوباً إلى مؤتمر الفردوسى ولكنه تأخر عن المؤتمر .
خرجنا لرؤية آثار أصفهان الرائعة . وإني أشفق على القارىء أن
أصف المساجد والقصور التى رأيناها وصفاً مفصلاً .

فى المدينة ميدان كبير قال لنا مهندس ألماني : إنه أكبر من ميدان
الكنكورد فى باريس ومن كل ميدان فى مدينه . وهذا الميدان للعب
الكرة والصولجان على ظهور الخيل (الجوكان) ، ولا تزال فيه العمدة
الخشبية التى تعلم غاية اللعب . وفى وسطه حوض كبير تنبجس منه نافورات
قوية ؛ وهى من آثار الصفويين ، وقد عمرت أخيراً . ويحيط بالميدان آثار
الصفويين : مسجد الشاه ومسجد الشاه لطف الله والباب العالى والسوق .
مسجد الشاه من أجمل مساجد المسلمين ، بل من أعظم آثار العالم
قاطبة . بناء ضخيم وهندسة محكمة ، وصناعة الكاشاتى والكتابة والنقش
لم تدع مزيداً لصانع أو ناظر . ولا يوجد مقدار شبر فى جدر المسجد
أو إيواناته أو قبابه خالياً من هذه الصنعة فقد أفرغ الجمال على هذا المسجد
كتابة ونقشاً وتلويناً .

وفوق إيوان القبلة قبة شاهقة تعلوها قبة أخرى ، وبينهما ستة عشر متراً ؛
فإذا وقف الإنسان فى مركز القبة وصفق بيديه صفقة خفيفة أو تكلم
بصوت خافت ، أو حرك الأرض برجله انبعث الصوت عالياً مدوياً مردداً
فى القبة أكثر من عشر مرات

ومسجد الشاه لطف الله أصغر من هذا ، ولكن فيه من الفنون

دقائق عجيبة ، وفيه طبقة تحت الأرض للصلاة في الشتاء .

والباب العالى بناء ضخّم قِسْمُهُ الأمامى إيوان عال يمسك سقفه الرفيع ثمانية عشر عموداً ، مشرف على الميدان ، ووراء الإيوان بناء ذو طبقات ست وسلام ضيقة ، وفي كل طبقة حجرات قليلة صغيرة . وهذا البناء كان كله لجلوس السلاطين مشرفين على اللعب فى الميدان ولاستقبال الوفود أحياناً . وكان بابه العظيم مفتوحاً ليل نهار يأوى إليه أصحاب المظالم فترفع إلى الشاه ظلاماتهم .

ومن الآثار التى رأيناها المسجد الجامع ، وهو من أكبر المساجد سعة رقعة وضخامة بناء ، وقد كمل بناؤه الحاضر فى عهود مختلفة ، وهو أقدم مساجد أصفهان . إيوان القبلة له قبة عالية ضخمة مبنية بالآجر ، وإلى الغرب إيوان صغير جميل أظنه من آثار الصفويين ، ووراء مصلى كبير يؤخذ مما كتب على قبلته أنه بنى سنة عشر وسبعمائة ، ووراء هذا مصلى كبير لا نوافذ له ، وفي سقفه كوى ينفذ ضوءها من أحجار من المرمر شفافة .

وفي المسجد إيوانات أخرى ومصلى له قبة صغيرة زعم بعض الأدلاء أنه كان بيت نار ، وأن القبة الكبرى كانت كذلك ؛ وذلك زعم لا يصدقه التاريخ وفن البناء . وقصارى القول أن المسجد الجامع بأصفهان من عجائب الأبنية ، وأن فيه للتاريخ وفن العمارة درساً طويلاً .

وأكبر الظن أن هذا هو الجامع الذى وصفه مفضل بن سعد بن الحسين

للفروخي في كتابه « محاسن أصفهان » حيث يقول : « والجامعان : الكبير العتيق البديع الأنيق . بنى أصله القديم عرب قرية طبران وهم التيم ... ثم أعيد في أيام المعتصم سنة ست وعشرين ومائتين ، ثم زاد فيه أبو علي ابن رستم في خلافة المقتدر ، فصار أربع أدور يماس كل حد من جماعتها رواقاً ، يلاصق كل رواق منه أسواقاً ... وهو منذ اتخذ يطن بالتهليل والتحميد ، ويحن بالتسبيح والتمجيد . لا ينظم لإحدى الصلوات الخمس أقل من خمسة آلاف رجل . وتحت كل اسطوانة منه شيخ مستند ينتابه جماعة من أهلها بوظيفة درس أو رياضة نفس تزين بمناظرة الفقهاء ، ومطارحة العلماء ، ومجادلة المتكلمين ، ومناصحة الواعظين ، ومحاورات المتصوفين ، وإشارات العارفين وملازمة المعتكفين . إلى ما يتصل به من خناكهاات قوراء مرتفعة ، وخانات عامرة متسعة ، وقد وقفت لأبناء السبيل من الغرباء والمساكين والفقراء . وبجذائه دار الكتب وحجرها وخرائنها الخ الخ » .

والباب العالي الذي ذكرته آنفاً كان يؤدي إلى حدائق واسعة فيها قصور كبيرة رائعة ، رأينا منها قصر « جهل ستون » أي قصر الأربعين عموداً الذي بناه الشاه عباس واحترق فعمره الشاه سلطان حسين وهو ، كما رأيناه اليوم ، بناء وسط حديقة واسعة ، ومقدم البناء رواق رفيع واسع يقوم بسقفه عشرون عموداً رفيعاً كل عمود قطعة واحدة من خشب الدلب وكان مكسواً بالمرمر تعلوه قطع المرايا على الأسلوب المألوف في البلاد الفارسية

وللبناء على الجانبين رواقان آخران صغيران ، ووراء الرواق الأكبر الأمامي مدخل يفضى إلى قاعة كبيرة وراءها حجرات ، وفي رواق الجانب الأيمن نقوش كثيرة ، بعضها يصور نفرًا من الموسيقين والغنين ، وبعضها يمثل جماعة من سفراء دول أوربا الذين وفدوا على الملوك الصفويين . وفي القاعة الكبرى صور كثيرة تمثل الملوك الصفويين مستقبلين ضيوفهم أو محاربين أعداءهم ، وهي صور تذكر بصور قصر فرساييل في فرنسا

وأمام البناء كله حوض كبير على حافته نافورات ، ينعكس فيه مرأى الرواق الأمامي . قال محدثنا : للرواق عشرون عموداً وهذه مثلها في الماء فن أجل هذا سمى قصر الأربعين عموداً

والحق أن آثار الصفويين في أصفهان على ما نالها من عوادي الزمان تشهد بما كان لهم من الغنى والأبهة ، وبما كان في الدولة من العمران والصناعات ، والنبوغ في العمارة والنقش

ورأينا آثاراً أخرى بطول وصفها ، ثم أويننا إلى الفندق وفي خيالنا جلال الماضي وجماله ، وأمام أعيننا ما كان من تبدل وتحول

عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذلك الدهر حال بعد حال خرجنا العشية فجلنا في أطراف المدينة ، ورأينا القناطر المشيدة على نهر زنده رود ورأينا مصنعاً كبيراً لآل اليزدى ينسج فيه الصوف ، ثم ذهبنا إلى السوق ، وسوق أصفهان من أعظم الأسواق في الشرق ، فرأينا بدائع صناعة أصفهان ، واشترينا منها ثم رجعنا إلى الفندق

ولما حان موعد العشاء خرجنا إلى دار الحكومة إجابة لدعوة الحاكم ،
فنعلمنا هناك زمناً بجديث السيد الهمام قاسم صور اسرافيل ورئيس البلدية ،
والشاعر الانكليزي درينكووتر والدكتور شميت الألماني ثم عدنا إلى
الفندق نمشي في القمراء وقد هوّد الليل ، فقلت حبذا لو امتد بنا المقام
بكرنا إلى الرحيل ونحن نذكر قول أبي عبد الله الحسين النطري :

حوت أصفهان خصلاً عجاباً بها كل ما تشتهيه استجاباً
هواء منيراً وماء نديراً وخيراً كثيراً ودوراً رحاباً
وترباً ذكياً ونبتاً رويّاً وروضاً رضيعاً يناعي السحاباً
وفاكهة لا ترى مثلاً نسيماً وطعماً ولوناً عجاباً
تفيد الأعلاء مبرأً كما يفيد الربيع الرياض الشباباً
وزاد محاسنها زُتروذ مياها كطعم الحياة عذاباً... الخ
فارقنا أصفهان والساعة ثمان وربع من صباح الاثنين ثالث عشر
رجب (٢٢ أكتوبر) عائدين أدراجنا تلقاء قم . ومن أصفهان إلى
كرمانشاهان طريق تسير شطر الغرب لا تمر بقم ، وهناك طريق أخرى
إلى سلطان آباد في العراق العجمي ، ولكن سائق سيارتنا ، وهو خبير
بالطرق ، أبي إلا أن يسلك طريق قم إلى سلطان آباد فبهذان فكرمانشاهان
لأنها طريق معبّدة مطروقة معروفة ، ومررنا والساعة تسع ونصف بقرية
صغيرة اسمها مورجه خود (النملة أكلت) . قال السائق هذه قرية دعا
رسول الله صلوات الله عليه أهلها إلى إطعام بعض الفقراء فأخفوا ما عندهم

من طعام ، فدعا الرسول عليهم فأكلت النملة ما ادخروه من قوت .
ووردنا روليجان والساعة اثنتا عشرة فوقفنا موقفنا الأول على المظم
الذى وصفته آنفاً ، فجاء صاحبه وقال قد هيأت لكم الطعام . قلنا :
أعددت دجاجة ؟ قال : نعم وغيرها ، فصعدنا إلى الطبقة العليا فاسترحنا
ثم جاءنا العظام فأكلنا مسرورين فكهين .

واستأنفنا المسير والساعة واحدة وأربعون دقيقة ، فلقينا على الطريق
زميلنا في المؤتمر الدكتور نظام الدين الهندي فوقفنا نجدد العهد به . ثم سرنا
قليلاً فإذا ثلاثة من أعضاء المؤتمر : أغا أوغلو التركي ممثل جامعة ما تشيجان
بأمريكا وآخران ألماني وأمريكي ، فتحدثنا قليلاً ثم افترقنا وكان هؤلاء
يؤمنون أصفهان فشيراز .

بلغنا قم والساعة أربع فلم ندخلها ، بل ملنا عنها شطر الغرب نريد
سلطان آباد . ونزلنا بعد نصف ساعة ببناء عند أشجار على مقربة من نهر قم
قلت للسائق : أى موضع هذا ؟ قال : تحت شير (تحت الأسد) شربنا
الشاي وطلبنا شمامة (خربوزه) فجاء رجل بشمامة وبطيخة . قلنا هذه
البطيخة قديمة ، فما رأيك في الشمامة ؟ قال : حلوة جداً . قلنا : شققها .
فإذا شمامة غير ناضجة ، فقمنا نندب أملاً ضاع بين قدم البطيخ وحدانة
الشام . ولم أنس من بعد تحت شير وشمامته . وكان مسيرنا في أرض عامرة
تبدو فيها القرى والزرع والأشجار ، والبيادر ليست كالطريق بين طهران
وأصفهان . ومررنا بقرية صغيرة وقف عليها السائق قائلاً لا يفوتنا أن نأكل

من غسل هذه البلدة فهو حديث الركبان . ثم دخل بناء إلى جانب الطريق ، وعاد بقليل من العسل والزبد وانخبر . وقد صدق الخبر خبر صاحبنا فقد وجدنا عسلاً صافياً بارداً فقلنا : قد أبدلنا الله بشتامته تحت شير عسل راجرد . وتمادى بنا السير حتى اجتزنا بقرية اسمها ابراهيم آباد فعلما أننا على مقربة من غايتنا . وبعد نصف ساعة وقفنا في مدخل سلطان آباد والساعة ست وخمس وأربعون مساءً بعد أن فصلنا من أصبهان بعشر ساعات ونصف ، فرأى الشرطة جواز السفر ودخلنا المدينة .

من سلطان آباد إلى بغداد

سلطان آباد حاضرة ولاية في إيران تسمى العراق ، وهي في الجنوب العربي من سهل فراهان ، بناها منذ مائة وثلاثين سنة يوسف خان الكرجي وجعلها مربعة الشكل ، وسورها وحصنها . وولاية العراق هذه خضبة كثيرة الزرع فيها زهاء ٦٨٠ قرية ، ومجايدها مشهورة . وعلى مقربة من هذه المدينة كانت مدينة الكرج في الإقليم الذي كان يعرف باسم كرج أبي دلف ، وقد ذكره الشعراء في مدائحهم . دخلنا المدينة ليلاً فسرنا قليلاً فاتهمنا إلى ميدان فسيح فيه حديقة تمتد منه أربعة شوارع واسعة . وهذا نظام جديد اتخذ لاصلاح المدن الإيرانية في السنوات الأخيرة . وقف بنا السائق على فندق (مهمانخانه) في هذا الميدان فدخلنا إلى فناء

واسع للسيارات ، وصعدنا في سلم إلى حجرات على مقربة منها منتدى (قهوة) فلم نرض هذه المجاورة . فنزلنا إلى فندق آخر بجانبه ليس في المدينة سواها ، فاتخذنا حجرة لا بأس بها في مثل هذه المدينة ، واسترحنا وطعمنا قليلا . ثم خرجنا نجول في البلد فلم نر شيئا أكثر مما أحاطت به النظرة الأولى ورأينا المدينة على صغرها وسذاجتها نظيفة جميلة

برحنا البلدة والساعة ثمان وأربعون دقيقة من صباح الثلاثاء رابع عشر رجب (٢٣ أكتوبر) مسرعين صوب همدان نود أن نبلغ بأية وسيلة بغداد يوم الأربعاء لنذكر قافلة السيارات التي تبرحها إلى دمشق صباح الخميس بلغنا نجر آباد والساعة تسع وراقنا كثرة العمران والزروع على الطريق كما قلت من قبل ، ووقفنا والساعة عشر على ضيعة اسمها زنيكنه معروفة بجودة عسلها فأكلنا ونحن نقول : إن لله دواء من العسل (مستعيزين من المثل القديم : إن لله جنوداً من العسل) . ثم وقفنا على ملايير (دولت آباد) والساعة إحدى عشرة فطلبت جوازات السفر للاطلاع عليها . والمسافة بين سلطان آباد ودولت آباد ١٠٠ كيل . وواصلنا السير تلقاء الغرب والشمال حتى بلغنا همدان والساعة واحدة بعد الظهر ، فسرنا في شارعها الكبير وجددنا العهد بمرقد الفيلسوف ابن سينا ، ثم أومنا إلى فندق يقوم عليه جماعة من الأرمن ؛ والأرمن في إيران قوّة الفنادق تلقاهم كل في مدينة وقرية ، وما نزلنا فندقاً أو مطعماً على طريقنا من طهران إلى حدود العراق إلا عرفنا صاحبه أرمنياً .

وأعجلنا السفر عن الإقامة في همدان يوماً ، فبرحناها بعد ساعتين
سائرين شطر الجنوب للمبيت في كرمان شاهان . ونحن الآن على طريقنا التي
سلكناها من قبل إلى طهران فلا أعيد وصفها هنا . لما شرعنا نفرع الجبال
جنوبي همدان أصاب مصدم السيارة خلل ، فسقطت لوحة صغيرة كتب
عليها جشن فردوسی : « عيد الفردوسی » . وقد علق مثلها على كل سيارة
أعدت للسفر في حفلات الفردوسی . فوقفنا ، ونظر سائق السيارة فوجدها
وفك المصدم فربطه خلف السيارة . وقد أدت هذه الحادثة الصغيرة إلى
أن تأخرنا عن بلوغ بغداد يوم الأربعاء ففانقنا قافلة الخميس ، كما يأتي .
واجتازنا جبال أسد آباد ، وبلغنا كنگاور والساعة خمس وربع من المساء
وقد ذكرت هذه البلدة في طريق إلى طهران ؛ أزيد هنا أننا نزلنا فاسترحنا
وشربنا الشاي ، وأكلنا البطيخ . وهو في إيران كثير لا يعدمه السائر
حيثما سار . وخرجنا نمشي على الطريق ننتظر أن يعد السائق سيارته
فإذا جماعة جالسون في عريش على جانب الجادة ؛ فتقدم كبيرهم فحيانا
وقال : إن في البلد آثاراً قديمة . أتريدون أن تروها ؟

وعرفنا حينئذ أنه حاكم البلد . فسرنا لنرى الآثار . وصحبنا الحاكم
وجماعة من الموظفين . فرأينا بلداً صغيراً فقيراً في وسطه أحجار ضخام ،
وقطع من أعمدة كبيرة اختلطت بالدور . فقليل هذا أثر معبد قديم واخترقنا
بعض الدور وسرنا بضع دقائق . فرأينا أحجاراً أخرى قيل لنا أنها من آثار
المعبد نفسه . وكان معبد للألهة : (أناهيتا) من آلهة الفرس القدماء .

بناه لها الاشكانيون . وكان أيام الفتح العربي مأوى اللصوص وقطاع الطريق . فمن أجل هذا سموه قصر اللصوص .

قال ياقوت في المعجم : « قال صاحب الفتوح لما فتحت نهاوند سارجيش من جاوش المسلمين إلى همدان فنزلوا كنفكوز . فسرق دواب من دواب المسلمين فسمى يومئذ قصر اللصوص وبقى اسمه إلى الآن ... وقال مسعرين مهمل : « قصر اللصوص بناؤه عجيب جداً ؛ وذلك أنه على دكة من حجر ارتفاعها عن وجه الأرض نحو عشرين ذراعاً فيه إيوانات وجواسق وخزائن تحير في بناءه وحسن نقوشه الأبصار . وكان هذا القصر معقل أبروز ومسكنه ومنتزهة لكثرة صيده وعذوبة مائه ، وحسن مروجيه وصحاريه » تركنا كنفكاور والساعة ست . فما فارقنا ضوء النهار حتى نشر على الأرجاء بدر التمام أشعته فسرنا في جبال وسهول حتى أشرف على الجادة جبل بيستون الشاهق . وقد ذكرته من قبل وذكر قصة فرهاد وشيرين التي لا يزال صداها طائراً في أرجائه .

ولما لاحت ذروة الجبل في ضوء القمر قلت : بيستون ! ثم أنشدت :
 لعل شيرين نصيب خسرو شعر سنك بيهوده مى كند فرهاد
 « بشيرين كان نخسرو الظفر وكان لفرهاد نحت الحجر »
 فأنشد السائق :

به بيستون كه رسيدم گرفت بارانم اكر غلط نكنم آب چشم فرهاد دست
 « صاب فوق بييسيون سماء ليت شعري أدمع فرهاد ؟ »

ثم قال السائق : أتعرف قصة شیرین وفرهاد ؟ فأجبت أن أسمعها منه فقلت ما القصة ؟ قال : « كان فرهاد راعياً لبرویز فرأى يوماً شیرین امرأة لبرویز فهام بها حباً ، وكان يظنها إحدى أماء الملك . ومرضت شیرین يوماً فقال الملك لفرهاد : إن شئت أن أمنحك شیرین فأمحت في الجبل قناة يسيل منها اللبن من المرعى إلى القصر . فشق في الحجر قناة طولها فراسخ . فلما أبلت شیرین قال الملك لفرهاد : بقي أن تبني لى قصرأ عظيماً . فنيحت الأحجار وبنى القصر . فلما خشى الملك أن يستنجزه فرهاد وعده قال لمشيريه : كيف الخلاص من فرهاد؟ فتطوعت امرأة عجوز بالحيلة وذهبت إلى فرهاد نائحة لاطمة . قال : ما خطبك ؟ قالت : ماتت شیرین فغشى عليه ومات لساعته . وخلصت شیرین لبرویز » .

والقصة ذائعة في الأدب الفارسی ، وقد نظمت مراراً وبلغ بها الشعراء آلاف الأبيات .

فلما فرغ السائق من قصصه قلت : أنستطيع أن نرى أثر فرهاد في هذا الجبل ؟ قال : إنه عال ، ولا يُرى بالليل

بلغنا كرمانشاهان والساعة ثمان بعد أن قطعنا إليها من همدان ١٩٠ كيلا . وأوينا إلى فندق اسمه (مهمانخانه بزرگ) أى الفندق الكبير وهو فندق نظيف حسن النظام . واستأذن سائق السيارة أن يتأخر قليلاً غداً ربناً يصلح سيارته ثم انصرف

وأصبحنا ننتظر السائق فطال بنا الانتظار فذهبنا نمشي في المدينة .

ثم ذهبنا إلى دار البريد فأبرقنا إلى وزير المعارف نشكر له ما لقينا من
حفاوة ، قبل أن نجتاز حدود إيران . ورجعنا إلى الفندق فلم نجد السائق ،
وذهبنا نفتش عنه في الخانات حتى عنرنا علياً مكباً هو وبعض الصناع
على إصلاح السيارة . ولم نستطع مغادرة كرمانشاهان إلا وقت الظهر .
فأيقنا أن سفرنا غداً إلى دمشق عسير أو محال . وجدّ بنا السير زهاء ساعتين
فبلغنا شاه آباد ، وقد ذكرتها من قبل . فنزلنا في فندق صغير فاسترحنا
وطعمنا . ونشط أصحاب الفندق من الأرمن في خدمتنا . فاستأنفنا السير
بعد ساعة ، ومررنا بكرند وكوه باطاق ، وسرپل ذهاب حتى بلغنا قصر
شيرين والساعة خمس فتوقفنا هناك عشر دقائق . ثم تركناها نؤم حدود
العراق .

بلغنا حدود العراق والساعة ست ، وقد غربت الشمس ؛ فلقينا
الموظفون مرحبين ويسّروا لنا السفر العاجل . فسرنا إلى خاتقين فخرجنا
على دار السيد عبد القادر صالح معاون الجمارك لنسلم ونشكر له ضيافته حين
مررنا بخاتقين المرة الأولى .

توجهنا إلى بغداد والساعة سبع من المساء ، وأمامنا صحراء مشتهية
الأعلام ، طامسة المناهج ، ولكن مهارة السائق ، وعلامات الطريق
يسّرت لنا بلوغ بعقوبة والساعة تسع ، حين بلغ منا التعب مبلغه . وقفنا
على منتدى في الطريق ونزلنا فإذا صورة أم كلثوم في صدر المكان .
ولما عرف صاحب المنتدى أننا مصريون سارع فأسمعنا غناها . ف شعرنا
ونحن في العراق أن مصر قريب .

سم سرنا من بعقوبة فأدركنا شاب ينادى أن الطريق غير بيّنة فاحملوني لأدلكم . قلنا : لا حاجة إليك . وأدركنا فارسان من العسس فقالا : أمامكم صحراء لا تهتدون فيها إلى طريقكم . نغير لكم أن تبينوا هنا وهنا فندق نظيف . وإن شئتم فكلموا رئيس الشرطة ليرسل معكم دليلاً . وهذا الشاب إن حملتوه معكم لا يستطيع أن يهديكم الطريق . فأقسم الشاب أنه بها جدّ خير ، وأنه هدى من قبل كثيراً من المسافرين فارتكبنا أهون الشرين وحملنا هذا الدليل معنا . ولم يكن له مكان في السيارة فركب على الرفرف .

وسرنا فإذا الطريق واسعة لاجبة لا تحتاج إلى دليل . قلنا للدليل : كذلك طريقنا إلى بغداد ؟ قال : لا . فسرنا لا نستهديه ولا نبالي به إلا سؤالاً في الحين بعد الحين : « هل نمت ؟ » . فيقول : لا . فنقول : إحدركم تنام أو تقع ففضل في هذه الصحراء . فنعم الدليل أنت ! لولا أن من الله علينا بك لهلكنا . ولسنا نفكر على دليلنا أنه كان حديثاً ممتعاً في الصحراء ؛ سميّناه الدليل النائم ، واهتدينا به إلى الفكاهة وإن لم نهتد به إلى غاية !

بلغنا مدينة السلام منتصف الليل فأوينا إلى الفندق وانصرف دليلنا ثم جاء صبحاً يطلب أجره . فضحكنا وقلنا لخادم الفندق : أبلغه أننا وهبنا له أجره الركوب بما له من أجر الهداية فليذهب مأجوراً . ثم نزلنا لنلقاه فمأزحه ونأجره ولكنه ذهب فلم يعد ولم نجد إليه دليلاً فأسفنا أسفاً

من بغداد إلى الاسكندرية

أثمتنا ببغداد أربعة أيام ، فأحدثنا العهد ببعض مشاهدتها ، وزرنا مرقد الملك فيصل رحمه الله : رأينا في العراق على مقربة من دار البرلمان مقصورة من الخشب ترتفع عن الأرض درجات ، وعلى بابها جندى شاهى السلاح . ففتح لنا الباب إلى ضريح مغطى بالورد والزهر : هذا بقية الجهاد من النفس الطامحة ، هذا ميراث الخلود من العزائم المريرة ، هنا حلقة يصلها النسب والمجد والتاريخ بسيد المرسلين وخاتم النبيين . غاية تنقطع دونها الأعناق ويعيا بمرامها كل سباق . أترى هذا المصحف على حافة الضريح؟ هذا كتاب الله يشهد للسلف بما قدّم ، ويدعو الخلف إلى أن يمضى قدماً على سنة الآباء وسنن المجد وهدى الإسلام . فيا بنى العرب والإسلام احذروا غضب الله ، وسمخط الآباء ، ولعنة التاريخ ، وسيروا بالراية إلى الغاية ، وتبواؤا مكانكم في جبهة الخطوب وصدر الزمان .

فإنا أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر قرأنا صحائف المجد ثم قرأنا الفاتحة وخرجنا نقول : رحم الله فيصلاً ! وفي اليوم الثانى شرفنا بالمثل بين يدي جلالة الملك الشاب غازى بن فيصل ! اقتربنا من الحجرة الملكية فرأينا جلالته واقفاً ؛ فلما ولجنا الباب تقدم إلينا فخيانا تحية العربى الكريم لضيغفانه ، وتلقانا كما يتلقى الأخ العظيم إخوانه .

وجلسنا فسالنا كيف صحة جلالة ملك مصر؟ وسالنا عما رأينا في سفرنا وما لقينا في حلنا وترحالنا؟ وكيف رأينا تقدم العراق بعد زورتنا الأولى؟ ثم كانت أحاديث ملؤها الأمل والطموح في مستقبل العراق والعرب والإسلام . قلنا : وإنا لندعو الله أن ييسر للملك الهاشمي العظيم السير على سنن آبائه ، ويرعاه قرة عين للعرب والمسلمين . ثم خرجنا فرحين مغتبطين قلنا قد رأينا في فيصل صفحات من مجد الأُمس ! وهذه صفحات من مجد الغد .

نبني كما كانت أوائلنا تبني وتفعل مثل ما فعلوا
صدق الله آمالنا ، ومهد لنا طريقنا ، ويسر لنا غايتنا .

وزرنا مسجد الإمام أبي حنيفة والمدرسة الأعظمية ودار الكتب . وزارنا في الفندق كثير من إخواننا البغداديين ، وتنافسوا في دعوتنا إلى ضيافتهم ، ولكن ضاق الوقت عن إجابته الدعوات ، إلا دعوتين سبقتا قبل سفرنا إلى طهران من الأستاذ الفاضل أبي خلدون ساطع بك الحصري مدير كلية الحقوق ، والأديب الهام رفائيل بطي مدير جريدة البلاد ، فذهبنا إلى حفلتين نعمنا فيهما بلقاء جمع من زعماء العراق وعلمائه وأدبائه ، وسعدنا بأحاديث في الأخوة والمودة ، والسياسة والعلم والأدب

وفي اليوم الأخير كانت حفلة الوداع في دار المفوضية المصرية ، إذ دعا الأستاذ حافظ بك عامر القائم بأعمال المفوضية جمعا من أعيان بغداد ومن المستشرقين الذين رافقونا في حفلات الفردوسي ، وسفير إيران ببغداد وغيرهم

إلى مأدبة شاي ، ولم تكن هذه أول حفاوة حافظ بك والأخ حسين أفندي منصور سكرتير المفوضية .

برحنا بغداد بكرة يوم الإثنين في سيارة جديدة من سيارة شركة (نيزن) ذات عشر عجلات ، طولها خمسة وعشرون متراً ؛ وهي نمط جديد مركب من جزأين : القاطرة والعربة . وقد أريد بفصل المقدّم من سائر العربة تخفيف الارتجاج . فالسيارة تسير رهواً في الطريق غير المعبّدة . وقفنا قليلاً في الرمادي فرأينا سيارة كبيرة تُقلّ نفرّاً من الانكليز ، فيهم أطفال ونساء ، وقد كتب عليها ما يدل على أنها سائرة من الهند إلى لندرة سألت بعضهم : متى فصلتم من الهند ؟ قال : منذ شهر . قلت : ومتى تبلغون لندرة ؟ قال : بعد شهر ونصف ، لأننا سنتلبث في القسطنطينية وبعض البلاد . فهانت علينا الشقّة بين طوس والقاهرة ، وأكبرنا هذه العزائم السيّارة :

بعيد مناط الهم فالغرب مشرق إذا ما رمى عينيه والشرق مغرب وبلغنا الرطبة بعد الغروب فلبثنا ساعتين ؛ جلسنا في فندق هناك نستمع إلى الغناء المصري ونأكل ما تيسّر من الزاد . ثم مشينا في أطراف الصحراء فرأينا مجرى وادي حوران الذي يسيل من حوران إلى وادي الفرات ، ولم يكن به يومئذ ماء ، ورأينا هناك آباراً يستقي منها الأعراب الضاربون في تلك النواحي ؛ وقد جاء إلينا أطفال الأعراب فسألهم أحد الرفاق عن أسمائهم فلم يجيبوا ، فقلت : إن ابن البادية يتحرز من ذكر اسمه

واسم قبيلته حتى يأنس، فلما استأنسناهم بالحديث والعطاء صرّحوا بالأسماء
طلعت الشمس ونحن في أرباض دمشق؛ فدخلناها في نضرة الصباح
وأشعة الشمس تموج على ذوائب الغوطة الفيحاء . وما دخلت دمشق قط
إلا خفق قلبي لها سروراً وحباً .

أوينّا إلى فندق أميّة ، يحبّه إلينا هذا الاسم العربي ، ولبثنا يومين ،
ووجدنا خُدام المائدة هناك من النوبيين فرحبوا بنا وبالغوا في إكرامنا .
وهنا لطيفة أضن بها على الترك : جلست أنا ورفيقي الأستاذ العبادي
للافطار ؛ فلما قدمت إلينا ألوان الطعام طاف بنا طائف من الشعر ؛ فقال
الأستاذ :

وقوم في أمية ينزلونا من العسل المصقى يشربونا
قلت : ولو علموا مكاتهم لكانوا بصحن بنى أمية ينزلونا
قال : ما صحن بنى أمية ؟ قلت : صحن الجامع الأموى . قال : إن
النزول به شرف . قلت : هذا أردت . والله أعلم بذات الصدور .
بادرنا بعد أن استرحنا إلى زيارة الأستاذ محمد كرد على بك كما فعلنا
حينما وردنا المدينة في طريقنا إلى طهران . ومن فاته مجلس الأستاذ
كرد على في داره المعمورة فقد فاته خير كثير . وكنا نعمنا المرة الأولى بليلة
غوطية قراء سمرنا بها مع الأستاذ والأمير مصطفى الشهابي والأستاذ خليل
مردم . وهم كما قال الحريري :

« في رفقته غُذوا بلبان البيان ، وسحبوا على سحبان ذيل النسيان ،

ما فيهم إلا من يُحفظ عنه ولا يُنحفظ منه ويميل الرفيق إليه ولا يميل عنه .
ويوم الأربعاء زرنا الجامعة السورية فإذا كلية الآداب قد أُلغيت .
ولقينا الأستاذ مدير الجامعة فطاف بنا في حجرات الكيمياء والطب ،
ثم دعانا إلى غرفته فتحدثنا في الاصطلاحات العلمية وتوحيدها في البلاد
العربية ، ثم خرجنا شاكرين . وذهبنا إلى المتحف العربي لنرى الأمير
جعفر الجزائري فإذا المتحف مغلق وإذا المكتبة التي أمامه مغلقة .

وهنا أقول أن دار المتحف العربي هي دار المدرسة العادلية لا دار الحديث
الأشرفية كما ذكرت خطأ في حديثي عن الشيخ الخالدي الذي نشر في مجلة
الرسالة ، وأنا أعترف بأن الغلط كان مني لا من الشيخ ؛ وأنه نبهني إليه
حينما قرأ المقال وهو بمصر . وهذا لا يقل شكراً للأديب برهان الدين محمد
الداعستاني الذي نبه إلى هذا الغلط في مقال بمجلة الرسالة

وفي المساء ذهبنا إلى الصالحية فزرنا قبر الشيخ عبد الغني النابلسي
ولم نكن زرناه . وقفت بنا السيارة على حارة هناك فترملنا ومشينا بجانب
بناء قديم مهجور فقيل : هذه المدرسة العمرية التي بناها أبو عمر بن قدامة .
وفي هذا الحى مدارس كثيرة كانت مباءة العلم والعلماء في العصور الخالية .
وتقدمنا قليلاً ثم ملنا ذات اليمين فهبطنا مسجداً صغيراً مشرفاً على دمشق .
ثم ولجنا باباً إلى اليمين فإذا مصلى واسع ، فلما اتجهنا شطر القبلة رأينا
في الجدار الذي إلى اليسار مقصورتين عليهما شبابيك الحديد إحداها مرقد
الشيخ الصوفي العالم المتفنن عبد الغني النابلسي ، والأخرى قبر أحد أقاربه .

وقد رأيت على باب المصلى الذى فيه الضريح هذين البيتين :
زان سورّية الوزير نظيفُ بنظام يفوق عقداً نظيماً
لمقام الوليّ عبد الغنى مذ شاد أرخت « نال أجراً عظيماً »
ومعنى ذلك أن والى سورية نظيف باشا، عمر هذا المكان سنة ١٣٠٦
ثم ذهبنا إلى دار العالم الفاضل الأمير مصطفى الشهابى لإجابة لدعوته ،
وهى فى أعلى الصالحية تشرف على دمشق كلها . فتعشنا وسمرنا مع جماعة
من الفضلاء ، ثم هبطنا بعد هدأة من الليل فمشينا إلى الفندق ، وسار معنا
الإخوان مودعين فختمت إقامتنا بدمشق على أحسن ذكرى .
وأصبحنا نتأهب للمسير إلى بيروت فبلغناها ظهراً .
وجللنا فى المدينة حتى أرست الباخرة الرومانية « شارل الأول »
فوضعنا أمتعتنا بها ثم نزلنا فجللنا جولة فى المدينة ورجعنا إليها والساعة إحدى
عشرة وفى منتصف الليل سارت الباخرة . فلما أصبحنا رأينا أسباط
بنى إسرائيل الذاهبين إلى حيفا مزدحمين فى أرجائها وقد راجت سوق
الملابس بينهم ، هذا يعرض وهذا يساوم ، وهذا يشتري وهذا يابى .
فقلنا لله در القوم !

وقفت الباخرة على حيفا صباحاً ، وقد صارت حيفا ميناء كبيراً منذ العام
الماضى ، فنزلنا إلى المدينة وصعدنا فى جبل الكرمل وهو جبل عال مزدان
بالدور والأشجار مشرف على البحر . ومررنا بقرى الباب صاحب الدعوة

البابية ، وقبر عبد البهاء عباس أفندى زعيم البهائيين السابق . وهما في بناء جميل تحيط به حديقة منضدة ينحدر الجبل عنها طبقة بعد أخرى حتى يفضى إلى شارع واسع يستقيم من سفح الجبل إلى البحر .

وسارت السفينة بالعشى فما زالت في بحر رهو حتى أقبلت على الإسكندرية المحبوبة قبيل الظهر يوم السبت ثالث نوفمبر . خفقت قلوبنا فرحاً بالأوبة إلى الوطن ، وقذيت عيوننا بالمرأى الأجنبية المتزاحمة في التفر وزادها قذى منظر زورق الشرطة تعلوه راية كتب عليها من الجانبين Police كأن البلد لا يعرف اللغة العربية . وبينما تكهفر حولنا هذه المماظر المخزية وقع بصرى على كلمة « زمزم » الكلمة العربية الوحيدة في مئات الأسماء المحيطة بنا ؛ هذه زمزم إحدى بواخر بنك مصر ! هذا كوكب يلوح في هذا الظلام الدامس ! هذا برق من الرجاء يشق هذا الليل اليأس ! هذه فاتحة المستقبل الوضاء . فاصبرى أيتها النفس فإن مع العسر يسراً .

خاتمة

لم يتيسر لنا المقام في إيران حتى نعرف من أحوالها ودخائلها وسير العلم والأدب بها ، وحتى نستقصى آثارها ومشاهدها ، وإنما هو السفر العجلان الذى لا يقف ببلد إلا ليسير عنه . فهذه المقالات جهد النظرة العاجلة ، ومبلغ الأيام القليلة التى قضيناها طائرين من مدينة إلى أخرى ، ومقدار ما وعت أذاكرة دون الاستعانة بالذكرا . وهو كما يرى القارئ كلام

ريب الغور ، قليل الجدوى ، ولكنه لا يخلو من فائدة .
وبعد فقد سرنا من القاهرة إلى طوس فما أحسنا أننا اغتربنا ،
بل رأينا أنفسنا بين وجوه معروفة أو سنن مألوفة ، وتاريخ معلوم ،
وفي مشاهد حدثتنا عنها كتبنا ، وعهدا تاريخنا ونشأ فيها علماءنا ؛ فالعالم
الإسلامي على اختلاف الأمم أمة واحدة ألقتها مئات السنين على معنى
واحد ، وأورثها التاريخ حضارة واحدة ، وآداباً متقاربة ، وهذا ذخراً ،
لعمري الحق ، جدير أن يسان علم رغم الزمان ، واختلف ينبغي أن يُجَنَّب
الاختلاف ، وتقارب هو أسعد ما تخطى به الأمم في هذه العصور القلقة
الضطربة . فقل للذين يريدون أن يقطعوا الأوصال بما يثيرون من الجدل ،
وقل للذين يحرقون ماضينا ويزدرون تاريخنا ، ويحاولون أن يهدموا
كل قديم ليشيدوا كل حديث ساء صنعكم وقال رأيكم . وقل للذين
يلتفتون عن المشرق ليولوا وجوههم شطر المغرب : إنما تعرضون عن أنفسكم
وتاريخكم .

نسأل الله الهداية والتوفيق .

عودة إلى العراق

ذكرت آنفاً طرفاً من أخبار رحلتى الأولى والثانية إلى العراق . وقد دعيت بعد سنة من الرحلة الثانية إلى أن أدرس الأدب العربى بمدرسة المعلمين العالية ببغداد ، فلبيت الدعوة مغتبطاً أن أكون أستاذ أدب فى حاضرة العباسيين التى مهدت حجرها للأدب العربى قروناً طويلاً وتولى أديباؤها الإمامة فى تاريخ الأدب العربى حقبةً مديدة . ولا تزال أفئدة المسلمين عامة والعرب خاصة تهفو إليها .

وما أردت التعليم أكثر مما أردت الاستفادة وقضاء حاجات الفؤاد المشوق بالإقامة حقبة فى العراق . وكان أكثر همى أن أشارك إخواننا الذين يبنون مجدهم الطارف على مجدهم التالد جهد طاقتى وسعة معرفتى . أردت أن أفى بعض ما للتاريخ والحاضر والمستقبل على من حق بأن أساهم فى إنهاض العراق باللسان إن لم أستطع المعاونة باليد .

رحلت إلى العراق فى رمضان عام ١٣٥٤ هـ — ديسمبر سنة ١٩٣٥ م فبلغت دار السلام قبيل عيد الفطر وكانت أيامها كلها أعياداً .

أمضيت بها سبعة أشهر أسعدتني بمعاشرة زعمائها وعلمائها وأديبائها ومخالطة الطلاب والمعلمين مخالطة أخوة خالصة ، وطوّفت فى أرجاء البلاد أرى معاهد التعليم وأتبع سيرة مجدنا القديم فى الطرق والمدن والقرى .

وما أحسست الاغتراب حينما كنت من العراق إلا كما أحسه زملائي البغداديون الذين صحتهم إلى أقصى الجنوب وأقصى الشمال .
ولست في حاجة إلى أن أتحدث عن العراق وأهله بعد الذي قلته في الفصول السابقة ، ولكنني أستر على صفحات التالية ذكريات متفرقة بقيت في النفس بعد سنتين وأشهر من مفارقة هذا القطر المجيد .

البصرة

خرجنا من الناصرية على الفرات جنوبي العراق نريد البصرة يوم الخميس ٣٠ إبريل سنة ١٩٣٦ والساعة ثلاث وعشر دقائق بعد الظهر .
والناصرية حاضرة لواء المنتفق بنيت على نظام حسن منذ ثمانين عاماً ،
وسميت باسم ناصر باشا السعدون رئيس عشائر المنتفق ، وبينها وبين
البصرة مائة وخمسة عشر ميلاً .

سارت بنا السيارة ثلاث ساعات على حافة البادية بادية الشام في قسمها الجنوبي المسمى بالساوة ، نجد على البعد ريح نجد ونرى الشيخ والقيصوم ،
وبينا نحسب الساعات والأميال ، تشوقنا البصرة وذكرياتها قال أحد الرفاق : أنظروا إلى شجر الأثل — هذا أثل الزبير . قاربنا المدينة .

مدينة الزبير مدينة صحراوية على مقربة من البصرة الحديثة بينهما نحو عشرة كيلات ، وكانت في العصور الخالية قسماً من البصرة القديمة ، سميت باسم الزبير بن العوام أحد الصحابة ؛ قتل بعد موقعة الجمل في وادي السباع على مقربة من المدينة ودفن بها .

وسكان الزبير معظمهم نجديون أهل نشاط وتجارة . وقد جلبت إليها
الحكومة العراقية الماء من البصرة منذ سنتين وكان شربهم من الآبار
وبها من المشاهد قبر الزبير رضى الله عنه فى مسجد كبير . وفى جانب
من هذا المسجد قبر عتبة بن غزوان مؤسس البصرة فى عهد عمر بن الخطاب
رضى الله عنهما . قلت فى نفسى : قبر عتبة يذكرنى بالفتح والتعمير ، وضريح
الزبير يذكركم بالخلاف والقتال بين المسلمين ، وتلك أمة قد خلت . أسأل الله
إصلاح النفوس وتأليف القلوب . وخرجنا من مسجد الزبير إلى ظاهر البلد
فرأينا قبّة صغيرة تحتها قبران : قبر الحسن البصرى ، وقبر محمد بن سريّن
من التابعين . قلت : قد اصطحبا حيين وميتين . وإن الذى يذكركم الحسن
يملاً نفسه الإجلال والإكبار لهذا الرجل ، رجل الذكاء والعلم والفصاحة
والورع والجراة فى الحق . وقد روى عن ثابت بن قرّة أنه قال : ما أحد
هذه الأمة العربية إلّا على ثلاثة أنفس : عمر بن الخطاب والحسن البصرى
والجاحظ . وقال عن الحسن : كان من درارى النجوم علماً وتقوى ، وزهداً
وورعاً وعفة ورقة وفقهاً ومعرفة . يجمع مجلسه ضروباً من الناس : هذا
يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلتن منه التأويل ، وهذا يسمع منه الحلال
والحرام ، وهذا يحكى له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع
الوعظ . وهو فى جميع ذلك كالبحر العجاج تدفقاً ، وكالسراج الوهاج تألقاً .
ولانتس مواقفه ومشاهده فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند الأمراء
وأشباه الأمراء بالكلام الفصل واللفظ الجزل ... الخ .

وأما قبور الصالحين التي ذكرها ابن بطوطة كمالك بن دينار وسهل
ابن عبد الله فلم نجد عند القوم خبراً عنها . وأما قبر أنس بن مالك خادم
رسول الله صلى الله عليه وسلم فعند وادي السباع بعيد عن المدينة .

«فصلنا عن مدينة الزبير فرأينا على بعد قبة منفردة في البرية، وعرفنا
أن تحتها ضريح طلحة بن عبيد الله أحد الصحابة ، وقد قتل في وقعة الجمل
أيضاً . ثم مررنا بمأذنة مفردة ليس بجانبها بناء . فقيل : إنها مأذنة مسجد
على رضى الله عنه . وكان هذا المسجد في وسط المدينة وكان مسجداً عظيماً
بقي وحده بعد خراب البصرة القديمة . ورآه ابن بطوطة وقال : إنه من
أحسن المساجد وصحنه متناهى الانفساح ، مفروش بالحصاء الحمراء التي يؤتى
بها من وادي السباع ، وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضى الله
عنه يقرأ فيه لما قتل »

ثم دخلنا مدينة البصرة، وهى على ثمانية أميال إلى الشمال والشرق من
البصرة القديمة التي تم خرابها في أوائل القرن الثامن الهجرى . وخراب
البصرة يضرب به المثل .

ولله ذكر تحيط بالداخل إلى البصرة ! إنها ذكرُ الفتح والتعمير
الإسلامى . إنها ذكر العلوم والآداب العربية . هنا ولد النحو وعلوم اللغة
هنا أبو عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد وسيبويه والأصمعى ثم الحريرى ؛
وهنا بشار وأبو نواس ، وهنا أئمة المعتزلة براهيم النظام وأبو الهذيل العلاف
وهنا نادرة الزمان أبو عثمان الجاحظ . هنا إخوان الصفاء الذين دونوا خلاصة

الفلسفة الإسلامية ، وهنا المراد حيث كان يجتمع الشعراء والفصحاء .
 فيستمع الناس ويقضون لمتكلم على آخر . هنا أنشد جرير والفرزدق وغيرهما
 سألت أين المشان قرية الحريري التي كان بها نخله الكثير فقل
 لا يزال اسمه معروفاً شمالاً بالبصرة فأنشدت ما كتبه سديد الدولة ابن الأنباري
 إلى الحريري :

سقى ورعى الله المشان فإنها محل كريم ظل بالجد حالياً
 أسائل من لاقيته كيف حاله فهل يسألن عنى ويعرف حالياً
 البصرة اليوم مدينة عامرة كبيرة ، واسعة التجارة قد شمل التنظيم
 الحديث قسماً كبيراً منها . وقسمها الحديث يسمى العشار يقع على شط
 العرب ، وتشرف على هذا النهر العظيم قصور أغنياء البصرة تتبين فيها
 الغنى والبذخ والترف ، لها مجالس على النهر وسلايم ترسو عليها الزوارق
 وعلى بضعة أميال من المدينة تقع ميناء البصرة الحديثة تدخل إليها
 البواخر الكبيرة ، ولها مستقبل تجارى وحربى عظيم ؛ والجهة التي بها
 الميناء تسمى معقل ويسمىها الأوروبيون مركيل . وأحسبها مسماة باسم معقل
 ابن يسار المزنى . وكان هناك نهر يسمى نهر معقل ، وجاء فى الأمثال :
 إذا جاء نهر الله فقد بطل نهر معقل

والبصرة مدينة البندقية العربية فهى واقعة على شط العرب العظيم
 تخرج منه أنهار كثيرة تخترق المدينة ، فتجرى فى شوارعها الفسيحة تطل
 عليها الدور والبساتين

وأذكر أنى سرت من المدينة إلى أبى الخصيب فى طريق معبدة
تظلمها النخيل والأشجار نحو عشرين ميلا فاجتزت أربع عشرة قنطرة على
الأنهر الآخذة من شط العرب

والبصرة أكثر بقاع العالم نخلا ، بها نحو عشرة ملايين نخلة . ويكاد
النخيل يتصل ما بين القرنة حيث يجتمع دجلة والفرات إلى مدخل خليج
البصرة . وذلك نحو ١٥٠ كيلا . وقد روى الأصمعى عن الرشيد أنه قال :
نظرنا فإذا ما على وجه الأرض من ذهب وفضة لا يبلغ ثمن نخل البصرة الخ
وهذا الخصب العظيم وال عمران الكثيف على مقربة من البادية . فمن
شاء تحضر ونعم بألوان الحضارة ، ومن شاء تبدى واستمتع بحرية البداوة
وبالصيد وغيره

وقد قال ابن أبى عيينة المهلبى يصف البصرة :

يا جنة فاقت الجنان فما يعد لها قيمة ولا ثمن
ألقها فاتخذتها وطناً إن فؤادى لمثلها وطن
زوج حيتانها الضباب بها فهذه كينة وذا ختن
فانظر وفكر لما نطقت به إن الأديب المفكر الفطن
من سفن كالنعام مقبلة ومن نعام كأنها سفن
وقال خالد بن صفوان : « يغدو قانصنا فيجىء هذا بالشبوط والشم ،
ويجىء هذا بالظبي والظليم ... » والשבوط والشم من أنواع السمك
وقال ابن أبى عيينة أيضاً :

وباحبذا نهر الأبله منظرا إذا مد في إبانته الماء أو جزر
وياحسن تلك الجاريات إذا غدت مع الماء تجري مضعدات وتنحدر
وسقيا بساتين البصرة ومزارعها من المد . وذلك أن شط العرب يمد
ويجزر ، وقد وصفه الشعراء والكتاب والرحالون على اختلاف العصور .
قال خالد بن صفوان :

وأمانهرنا العجيب فإن الماء يقبل عنقاً فيفيض متدفقاً ، يأتينا في أوان
عطشنا ، ويذهب في زمان رينا ، فناخذ منه حاجتنا ونحن نيام على فرشنا ؛
فيقبل الماء وله عباب وازدياد لا يحجبنا منه حجاب ، ولا تغلق دونه
الأبواب ، ولا يتنافس فيه من قلة ، ولا يحبس عنا من علة
وقال الجاحظ وهو يعدد عجائب البصرة :

منها أن عدد المد والجزر في جميع الدهر شيء واحد ، فيقبل عند
حاجتهم إليه ويرتد عند استغنائهم عنه ، ثم لا يبطئ عن الأرض إلا بقدر
هضمها واستمرارها وجمامها واستراحتها ، لا يقتلها عطشاً ولا غرقاً . يحجى
على حساب معلوم ، وتدير منظوم ، ومدد ثابتة ، وعادة قائمة ، يزيد بها القمر
في امتلائه كما يزيد بها في نقصانه . فلا يخفي على أهل العلات متى يتخلفون
ومتى يذهبون ويرجعون ، بعد أن يعرفوا موضع القمر وكم مضى من الشهر ؛
فهي آية وأعجوبة ، ومفخرة وأحدوثة ، لا يخافون الحبل ولا يخشون القحط
قال ياقوت الحموي :

كلام الجاحظ هذا لا يفهمه إلا من شاهد المد . وقد شاهدته في ثمانى

سفرات لى إلى كيش ذاهباً وراجعاً ، ويحتاج إلى بيان ليعرفه من لم يشاهده :
وهو أن دجلة والفرات يختلطان قرب البصرة ويصيران نهراً عظيماً يجرى
من ناحية الشمال إلى ناحية الجنوب ؛ فهذا يسمونه جزراً . ثم يرجع من
الجنوب إلى الشمال ويسمونه مداً . يفعل ذلك كل يوم وليلة مرتين ؛ فإذا
جزر نقص نقصاناً كثيراً بيناً بحيث لو قيس لكان الذى نقص مقدار
ما تبقى أو أكثر . وليست زيادته متناسبة ، بل يزيد فى أول كل شهر
ووسطه أكثر من سائر ... الخ . اهـ . كلام ياقوت

وهذا النظام لا يزال سارياً اليوم ، ولكن حفر مدخل الشط
فى السنين الأخيرة لتتمكن السفن العظيمة من الدخول فصار المد أقل
ما كان قبلاً

وأما هواء البصرة فحار رطب . وكان من حسن حظنا أن كنا بها
فى أوائل أيار (مايو) فلم نصادف إلا هواء معتدلاً بالنهار بارداً بالليل . وقد
وصف القدماء هواء البصرة بشدة الاختلاف . قال الجاحظ : من عيوب
البصرة اختلاف هوائها فى يوم واحد ، لأنهم يلبسون القمص مرة ،
والمبطنات مرة لاختلاف جواهر الساعات . ولذلك سميت بالرعاء
قال الفرزدق :

لولا أبو مالك المرجو نائله ما كانت البصرة الرعاء لى وطناً
وذلك أن ريح الشمال فى البصرة باردة ، وريح الجنوب حارة .
ولذلك قال بن لنكك الشاعر البصرى :

نحن بالبصرة في لو ن من العيش ظريف
نحن ما هبت شمال بين جنات وريف
فإذا هبت جنوب

ويكمل الشاعر بيته بشرط لا يحسن إنشاده .

وكانت البصرة إلى عهد قريب كثيرة الحيات ، ويقول ابن بطوطة
بعد ذكر المد والجزر : « وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد » ،
والوان أهلها مصفرة كاسفة حتى ضرب بها المثل . وقال بعض الشعراء وقد
أحضرت بين يدي صاحب الترجمة :

لله أترج غداً بيننا معبراً عن حال ذي عبرة
كما كسا الله ثياب الضنى أهل الهوى وساكني البصرة

وسمعت في العراق أن أهل البصرة قد ألفوا الحمى حتى أن أحدهم
يكون سائراً مع صاحبه فيحص الحمى فيقول له : إنذن لي أن أذهب إلى
البيت لأحم . هذا كله كان قبل أن تنالها يد العناية عناية الحكومة
العراقية . وأما اليوم فقد أصلحت الحكومة الطرق والأنهار والمستنقعات
وتوسلت بوسائل طبية كثيرة حتى قلت الحمى هناك جداً ، ويرجى أن
تنزل فلا يبقى لها أثر بعد سنين قليلة .

ومن الإنصاف أن أذكر ما عرف به أهل البصرة في الماضي والحاضر
من كرم الخلق ورعاية الغريب . قال ابن بطوطة :
« وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وإيناس للغريب وقيام بحقه ،
فلا يستوحش فيما بينهم غريب » .

وفي ياقوت : « وقال شاعر يصف أهل البصرة بالبخل وكذب عليهم » وياقوت خبير بالبلد وأهله .

وكذلك أهل البصرة اليوم تغلب عليهم الأخلاق العربية على كثرة ما نابهم من محن ومر بهم من شدائد .

وفي البصرة مدارس أولية وابتدائية كثيرة ومدرسة متوسطة وأخرى ثانوية . والتعليم فيها يزداد ويزدهر سريعاً . وعسى أن يكون لها بعد قليل ما كان لها من مجد وصيت يوم كانت مهد العلوم العربية والإسلامية . ويعد للبصرة من موقعها وأرضها ومائها وعناية الحكومة العراقية بها ما يضمن لها مستقبلاً زاهراً . وإنا نرجو أن تعيد سيرتها ، وتعمل لخير العربية والإسلام ما عملت في ماضيها إن شاء الله .



الموصل

فصلنا من بغداد يوم الجمعة أول ربيع الأول (٢٢ مايو) ضحى النهار فحاذينا سامراً بعد ساعتين ونصف ، فلم نخرج عليها إذ كان دجلة بيننا وبينها وكان لزيارتها موعد آخر . وبعد ربع ساعة مررنا بأطلال قصر ضخم يقال إنه قصر العاشق الذى بناه المتوكل . وقصور المتوكل رحمه الله وعماراته تملأ سامراً وما حولها ، وقد أشاد بها شاعره البحترى .

وبعد ساعة وثلاث من سامراً ملنا شطر المشرق إلى تكريت فمررنا ببناء قيل إنه قبر الأربعين ، دفن فيه أربعون من الصحابة ، وقد نزلنا ودخلنا فيه ولم تبين حقيقته . وخرافة الأربعين شائعة فى مصر ، يرى فى مواضع كثيرة منها « مقام سيدى الأربعين » . واجتازنا بتكريت على شاطئ دجلة الغربى غير متلبثين بها على ما ملأ نفوسنا من ذكرى الرجل العظيم صلاح الدين الأيوبي ، فقد ولد بها سنة ٥٣٢ ، ومات بها أبوه شادى ودفن هناك .

وبعد الظهر نزلنا فى بييجى آخر محطة على السكة الحديد الممتدة من بغداد إلى الشمال ، ويرجى أن تمتد إلى الموصل . ثم استأنفنا المسير حتى بلغنا الموصل بعد سفر عشر ساعات .

استرحنا فى الموصل إلى صباح الأحد وخرجنا منها إلى الشمال مزعمين أن نرى مدارس البلاد الشمالية ثم نرجع إلى مدارس الموصل . وغادرنا الموصل يوم الأربعاء .

الموصل مدينة كبيرة على شاطئ دجلة الغربى . بيوتها مبنية بالحجارة وهندستها تذكر رائيها بحلب ودمشق . وهى كثيرة السكان عظيمة الأسواق . كان لها شأن عظيم فى التجارة لأنها كانت كما يقول ياقوت : باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان . ولا تزال ذات شأن تجارى عظيم . ولا أريد أن أتحدث عن تاريخها أو وصفها فحسبى أن أذكر طرفاً مما شهدت فيها :

من أعظم مشاهدها الجامع الكبير الذى بناه الرجل الكبير نور الدين محمود بن زنكى المتوفى سنة ٥٦٩ ، وهو الرجل المجاهد العادل التقي المحدث الذى شيد كثيراً من المدارس والمساجد فى أقطار الإسلام . للجامع صحن واسع وإيوان طوله ستة عقود كبيرة وعرضه ثلاثة ، وإلى يمين الإيوان مصلى النساء ...

ومنارته عجيبة تسمى الحدباء لميل فيها يظهر للرأى وعلوها ٦٥ متراً (وهى المنارة التى نغر الأخ الأستاذ زكى مبارك إذ صعد لها بعد أن قيل له إنى أحجمت عنها خوفاً . عفا الله عنه)

ومشينا فى المدينة حتى خرجنا من بابها الغربى القديم ، باب سنجار ، فرأينا مزاراً لقضيب البان أحد الصوفية المتوفى سنة ١١٢٣ . ثم مررنا بقبة صغيرة على بقعة ضيقة ذرعها ثلاث خطوات فى ثلاث وبابها مسدود بالطين . فهل تدرى على أى ضريح قامت هذه القبة ؟ إن تحت هذه القبة ستة قرون من تاريخ الإسلام ! لقد قرأنا على حجر فوق الباب : «عز الدين



أحد مناظر الموصل على دجله

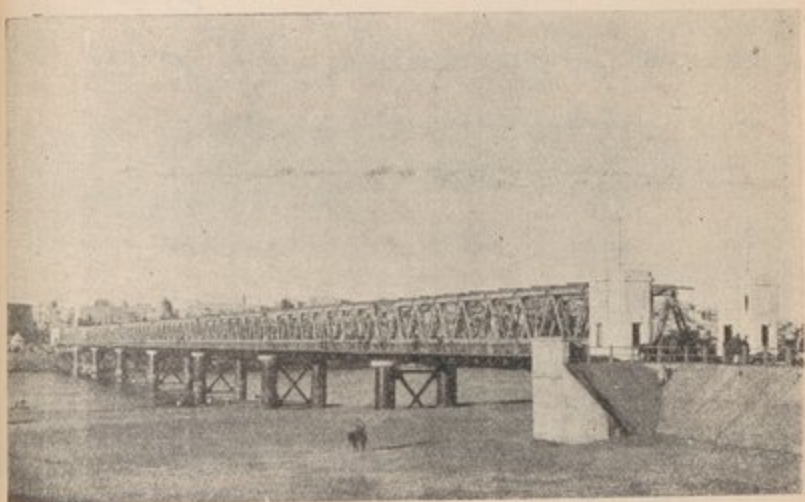
أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد بن ... الجزري المعروف بابن الأثير «
فعرفنا أنه المؤرخ الكبير صاحب التاريخ الكامل .

ورأينا آثار قلعة كبيرة مطلة على دجلة وآثاراً أخرى وجامعاً كبيراً
يسمى جامع النبي جرجيس وبه خزانة يُزعم أن بها شعرات من شعر النبي
صلى الله عليه وسلم .

وذهبنا ضحى يوم الخميس لزيارة قبر حبيب بن أوس الطائي ، فإذا
جدار قصير مثنى الجوانب فوق سياج من حديد ووسطه شجرة . قيل هنا
رفات أبي تمام ، وكان قبره على شاطئ دجلة نخيف أن يجرفه الماء فنقل .
ولله وقفة على قبر أبي تمام ! ماذا توحى من الشعر !

ودعينا إلى نادى الجزيرة وهو ناد جميل وسط حديقة كبيرة مطل
على دجلة شريقها . وكان هناك جمع من كرام أهل الموصل فتكلمت فيهم
وكان مما قلت : إن فى هذه المدينة العظيمة ثلاث مفاخر ؛ ضريح ابن الأثير
يذكركم بتاريخ الإسلام ، وجامع نور الدين يذكركم بعدل المسلمين وجهادهم ،
وضريح أبي تمام يوحى إليكم الشعر الخالد . وما أجمل أن تؤسسوا نادياً
تسمونه نادى أبي تمام تجعلونه ملتقى الأدباء ومجتمع الإخوان ، وتتخذون
شعاره قول الشاعر الكبير لعل بن الجهم :

إن يُكْدِ مُطَرِّفُ الأخاء فإننا	نغدو ونسرى فى إخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا	عذب تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسب يؤلف بيننا	أدب أقنماء مقام الوالد



جسر الموصل الجديد

وقد أرسل إلى أعضاء نادى الجزيرة بعد رجوعى إلى بغداد أنهم
أسسوا دار كتب باسم أبى تمام .

نينوى

ثم عبرنا دجلة إلى أطلال نينوى . وكانت دار ملك الآشوريين
حتى زالت دولتهم ، حين أغار عليها البابليون والميديون وحصروها زمناً
طويلاً؛ فلما يئس ملكها من الثبات للعدو أوقد ناراً عظيمة وآثر أن يحترق
فيها هو وأسرته على أن تناله يد عدوه ، وذلك سنة ٦٠٦ ق . م .

وأطلال نينوى اليوم أكداس عالية من التراب كشفت فى مواضع
قليلة عن بعض الأبنية ولا تزال معظم أسرارها دفينة .

وعلى مقربة من أطلال نينوى مسجد يسمى مسجد النبى يونس ،
وهو نسق جميل عال يطل على نينوى ودجلة والموصل . ولم يحجم واضعو
الأحاديث عن اختراع حديث معناه أن من زار النبى يونس فكأنه قد
زارنى . وقد ضمن الحديث شطراً من بيتين منقوشين على الباب : « من
زاره فكأنما قد زارنى »

جولة فى شمال العراق

بعد يوم من ورودنا الموصل خرجنا منها إلى البلاد الشمالية فطوفنا
فيها ثلاثة أيام ثم رجعنا إلى الموصل .

فصلنا من المدينة والساعة اثنتان ونصف بعد ظهر الأحد نسير صوب الشمال شرق دجلة . وبعد مسيرة ساعتين تغير مرأى الأرض ، فضربنا في بركة ذات وهاد ونجاد حتى بلغنا قرية اسمها : (ديرابون) ذات مياه وأشجار . فجاوزناها إلى قرية صغيرة على شاطئ دجلة اسمها (فش خابور) وقد سماها ياقوت فيشخابور . فبلغناها والساعة ست ونصف مساء . فنزلنا عند رئيسها (عزيز أغا) . وهي قرية أهلها نصارى لهم كنيسة صغيرة على النهر أشرفنا منها على مجرى عميق سريع التيار كثيراً ما تغرق فيه السفن . وعلى مسافة يسيرة شمالى القرية يفضى إلى دجلة نهر يسمى (الخابور) . وليس هو الخابور الذى ذكر فى أبيات أخت الوليد بن طريف :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقي ولا المال إلا من قنا وسيوف
والذى قال فيه بعض الشعراء :

رأت ناقى ماء الفرات وطيبه أمر من الدقى الذعاف وأمقرا
وحننت إلى الخابور لما رأت به صياح النبط والسفين المقيرا
فقلت لها بعض الحنين فإن بى كوجدك إلا أننى كنت أصبرا

فذلك نهر يجرى فى الجزيرة ويصب فى الفرات . وأما هذا الخابور الذى نزلنا بقربه فيصب فى دجلة شرقها واسمه فى معجم البلدان خابور الحسنية .

وهذه القرية على مقربة من الحدود التركية والسورية الآن .

ومرنا ضحى اليوم التالى فسرنا قليلاً حتى بلغنا الخابور ؛ فسايرنا شاطئه صوب الشرق فى إقليم جبلى أخضر . كان على يسارنا نهر الخابور ووراءه جبل عال قيل لنا إنه جبل الجودى . وما زلنا فى أرض ذات شجر ونجم حتى بلغنا زاخو . وهى مدينة صغيرة يشقها نهر الخابور . فنزلنا بها ورأينا مدارسها ، ومنها مكتبان لليهود وهم بها كثير . وزاخو جيدة الهواء والماء ، جميلة المناظر ، تحيط بها بساتين وجبال ذات أشجار . وسكانها نحو أربعة آلاف .

تركنا زاخو ظهراً سائرين تلقاء الجنوب . فمررنا بقرى نزلنا بها قليلاً وانتهى بنا السير إلى دهوك ، وهى مدينة فى إقليم جبلى كثير الغابات وأشجار الفاكهة . والمدينة على سفح يطل على نهر روبال .

ثم استأنفنا السير عصر اليوم نؤم العادية . فما زلنا نسير فى جبال وأودية تشبه جبال لبنان فى روعة مناظرها وكثرة أشجارها وأعشابها ومياها حتى انتهينا بعد سير ثلاث ساعات بين الصعود والهبوط إلى صولاف وهو موضع فى سفح جبل شاهق جداً ، وينصب منه شلال صغير إلى وادٍ سحيق فيروع منظر الماء وصوته .

نزلنا فى ضيافة القائمقام ، وأخذنا حظنا من الراحة بعد سير طويل أنانا مشقته تجدد المناظر واشتغال الفكر والعين بمرأى الجبال والأودية والأشجار المرفرفة على السفوح فى جلالها وجمالها .

وفى الصباح أردنا الصعود إلى العادية ؛ وهى بلدة أسسها عماد الدين



شلال ماء في صماء العراق

زنى عام ٥٣٧ . أين منا العادية؟ قرية بعيدة قريب موقعها من الأرض ، بعيد مصعدها فى السماء . قلعة بنيت فى رأس جبل عال مستدير لا تسع قمته إلا المدينة ، فقد بنيت جدرانها على حافة مهاو مخيفة .

سرنا قليلاً فى طريق مستو على حافة واد عميق حتى انتهينا إلى قاعدة الجبل الذى تقع عليه العادية وقوع النسر . سعدنا قليلاً ثم استعنا بالبغال فسارت خبيرة بمسالكها ومعارجها ومضائقها بين الصخور والمهاوى ، حتى بلغنا المدينة ، وحسبنا أنا بلغنا السماء الدنيا . فنظرنا فإذا جبل سر عمادية القريب منا يُنِيف هائلاً فوقنا ، كما نشرف نحن على الأودية تحتنا ، وكأنه يهون عندنا ما بلغنا من لوح الجو ، ويستصغر عزائمنا التى قنعت بهذا المبلغ من الرقى فى السماء . وعلو هذا الجبل من الوادى الذى فى حضيضه إلى القمة المشرفة عليه ١٨٠٠ متر .

رأينا مدرسة العادية وأعجبنى قراءة الصبيان القرآن ، وهم كرد ولكن عنايتهم بالقرآن ولغة القرآن وقربهم من البلاد العربية ومخالطة إخوانهم العرب مكنتهم فى حداثة السن من إجادة النطق بالعربية وإحسان تلاوة القرآن . وقد رأيت هذا فى مدارس كثيرة فى هذا الإقليم من كردستان . وفى العادية مسجد قديم فيه بئر عميقة جداً يستقى منها الناس ، ومن صهاريج منقورة فى الحجر إذا حوصروا .

وقد قرأت على باب المسجد : « عزّ لمولانا السلطان الملك المعظم العادل المؤيد المظفر المنصور الملك الصالح ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أمير أمراء الشرق والغرب أعز الله سلطانه » .

إلى دهوك فالموصل

هبطنا من العادية وتركنا السيارة من صولاف ظهراً فمررنا بقري منها
قرية سرسك الأشورية ، ومنها قرية زاويته وهى على سفح جبل ركنا
إليها البغال نصف ساعة ورأينا مدرستها وراقنا عمام الصبيان هناك
وفصاحتهم بالعربية وذكاؤهم . ثم زرنا مختار القرية (العمدة) واسمه محو
(أى محمود) وله فى البطش والفتك بالأشوريين وغيرهم سيرة طويلة .
وقد حدثنا أنه قتل زهاء تسعين رجلاً فى عمره الطويل فقلنا : حرام عليك
قال : ما فيهم من المسلمين إلا ستة أو سبعة .

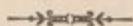
ولما أخذنا نهبط من القرية سار أمامنا ثلاثة من التلاميذ النجباء
أحدهم يلبس زى الكشافة . وقد سألتهم عن بعض الكلمات الكردية
فلما آنسوا رغبتى فى معرفة الكردية نشطوا لتعليمى ؛ فكانوا كلما مروا
شئ فى الطريق قالوا : هذا بالعربية كذا وبالكردية كذا ، فأخذت عنهم
خمساً وعشرين كلمة وكان درساً مفيداً على ظهر البغل . وإنى أذكر أسماء
هؤلاء الثلاثة اعترافاً بفضلهم علىّ وهم : محمد سليم ، وطيب عبد الرحمن ،
وعبد الرحمن طاهر ؛ أنجح الله أعمالهم ويسر لهم الصعاب فى مستقبلهم .
بلغنا دهوك بالعشى فبتنا بها فى دار الضيافة . وللحكومة فى حواضر
الألوية والأقضية (المديريات والمراكز) دور للضيافة يأوى إليها موظفوها
وضيوفها .

وذهبت إلى مسجد دھوك فشهدت صلاة العشاء . وإخواننا الكرد
حريصون على إقامة الشعائر الدينية متمسكون بأداب الإسلام .
ثم لقيت الإمام وهو عالم فاضل اجتمع إليه نفر من طلاب العلم الديني
وعلم العربية من الجهات أكثرهم كرد وقليل منهم العرب .
وقد حدثنا عن طلابه ومعيشتهم وعن العرب والأخوة الإسلامية
حديثاً حسناً ممتعاً ؛ جزاه الله عن العلم والإسلام خيراً .
ثم عدنا إلى الموصل يوم الأربعاء سادس ربيع الأول (٢٧ مايو)
والمسافة بين دھوك والموصل ٥١ ميلاً .



من الموصل إلى سنجار

في مضارب شمر



خرجنا من الموصل يوم الخميس سائرين شطر المغرب . نسير في أرض الجزيرة المعروفة في التاريخ الإسلامي والعربي جزيرة أتور التي كانت مسرح القبائل العربية في الجاهلية والإسلام وبها كانت مدينة الخضر ذات التاريخ العجيب .

رأينا في طريقنا حقول القمح في كل ناحية لا يبلغ البصر منتهاها ، أرض واسعة حصبة إذا أحسن رملها أغلّت أضعاف ما تغلّ اليوم . وبعد ساعتين بلغنا تلّ عفر أو تلّ أعفر ، وهي بلدة قديمة على أربعة وأربعين ميلاً من الموصل ، تقوم على أربع رُبى تنبع في بعض أطرافها عين غزيرة تسقى الناس والزروع .

وقد ذكرها ياقوت باسم تلّ أعفر وقال : « هكذا تقول عامة الناس وأما خواصهم فيقولون تلّ يعفر ، وقيل إنما أصله التلّ الأعفر للونه » وينسب إلى هذا البلد الشاعر المجيد شهاب الدين الشيباني التلعفري المتوفى بحجة سنة ٦٧٥ .

أرجأنا النزول بالبلد إلى العودة ، فسرنا طريقنا بعد أن وقفنا قليلاً

عرف الطريق إلى شمر . وبعد ساعة لاحت مضارب شمر ، وكانت زيارة شمر في مضاربها ، ولقاء الشيخ عجيل شيخ مشايخها ومفخرة مشايخ العرب إحدى مَنَى النفس منذ قدمت العراق .

لقيمنا الشيخ مرحباً فخللنا بين أهلنا في مضارب فيها ألوان الحضارة لمن شاء وجمال البداوة لمن يريد .

إنما الدنيا أبو دلف من مبداه إلى حضره
ولكننا قصدنا مضارب شمر فراراً من الحضارة واسترواحاً إلى البداوة
حسن الحضارة محبوب بتطرية وفي البداوة حسن غير محبوب
أنسنا بحديث الشيخ وأولاده ورأينا تلاميذ مدرسته . وفي شمر مدارس تنتقل مع القبائل حينما رحلت ، ويلبس مدرسوها لباس البادية ويدرسون في خيام كبيرة جميلة ، وهي سنة حسنة تعاون عليها الشيخ عجيل ووزارة المعارف العراقية .

جلسنا لشرب الشاي وأخذ الشيخ في أحاديث ممتعة . وقدما قال الراجز : إن الحديث جانب من القرى . وأذكر من أحاديثه يومئذ حديث الطائرة . قال : ركبت طائرة مع طيار انكليزي ، فبينما نخلق في الجو إذا نحن في الأرض . سقطت الطائرة في لحظة ونظرت فإذا الطيار قائم يصيح ويتكلم ، وقت في عافية ، وأخذ الرجل إلى المستشفى ومات بعد أيام .

ثم رأينا قطع الغنم آيياً من المرعى ، وللغنم في البرية منظر جميل في غدوها ورواحها ، كما قال القرآن الكريم في الإبل :

ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . ورأيت أمام الغم
كبشاً في عنقه جرس يهتدى به القطيع ، ويسمى المِرياع ، وكأنه مأخوذ
من راع يريع بمعنى رجع .

وكان من أحاديث الشيخ على العشاء: رحلت شمر عن نجد منذ أجيال.
ويقال إنهم لما أرادوا عبور الفرات إلى الجزيرة أرسلوا رائداً فرجع إليهم
ومعه كثير من نباتها يشهد بخصبها فقالوا ما فعلت شيئاً . ثم أرسلوا آخر
يتعرف لهم أحوال القبائل الضاربة فيها فإذا ابنة شيخهم قد ماتت وقد جلس
هو للعزاء وأقبل الناس يعزونه، فرجع الرائد يبشر قومه بأن في قبائل الجزيرة
وهناً وخوراً فقد قامت قيامتهم لوفاة امرأة .

ومما وعيته من الأحاديث العجيبة قال: غزا جماعة من شمر ، فلما رجعوا
مروا بحي من العرب فتفرقوا في البيوت ضيوفاً . قال : وقصد واحد منهم
بيتاً منفرداً ليس به أحد إلا صبىة وليس عندها شيء تقرى به ضيفها .
رأها الضيف تخرج وتدخل حائرة باكية . قال : ما خطبك ؟ قالت :
لا أكذبك ، ليس عندي قرى لك . قال : أما عندك إناء فيه دهن
أو سمن ؟ قالت : بلى إناء فيه بقية . قال هاته . فمسح بالدهن يديه وفمه
وقال : الحمد لله . وجلس ريثما أكل رقتاؤه في البيوت التي نزلوا بها
ثم قام إليهم يثنى على أصحاب البيت ويتحدث عن جودهم ويزعم أنهم ذبحوا
له شاة وقدموا إليه طعاماً كثيراً لذيذاً .

جاء رب البيت فأخبرته ابنته وسمع في الحى حديث الرجل ، فاشتري

بضاعة بثمر الشاة والأرز اللذين كان يقرى بهما ضيفه . وما زال يستثمر
البضاعة حتى جمع مالا كثيرا في سنين .

أخذ المال وذهب إلى حيّ ذلك الضيف الذى نزل عنده فلم يطعم
فستر عليه ونث عنه أطيب الحديث .

قال : أتذكر إذ نزلت في حيّ مبنى فلان عام كذا .

قال : نعم .

— هل طعمت عندهم ؟

— نعم ! ذبحوا شاة وطبخوا أرزا كثيرا وبالغوا في إكرامى .

— أصدقنى .

— هو ما أقول .

— أنا رب البيت . وهذا ثمن طعامك ربّيته لك حتى بلغ هذا المبلغ

— وأراه مالا كثيرا —

— لا آخذه .

— أقسم لتأخذه .

— يا صاح ليس هذا حقى . لو أكلت عندك ما أكلت الشاة كلها

ولا الأرز كله . فإنما نصيبى فيه الثلث على الأكثر .

— لتأخذه كله .

— لست بأخذه كله .

فاصطلحا على المناصفة .

ومن طريف ما حدث في مدرسة شمر : قرأ صبي في كتاب فسأله :
ما معنى مُرْعِد ومُبْرَق . قال : يعني يرعد ويبرق . البرق الضوء وقت الغيم ،
والرعد صوت طق طق مثل الترميل . وسألت آخر : ما الغصن ؟ قال :
شِرخ من الشجرة . وسألت آخر : هل رأيت القلب ؟ قال : شايغه ووا كله .
وسألت الصبيان عن الصلاة فقال أحدهم : كلما أصلى أسخّن .

يتمثل الذكاء والفصاحة والصدق في هؤلاء الأطفال . ورأيت حواراً
يسقى اللبن (واللبن في العراق يقال للبن الحليض) قلت : ماله ؟ قيل : ماتت
أمه . فأطفنا بالحوار نتحدث عن الإبل وأسنانها . قال صاحب الحوار :
هو حوار ثم مخلول ثم مفروود ثم جَذَع ثم ثني ثم رباع ثم خماس ثم عود .
وكذلك عرفت من أسماء الهوادج وحبال الخيام الخ .

وقد رويت عن الشيخ صفوق بن الشيخ عجيل كثيراً من شعر
البادية في وصف الخيل وغيرها . وعنده كتاب كبير يتضمن شعراً كثيراً
في حوادث ومسائل شتى . ولولا أن هذا الشعر يحتاج إلى أن يسمع ليصحَّ
النطق به لأثبتُ بعضه هنا .

سنجار

برحنا مضارب شمر إلى سنجار عصر يوم الجمعة فمررنا بعزبة اسمها عين
الغزال ؛ وبلغنا سنجار قبيل الغروب وبين سنجار والموصل ٨٤ ميلاً
أبدأ الحديث عن سنجار بخرافة مضحكة ذكرها ياقوت . يقال إن سفينة

نوح لما قرت بجبل سنجار نطحته فقال نوح : هذا سن جبل جار علينا
فسميت سنجار. الخرافة تدل على افتخار أهل البلد بعلو جبلهم. وفي رواية
أخرى أن السفينة حين نطحت الجبل استبشر نوح وعلم أن الماء شرع ينضب،
فسأل عن الجبل فأخبر به فقال : ليكن هذا الجبل مباركاً كثير الشجر والماء
والبلدة على جبل عال . وهي قسمان قسم على الجبل يسكنه اليزيدية
وجماعة من المسلمين ، والقسم الثاني على السفح ويسكنه أخلاط من أرباب
الأديان. ويفصل بين القسمين مجرى ماء ينحدر من ينابيع فوق الجبل يستقى
منه الناس ويستقون بسايتهم ثم يفضى إلى وادى الترناز فيجرى إلى بلاد
أخرى . وقد رأيت النساء ينقلن الماء في قرب صغيرة يحملنها على ظهورهن
وهواء سنجار بارد أضر بنا بردها في شهر أيار (مايو) ومناظرها جميلة،
ويتبع سنجار أكثر من خمسين قرية .

وفي سنجار ٢٥٠٠ من المالمين و ٧٠٠ من اليزيدية والنصارى وهم
فرق كثيرة .

وذكرت سنجار في التاريخ والشعر كثيراً ونسب إليها كثير من العلماء
والأدباء. ويقال إن سنجار بلد آشوري قديم عرف قبل ستة آلاف سنة
ومن حوادثها وهي كثيرة ، أن اليزيديين اعتصموا بها سنة ١٨٠٧
فحاربتهم الحكومة العثمانية حتى أذلهم .

أمضينا في سنجار ليلة سعيدة ورأينا مدارسها صباح السبت ثم خرجنا
منها ظهراً إلى بلد اسمه جدالة من قرى اليزيديين بينه وبين سنجار مسيرة

نصف ساعة . رأينا مدرسة لليزيديين صغيرة . وهذا حدث في تاريخهم عظيم ، والمعروف عنهم أنهم يحترمون القراءة والكتابة ، وكان معلم المدرسة عبد الكريم منهم وهو ابن اسماعيل بك أجد رؤسائهم . وبعد زيارة المدرسة ذهبنا إلى دار للضيافة اجتمع فيه اليزيديون مرحبين بضيوفهم . وبعد قليل استأذنا في المسير وأخذنا صورة لبعض بنات القرية ولتلاميذ المدرسة وانصرفنا .

وذهبنا إلى مضرب آخر من مضارب شمر فنزلنا في خيمة كبيرة ريثما سلمنا على القوم وتحدثنا معهم وشربنا القهوة ثم ذهبنا إلى مدرسة كاثي رأيناها من قبل في مضارب الشيخ عجيل .

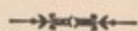
ثم أخذنا طريقنا إلى مضارب شمر الأولى فبتنا في ضيافة الشيخ عجيل مرة أخرى ، وأمضينا شطراً من نهار الأحد هناك .

ثم ودعنا الشيخ وأنجاله النجباء شاكرين نوّد أن تتاح لنا الفرصة للإقامة أياماً أو العودة بعد قليل . وقد قلت للشيخ حين الوداع : نراك إن شاء الله في شمر أو بغداد أو القاهرة . فقال في كلهن إن شاء الله . وقد نعمت بلقائه في القاهرة الشتاء الماضي ، وأسأل الله أن يسرنا بلقائه في بغداد وشمر أيضاً .

ويوم الأحد عدنا إلى الموصل لنبيت بها استجماً للسفر إلى بغداد .

بين القاهرة واستنبول

١ - دمشق



يا صديقي صاحب الرسالة :

أحسبك رأيت من قبل دمشق فأثقتك مرآها ، ونفحتك رياها ،
وآنتك ذكرها ، ودارت بك منازلها وطرقها بين الماضي الجيد ، والحاضر
المجهود ، والمستقبل المنشود . ولعلك أشرفت من قاسيون على البلد الجميل
تحيط به الحدائق الشجراء متصلة بين المزة والغوطة فسرحت الطرف والقلب
في مرأى جميل ومنظر بهيج . ولا ريب رأيت بركى يتبطن الوادى ،
ويتسنى الجبل ، وينسرب في شرايين المدينة فيسرى في دورها ومساجدها
وحماماتها وشوارعها ، وتسمع أحيانا خريره في جوف قناة أو جدار لا تتبين
مآتاه ومذهبه ، ومن قبل قال ياقوت :

« قتل أن تمر بجائط إلا والماء يخرج منه في أنبوب إلى حوض يشرب
منه ، ويستقى الوارد والصادر . وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاها
إلا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان ، ويسح في ميضته »
وأحسبك يا أخى مررت بمعاهدها فأحسست وقدة بين الضلوع ،
أو طرحت كما يقول البحترى ثقلاً من الدموع .

دخلت إلى الجامع الأموى من باب جيرون ورأيت فى الطريق المفضية إلى الباب صفًا من العمد العادية ، وتمثلت القرون تُنسخ القرون ، والعصور تحطم العصور ، وولجت الباب العظيم إلى الصحن الفسيح فالتفت إلى شمالك فرأيت صور الدور والأشجار والأنهار مصورة بالفسيفساء منذ عهد الوليد . ثم ملت إلى اليمين فدخلت الجامع تزوَعك العمد العالية الضخمة تمتد فى صفوف مديدة ، ورأيت أمام القبلة قبة النسر الشاخنة تزهى بما أشرفت على التوحيد فى محرابه ، وأظلت الحق فى جماله وجلاله ؟

وما أحسبك رقيت فى المنارة الشرقية ، وشهدت فى مرتقائك حجرة يقال إن الغزالى كان يعتكف فيها ، ثم بلغت القمة بعد جهد فجمعت أمامك المدينة ، وزويت الأرض كأنك تطالع منها صورة فى رقعة فقلت :
صعدت فى قمة التاريخ مأذنة لها من الحق والتاريخ أحجار
فإذا تركت الجامع الكبير فهناك مشاهد أخرى عظيمة ، وذكرىات
جلیلة .

— هل مررت بالرجل الصالح نور الدين محمود ثم البطل المجاهد صلاح الدين يوسف ؟ هل وقفت على ابن أيوب فقلت :
فيا لك قبراً على قبره تظل العقول به فى سفر
ويا لك قبراً كعين البصير يحوى العوالم منها صغر
وهناك المدرسة العادلة وبها الجمع العلمى اليوم ، والمدرسة الظاهرية
حيث ضريح الملك الظاهر بيبرس وبها دار الكتب ، ودار الحديث

لأشرفية وكان من نزأها العالم التقي الذي لم تأخذه في الحق رغبة ولا رهبة
محبي الدين النواوى . ولا تزال حجرتة بها معروفة ، ويقول بعض المحدثين
ولعله ابن حجر :

وفى دار الحديث لطيف معنى أطوف حول مغناه وآوى
لعل أن أصيب بحرّ وجهى مكاناً مسّه قدم النواوى
وهل صعدت فى الصالحية إلى ضريح محبي الدين بن عربى أم نفرت
من هذا الشيخ الغريب واللغز العجيب ؟ على أن بجانبه بطلاً من أبطال
الجهاد وسيفاً من سيوف الجلاد : الأمير عبد القادر الجزائرى . وإن أردت
مزار الرجل العالم الصالح الصوفى الشاعر ذى المناقب الحميدة وصاحب
التأليفات الكثيرة الشيخ عبد الغنى النابلسى فليس بعيداً من ضريح
محبي الدين تسلك إليه طريقاً مقفّرة بها مدارس دارسة ، منها المدرسة القمرية
فإذا صعدت فى الصالحية فهناك من الآثار ما يشقّ تعداده : مدارس
ومساجد ومستشفيات . وهناك جامع الحنابلة الذى قرأ به الذهبى وابن قدامة
وغيرهما من كبار العلماء ، والمدرسة الضيائية وكانت تحفظ بها خطوط كبار
المحدثين وهى اليوم كتاب ، حتى ينتهى الصعود إلى مقبرة الصالحية حيث
قبر محمد بن مالك النجوى فى قبور كثيرة للعلماء والكبراء

وفى أطراف المدينة مشاهد كثيرة للصحابة فمن بعدهم . ولا تنس وقفة
على قبر بلال فى مقبرة الباب الصغير لترى الأذان مضمراً فى كتابه ،
وتسمع الصوت مكنوناً فى نايه ، بل تسمعه جهورياً مدوّياً يملأ الفضاء ، ويبلغ

عنان السماء « كالخط يملأ مسمعى من أبصرا » أو كما أشارت الموسيقى :
خطوط فى البصر ، ونغمات فى الأذن ، ووجد فى القلب . وهل الأذن
فى المشرق والمغرب إلا صوت بلال مردداً قد بقى فى القبة الزرقاء صدى
توالت رواته واتصلت نغماته ؟

وهل جُلّت فى الغوطة تحنو عليك أشجارها ، وتترقق عليك ظلالها ،
وتطالعك من بين الغصون شمسها ، وتمادى بك مسالكها بين الزروع
والأشجار :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها فى بجنوب الغوطتين شجون
وهناك ضريح سعد بن عبادة قد اعتزل الناس فى مماته ، كما اعتزلهم
فى آخر حياته :

وهل سرت إلى دوما ومررت بجوهر فذكرت قول القائل :
إذا افتخر القيسى فاذكر بلاءه بزراعة الضحاك شرقى جوهر
أو قول الأمير شكيب أرسلان فى الصديق الأديب الشاعر خليل
مردم بك : « وإليه تمجنى جوهر وكنيسها »

يا أخى وكيف تمجيش الفكر وتنبع الذكر حين يقترب المسافر من
المدينة الخالدة فيلقى نضارتها ويجد روحها عند الهامة . فإذا أجاز إلى دمر

فَهِناكَ بَرْدَى عَنْ الِيمينِ وَالشَّمالِ مُتَدَفِّقًا فِي ظِلالِ الْأَشجارِ أَشجارِ الحُورِ
 الباسقات . وَللهُ مَجْلِسٌ عَلَى بَرْدَى تَذُوبٌ فِي مائِهِ النِّظراتُ ، وَتَساقُطُ
 عَلَيْهِ مِنَ الحُورِ نِعماتُ . فَإِذا بَلَغتِ الشاذِروانُ فَغَمَمَكَ عَرَفَ دِمَشقَ وَشَمَّتْ
 أَخْلاطًا مِنَ الرِّوايحِ الطَّيِّبَةِ أَمَدَّتْ بِها الْأَشجارُ وَالْأعْشابُ ، رِوايحٌ يَعْجِزُ
 عَنْها الوَصْفُ إِلَّا أَنْ يَسْمِيها « نَفحاتُ دِمَشقَ » . وَهَلْ جَلَسْتَ بِالرِّبوةِ
 فَسَمِعْتَ الْمُعْجِبِينَ بِها يَقُولونَ : إِنَّها الرِّبوةُ الَّتِي ذَكَرَها الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ
 فِي قَوْلِهِ : « وَأَوِيناهُما إِلَى رِبوةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينِ » هَناكَ بَرْدَى سَبْعَةُ أَنْهَرٍ
 تَجْرِي فِي الوادِئِ وَعَلَى الصِّدْفَيْنِ وَفوقِ الْجَبَلِ . وَيَخْرُجُ مِنْ نَهْرِ يَزِيدُ — وَهُوَ
 فُوقِ الْجَبَلِ لَا يَرى — شالالٌ عَلَى الرِّبوةِ لَا يَمِلُ الشَّاهِدُ مَرآهَ وَمَسْمَعَه
 أَمَّا أَنَا يَا أَخِي فَلَسْتُ أَمَلُّ التَّرَدُّدَ بَيْنَ دِمَشقَ وَدَمَّرَ أَجَدُ هَناكَ جَمالًا
 لَا يَحْدُ ، وَسِحْرًا لَا يَنْفَدُ . وَقَدْ رُدَّتْ هَذِهِ الْمِشاهِدُ مَرَّاتٍ ، وَرَأَيْتُ لَها
 فِي الْقَمَرِ آياتٌ ؛ يَتَمَعَّجُ بِنِا الوادِئِ بَيْنَ الْجَبالِ وَالْأَشجارِ ، وَمِياهُ بَرْدَى
 تَسِيلُ بِها رِبوةٌ ، أَوْ يوسوسُ بِها ثَعْبٌ ، أَوْ يَتَغَنى بِها بَسْتانٌ ، فَلَا تَقْتَنُ
 تَسْمَعُ مِنْهُ حَدِيثًا يُؤَلَّفُ مَعَ حَفيفِ الرِّيحِ مُوسِيقى هَذا الْجَبالِ الْفَتانِ ،
 وَالْوادِئِ يَدُورُ بِنِا دُورائِهِ ، وَالْقَمَرُ يَلْعَبُنا بِطُلُعاتِهِ عَنْ الِيمينِ وَالشَّمالِ وَأَمامَ
 وَخَلْفَ . وَلِلْقَلْبِ بَيْنَ ذَلِكَ مُضْطَرَبٌ ، وَلِلشَّعْرِ مَذْهَبٌ أَىْ مَذْهَبٌ . كَانَ
 يَخِيلُ إِلَيَّ أَنَّ هَذِهِ الْمِياهُ الثَّرثارةَ حُزَمٌ مِنَ الْأَشعَّةِ ، وَأَنَّ أَشعَّةَ الْقَمَرِ رِشاشٌ
 مِنْ بَرْدَى ، وَأَنَّ هَذا النِّسيمَ الْمُعْطَرَّ مَزِيجٌ مِنَ الْماءِ وَالضِّياءِ يَنْضَحُ وَجْوهَ

السابلة : شعر تفيض به الأرض والسماء ، وسحر ينفثه الماء والهواء ، وإلهام يفيض به الجنان ، ويعجز عنه البيان .

يا صديقي قد صدق البحترى إذ قال :

إذا أردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا
يُمسى السحاب على أجبالها فرقا ويصبح النبت في صحرائها بددا
فلست تبصر إلا واكفا خضلا أو يانعا خضرا أو طائرا غريدا

دمشق

هذي دمشق نخل القلب يمتار طالت على القلب أشواق وأسفار
كم ماطلتك بها الأيام أمنيّة لها على الدهر إعلان وإسرار
حطّ الرحال فهذا جهرة بردى وذى دمشق . هناك الأهل والدار
لا تُعجّلني فما الأيام مُسعدة لا تُخدعني فصرف الدهر غدار
دعني أولف آمالاً مشتتة وأسمع القلب . ملء القلب أسرار
دعني أزود قلبي ملء مُنيته ففي فؤادي أسفار وأخطار

وردت جلق ملتاعاً ومغبطاً تطفئ بنفسي آمال وأفكار
دمشق مجتمع الأعصار قد زخرت فيها كما اندفقت في البحر أنهار
خُطّت أُمى سراعاً فوق رقعتها من الوقائع أسطار فأسطار
فكل رجل على التاريخ سائرة وكل طرف إلى التاريخ نظار

للأذنان دوى فوق أربعها وللأذان بيطن الأرض إسرار
بذيع قبر بلال^(١) في مآذنها صوتاً له من وراء الغيب تسيار
كالنبع شق الصفا والترب فازدهرت منه الخائل ، وهو الدهر ثرار

ذهبت للمسجد المعمور^(٢) أسأله وقد تدل على الأعيان آثار
رأيت فيه خلال القوم مائلة وللبناء من البانين أقدار
علوت في قمة التاريخ مأذنة^(٣) لها من الحق والتاريخ أحجار
تطوف حولي خطوط الدهر في صخب وترحم العين دولات وأقطار
أرى الوليد على ملك لسطوته ذل الزمان ، وفيه المجد خطار
دانت لهيبته الأهوال واجتمعت في همّة العرب أقطار وأعصار
كان ما بين سيحون وقرطبة على الخريطة أفتار وأشبار

أحيت دمشق رميم الشعر في خلدي لا غرو قد تبعث الأشعار أشعار
وقفت فيها أسيم الطرف في فتن من الجمال لديها الطرف يحترار
كلا فؤادي وطرفي فوق بهجتها بين الخضيض وبين السفح طيار
تندى القلوب وتجوى من نضارتها ورب أخضر منه تقدح النار
واها لقلبي إن يبد الجمال له سطرّاً تبدت من الآلام أسفار

(١) بلال بن رباح مؤذن رسول الله . وقبره في دمشق

(٢) مسجد جامع بني أمية بدمشق

(٣) مأذنة الجامع الأموي صعدت فيها مع بعض الأصحاب

خافى المطامع طمّاح المنى عزم
وقاسيون على الجنات مطّلع
عاري المناكب بالشجراء مُتَزَر
نسرٌ يرى اللّوح منه هامة عطلا
والصالحية حيا الله ساكنها
شجراً فؤادى عفاء فى مدارسها^(١)
يا دار هذا زمان السعد فابتسمى
على الشدائد والسراء ثوار
بين الرياض وبين الشهب نظار
ثبت الجنان على الأحداث ، جبار
لكنه ذنب الطاووس جرّار
وحى فى سعدّها دار وديار
والدهر بالناس دولات وأدوار
لا فاتك السعد بعد اليوم يادار

وقفت بالغوطة الخضراء أنشدّها
هفا كما انطلق العصفور من قفص
قالت : رأيت دمشقاً فى مفاتها
فصل دمشق هناك الروض مزدهر
قالت : دمشق وما عندى به خبر
بادمّر الحسن قلبي فىك مرتهن
ردى فؤادى فى دهرى له عِدّة
فقد وردتك يوماً فى حمى نفر
كأنما كل حر فى عزيمته
وكان مجلسنا أَيْكاً على بردى
قلباً أضلّته أفياء وأشجار
دعته فى الروض أطيّار وأزهار
فكيف ينجو فؤاد فىك شّعار ؟
والجو مبتسم والحسن سحّار
سائل بدمر لا يخذعك إنكار
لا تجحديه فما يجديك إصرار
وفى فؤادى لأرض العرب أوطار
من الغطاريف فيهم يأمن الجار
نجم يضىء على الأهوال سيار
تردد الحسن فيه فهو محتار

(١) فى الصالحية مدارس إسلامية قديمة خربة

زجى الأحاديث من شكوى ومن ألم ومن أمانٍ ذوت فيهن أعمار
 بنى على أسس التاريخ آتينا والمعالي من التاريخ أسوار
 ونشد الجحد تدعوه عزائمنا والجحد مصغ إذا ناداه أحرار
 إني أرى الجحد قد أضفى أشعته وأشرقت فيه دولات وأمصار
 أبصرت في الظلمات الشمس طالعة لما تراءى لنجم الصبح إسفار

٢ — من دمشق إلى القسطنطينية

يا صديقى الزيات :

لعل رسالتى التى حدثتك فيها بطرف من أحاديث دمشق قد بلغتك .
 وهذه رسالة أخرى أطرفك فيها ببعض ما وعت النفس من مشاهد الطريق
 بين دمشق والقسطنطينية . وأرجو أن أواصل الرسائل من بعد :
 ترددت برهة كيف آخذ طريقى من دار الأمويين إلى دار العثمانيين .
 أأركب إليها البحر من بيروت وأرجع من طريق البر ، أم أخترق اليبس
 إلى غايتى ؟ وكنت ركبت السفينة بين الاسكندرية والقسطنطينية مرتين
 قبلاً . فقلت لنفسى : ماذا تفيد من رؤية ما رأيت ، وحافظ الشيرازى
 يقول :

من جرّب الحرب حلت به الندامة

وماذا تجدي عليك رؤية الدأماء صباح مساء ؟ لجة واحدة وأمواج متشابهة ، كأنها ساعات العمر في بحر الزمان !

صح العزم على سفر البر . نخرجت من دمشق بعد ظهر الثلاثاء ١٩ جمادي الأولى (٢٧ تموز) في سيارة أعدتها شركة السكك الحديدية لتُبلغ المسافرين حمص فيركبوا منها سكة الحديد إلى حلب . وقد ابتليت برفقة ليس بيني وبينهم سبب . فأرحت لساني وأذني ، وسرّحت طرفي في الفضاء ، وفكرى في مسارح لا تحد بين الماضي والحاضر ، والقريب والبعيد . وكان للسيارة سواق ذكرنا بقول القائل : « قد لقها الليل بسواق حُطم » . فانطلق بنا لا يألو إسراعاً حتى يكاد الماء في جوف السيارة يشتعل ، فيقف ريثما يفتأ الماء . والطريق أكثرها صحراء جرداء تسيرها جبال وتلال ، وتزينها بين الحين والحين قرى ومدن ومشاجر ومياه ، ولا سيما قرب حمص . ولم نقف على الطريق إلا في النبك ، لبثنا به قليلاً .

هذه حمص بعد سبع سنين ولات حين تلبث . إن الوقت لا يمهلك حتى لزيارة خالد بن الوليد . فاصبر حتى تعود أدراجك من هذه الطريق . فتقضي حق العين والفؤاد من هذه المشاهد .

بعد قليل جاءت من طرابلس عربية كعربة ديزل المعروفة في مصر ، وتسمى في الشام باسمها الفرنسي : « أوتوموتريس » . أخذت مكاني بها وانطلقت سريعة تطوى ما بين حمص وحلب ، والطريق هنا أكثر ماء وشجراً وزرعاً . وفي الطريق لاحت حماة في زينات من شجرها ومائها ،

ونغمات نواغيرها منشورة في السهل تدور بالماء والماء بها يدور ؛ لا تقترنهاراً ولا ليلاً . وتذكرت قول القائل :

ناعورة مذعورة للبين حيرى سائرة

الماء فوق كتفها وهى عليه دائرة

وتذكرت أنى حين قرأت هذين البيتين في المدرسة ظننت الناعورة هى : (الساقية) بلسان أهل مصر . ثم عرفت فرق ما بينهما حين ذهبت إلى الشام أول مرة . ومن رأى نواغير الفيوم فقد رأى صورة صغيرة من نواغير الشام الماثلة في الفضاء على نهر العاصى عالية رائعة .

وبلغنا حلب بعد الساعة الثامنة من المساء . فقصدت إلى فندق البارون ؛ اضطررتى إليه ، على تفرقى من هذه الأسماء الأفرنجية في البلاد العربية ، أنى أنزلت به مرة ، ولم أعرف من فنادق حلب غيره . وقضيت به بقية الليل . وأصبحت مبكراً إلى القطار ، قطار الشرق السريع . لم أر في حلب شيئاً ، ولم ألاق بها صديقاً . وسأعود إلى حديث حلب وحمص في رجوعى إلى الشام إن شاء الله .

وجاء القطار الفخم قد كتب عليه بالفرنسية والتركية ذات الحروف اللاتينية : « قطار الشرق السريع » . وسألت أحد عمال القطار عن عربات النوم . فقال لصاحب له بالتركية : « دلّه عليها » . فقلت : هذا أول المُجمعة وطلائع الغربة .

أخذت مكانى بالقطار موطناً النفس على السفر ستاً وثلاثين ساعة ،

ورفيقي فكرى وخيالى وديوان البحرى . سار القطار والساعة سبع من الصباح ، وكان شريكى فى المقصورة انكليزياً ذاهباً من العراق إلى بلده فى إجازة قصيرة ، ولكنى وجدت عن ملازمته ميلاً ومندوحة فى مقصورة أخرى خالية خلوت فيها بصاحبى البحرى . على أنى لم أدم من الإنكليزى الشيخ صحبة . ونم الصاحب أبو عيادة . وكنت ألقاه حيناً فحيناً فنتحدث ونتفكه ، أجده جالساً بين عدة السفر من : البببة والسجاير والكتب . ولست أنسى رثائى له حيناً أضلّ منظاره فاضطرب حيناً يبحث عنه . ثم جلس كثيباً يقول : إنى لا أستطيع القراءة بدونه ، وكيف أقطع الطريق إلى لندرة بغير قراءة ؟ إنه منظار ثمين ؛ إنه يلائم عيني . ثم يهيج فيتهم خادم القطار بالسرقة . ويأس ، فأعيد الأمل فى نفسه ، فيعود يبحث عنه وأبحث معه . وجاء الخادم يقول : لعلها فى حقيبتك . ففتح الحقيبة مغضباً وأخرج ما فيها من ورق وقال للخادم بالانكليزية — وهو عالم أنه لا يعرف منها كلمة — : أنظر ! أنجدها هنا ؟ أنت على يقين أنها ليست هنا ؟ أمطمئن أنت إلى أنها ليست هنا ؟ ثم رجعت إليه بعد حين فإذا هو متهلل الوجه مسرور . فلما رآنى وثب يرينى كيف انزلق منظاره وراء الباب وكيف وجده . فشاركته السرور وأعدنا الحديث عنه ضاحكين بعد أن أطلنا الحديث عنه آسفين ...

وبعد ساعتين من حلب دخلنا إقليماً جليلاً مشجراً تخلل القطار فيه أنفاقاً كثيرة متعاقبة على سفوح الجبال حتى بلغنا ميدان أقبس على الحدود

بين سورية وتركيا ، والساعة تسع وخمسون دقيقة ، فوقف القطار زهاء نصف ساعة . وجاء موظف تركي فسأل : من أين ؟ قلت : من مصر . قال : إلى أين ؟ قلت : استانبول . قال : أمعك أشياء للجمر ك ؟ قلت : لا . قال : كم معك من النقود التركية ؟ قلت : قليل لا يتجاوز كذا . قال : مع السلامة .

وبلغنا ، والساعة ثلاث ونصف ، محطة اسمها مصيص . قلت لنفسى : هذه ولا ريب المصيصة التي كانت ثغراً بين البلاد الإسلامية وبلاد الروم زمناً طويلاً . هنا نهر جيحان ، وهنا مغازى سيف الدولة ، وفي هذا الإقليم وما يجاوره نظم المتنبي ما نظم من قصائده . أليس يقول أبو الطيب لسيف الدولة :

سريت إلى جيحان من أرض آمد ثلاثاً لقد أدناك ركض وأبعدا
ومن قبل قال عدى بن الرقاع العاملي :

فقلت لها كيف اهتديت ودوننا دُلوك وأشراف الجبال القواهر
وجيخان ، جيخانُ الملوك وآلس وحزن خَزازي والشعوب القواسر
أجل ! وهنا أطراف العواصم التي يفيض بذكرها التاريخ والشعر العربي .
وسرنا بعد المصيصة ثلاثين كيلاً شطر الغرب . فأتسع السهل وانتشرت
الخضراء ، ووافينا أظنة والساعة أربع . ندع حديث أظنة وما يليها إلى
العودة ، ونسير إلى الشمال زهاء ساعة فنوافي جبال طوروس ، وما أعظمها
منظراً جميلاً رائعاً هائلاً : سفوح مخضرة يصعد فيها الطرف حتى يبلغ قمم

شاهقة تكاد العين تقصر دونها . قم متنافسة متسامية إذا صعد البصر إلى
إحداها انزلق على السفح ليرقى في سفح آخر إلى قمة أخرى ، وإذا أسفَّ
النظر إلى الحضيض فهناك الأودية العميقة السحيقة يهول الناظر عمقها ويروقه
بين الحين والحين مياه تجري بسرعة مزبدة متعرجة كأنها الأرقام راعها
القطار فانسابت إلى محاجرها . وتتوالى مرأى طوروس في جمالها وجلالها
واختلاف ألوانها وارتفاعها واستغالها وما يشغل العين والفكر من صورها ،
والقطار على السفح مُوفٍ على هذه الأودية الهائلة يصعد متمهلاً وينهر
أحياناً فيقف زاحراً زافراً لا يقوى على المرتقى . فإذا أعدَّ العدة من مائه
وناره وبخاره عزم فصعد جاهداً مجهوداً . وبعد نصف ساعة على هذه
السفوح تعاقبت أنفاق لبث القطار فيها نحو عشرين دقيقة كلما بشرَّ الضوء
باتهاء أحدها أقبل الآخر في ظلامه يلتهم القطار .

ومن بدائع الجناس أو المقابلة في هذا الجمال البديع أذواد من الإبل
في أودية طوروس ، لم تذهب بجبالها وروائها مناظر الجبال العظيمة ؛ وأما
سرب المعزى الذي رأيته هناك فلا أدري من أى أنواع البديع مرآه هناك
وتوالت ذِكْرُ الآل والأصحاب فإذا لسانى يترنم بهذه الأبيات :

ذكرتك إذ طوروس في اللوح مُصعد يظلُّ بأهداب السحاب يُعَمِّم
يطير بى الإعجاب بين سفوحه وهاماته والقلب فيه مقسَم
ويفزع من وديانه كل ناظر ويختار فيه الطرف كيف يَمِمْ
جمال تروود العين بين رياضه عليه جلال بالمهابة مغمم

فأيقنت أن ذكراك أروع مشهداً وأجل من طوروس عندى وأعظم
واتتهى بنا الإصعاد إلى مكان اسمه أولوقشلة . وهو أعلى موضع
فى طريق طوروس . وبعده بقليل تلتقى الطريقان : الطريق الآتية من
أنقرة ، والآتية من قونية

وجنّ الليل وبات القطار يسرى فأصبحنا عند أنقرة والساعة سبع
من الصباح : وأستاذنك يا صديق أن أطوى المسافة بين أنقرة واستنبول
والحديث عنها إلى العودة فقد كان نصيبى من هذه الديار فى عودتى أوفر ،
وأنسى بها أطول ، ثم أخشى أن تمل الحديث الطويل والرسالة المسهبة .
فسلام عليك إلى أن أكتب إليك

٣ — المتحف العسكرى

يا أخى صاحب الرسالة :

سلام عليك . لا أقول : هذه ثالثة الرسائل خيفة أن تقول فى نفسك
« ثالثة الأثافي » بل أقول : هذه الرسالة الثالثة أرسلها إليك من استنبول
لأصف لك مما رأيت

خرجت من مسكنى فى تقسيم أوّم المتحف العسكرى ومعى زميلى
الدكتور زيادة ، فلما أجزنا الجسر — جسر غلطة ^(١) شرعت السماء تزدنا

(١) جسر يصل جانبي المدينة : استنبول وغلطة ، وهذه التسمية لجانبى المدينة
قديمة وقد ذكرها ابن بطوطة ، والجسر فى مدخل خليج القرن الذهبى وهو جسر
ضخم عائم ترفعه عائمات ضخمة بجانبها عائمات أخرى اتخذت طريقاً ومراسى للبواخر
الصغيرة ومطاعم ومجالس للسافرين



جسر غلطة



منظر لجامع السلطان أحمد

حتى إذا بلغنا ساحة أياصوفيا وملنا شطر قصر « طوب قبو » انهمر المطر فأوينا إلى الباب ، وهو باب شاهق واسع عليه الطغراء السلطانية ، يمتد على جانبه سور عال كأسوار القلاع ؛ أوينا إليه مع من ألتأم المطر ، وازداد المطر انهماراً فطال بنا الوقوف . ولست أنسى مشهداً رائعاً شهدته هنالك : إلى اليسار سبيل السلطان أحمد في جمال هندسته وحسن نقشه ، وحلى من الخط والمعنى تتجلى بها أبيات من الشعر أطافت به ، وإلى اليمين جامع أياصوفيا يبدو جانب من قبته ، وماذنتان من مآذنه الأربع ؛ وأمامي على بعد جامع السلطان أحمد في جلال قبابه وجمال بنائه ، قد علت قبته ومآذنه الست أهلة ذهبية يزيدھا المطر اشتعالاً ، وهيهات أن تذهب بنور التوحيد سُدف الدجن أو شآبيب المطر . وجامع السلطان أحمد أجمل جوامع استنبول في رأيي وأكثرھا إضاءة في قلب الداخل وعينه ؛ ما يزال الطرف يتقلب بين جدرانه وأساطينه وقبابه حتى إذا بهره الجمال والجلال استراح إلى مرأى البحر من خلال النوافذ الزجاجية الجميلة . وقد دخلته قبل ثمانى سنين ، فلما رأيت هذه الأساطين الأربع الهائلة قلت : « يالك أربعة أساطين حملت الدنيا والدين ! »

خفّ المطر فأسرعنا صوب المتحف العسكرى فإذا هو مقفل إلى الظهر فأوينا إلى باب « الضربخانة » ، ولما أذن المطر بالمسير انصرفنا نسير في أرجاء المدينة . ثم عدنا إلى المتحف ، وهو في كنيسة قديمة اسمها سنت أرينا رُصّت خارجه مدافع كثيرة جاهدت في عصور مختلفة . فيها مدفع كبير

بجانبه قذائف مكورة من الحجر وقد نقش عليه بالعربية بيتان يدلان على أنه من مدافع سليمان ، وأنه صنع سنة ٩٢٨ هـ . وهناك مدافع أخرى نقش عليها أسماء صانعيها ؛ وأمام المتحف قنبلة سوداء مخروطية طويلة هي بعض ما ألقاه الأسطول الإنكليزي على الجيوش العثمانية حينما سدت طريق الدردنيل بأبدانها وإيمانها .

وفتحنا الباب فإذا دهليز على جانبيه تمثالان لجنديين دارعين من انكشارية القرنين الثامن والتاسع من الهجرة . ثم سلكنا الدهليز بين بنادق كثيرة من صنع القرن الماضي والقرن الحاضر . ولست أستطيع ولا أستحسن أن أصور لك كل ما رأيت في هذا المعرض العظيم من تاريخ الصناعات ومجد العثمانيين وعبر التاريخ : أكداس من الوقائع والعبر يضيّق عنها النظر والفكر ، وإنما أصف لك ما غلب على الذاكرة من بينها : المتحف كنيسة قديمة تقوم على ساحتها قبة كبيرة عالية ويدور بها طبقتان من الأروقة سرنا . في الرواق إلى اليمين ودرنا معه فإذا بنادق ومدافع وآلات حربية كثيرة ومناظر لبعض الحروب حتى اتهمينا إلى سيارة في نوافذها ثقوب ؛ فهذه السيارة التي قتل فيها المرحوم محمود شوكت باشا وهو صدر أعظم في عهد السلطان محمد الخامس ؛ وبعدها صور وآثار كثيرة لمتأخري القواد العثمانيين : علمدار مصطفى باشا ومختار الغازي وأنور وغيرهم . ثم خرجنا إلى وسط الكنيسة فرأينا في صدرها صورة الغازي مصطفى كمال باشا بجانبها أنواع من الأسلحة القديمة والحديثة . وسرنا قليلاً فإذا درع قديمة تتخطاها العين غير حافلة ،

فإذا وقفها التطلع قرأت عليها : « درع الفاتح » فأخذها جلال
الذكرى وأدركت فرق ما بين المظاهر والحقائق بجانب الدرع سيوف
من ذلك العهد وتروس محكمة الصنع منها ترس محمود باشا أحد الصدور
في عهد الفاتح ، وترس يعقوب جلبي ابن السلطان مراد الأول . ويقال
إن السلطان بايزيد أمر بقتله وهو يتعقب العدو في موقعة قوصوه الأولى
سنة ٧٩١ ، ثم سيوف لسليمان القانوني فيها سيف كتب عليه :

على الله في كل الأمور توكل وبالحس أصحاب العباء توكل

ورأينا بعد هذه خوذات أهداها نابليون إلى السلطان سليم الثالث ،
وعلماً رفعه العثمانيون في موقعة قوصوه الأولى ، ثم مخلفات السلطان
عبد الحميد . وهكذا يطوى العصور في لحات ؛ فالفاتح وبايزيد وسليم
وعبد الحميد طوأم التاريخ في سجله ، وجمعهم الزمان في معرضه ، فدار بهم
الزائر في خطوات ، وحوام الطرف في نظرات ، وحوى الدهر هذه العصور
المتطاولة في كلمة واحدة : « الماضي » ...

وفي الدهليز إلى اليمين سنان رمح كان للامبراطور جستنيان ، وبركار
كان للمعمار سنان . قلت لنفسى : شتان ما بين السنانيين ، هذا للحرب
والفناء ، وهذا للعمران والبقاء . قد فنيت آثار سنان جستنيان ، والفناء
كان طعانه ، وبقيت آثار بركار سنان ، والبقاء كان بنيانه . وحسب
سنان خلوداً هذا الجامع الرائع ، والأثر العظيم الذى يدل على الصانع : جامع
السلطان سليمان . على أن هذه اليد الماهرة المعمرة شادت في أرجاء المملكة



حلقة موسيقية صوفية



شيخ الاسلام

أر بعائلة بناء (عمر المعمار سنان أكثر من مائة عام وتوفي سنة ٩٩٦ ودفن في الجامع الذي ينسب إليه في استنبول) . وبعد هذين صورة تمثل الأمير البطل عبد القادر الجزائري وهو يقابل القائد الفرنسي بعد معاهدة تفنة سنة ١٨٣٨ م .

وفي الطبقة الثانية تماثيل كثيرة تمثل رجال الدولة وخدم الملوك في أزيائهم القديمة . فهذا شيخ الإسلام على أريكة قد جلس أمامه أعوانه وهذا قاضي العسكر بجانبه قاضي مكة وآخرون ، وهذا أغا دار السعادة ، وهذا قزم كان يضحك السلاطين ، وهذه صورة الانكشارية في أزيائهم العجيبة ، وهذا الجلاد واقفاً كالقضاء ينفذ أمر السلطان — صور من التاريخ مبكية مضحكة

وفي هذه الطبقة خرائط مجسمة تمثل القسطنطينية وما يحيط بها ؛
والواح فيها آيات من القرآن أو كلمات مأثورة ...
وبعد فحسبي اليوم هذه السطور . ولعل الرسالة الآتية تبلغك عما قليل
والله يراكم والسلام عليك .



متاحف طوب قبو سراى

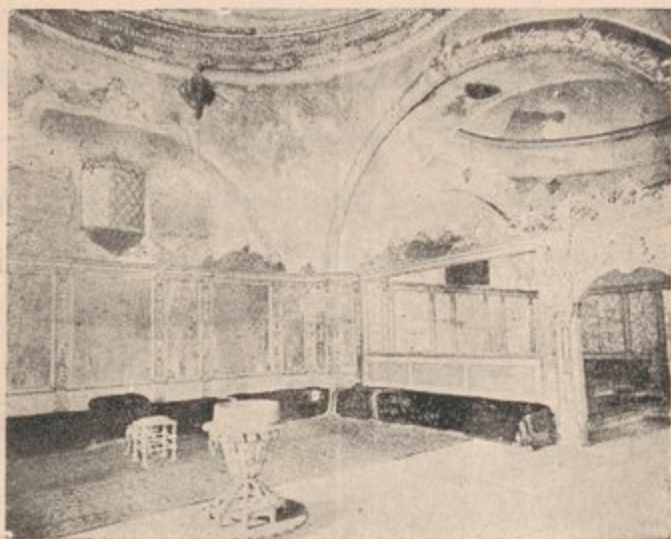
— ٤ —

يا أخى صاحب الرسالة !

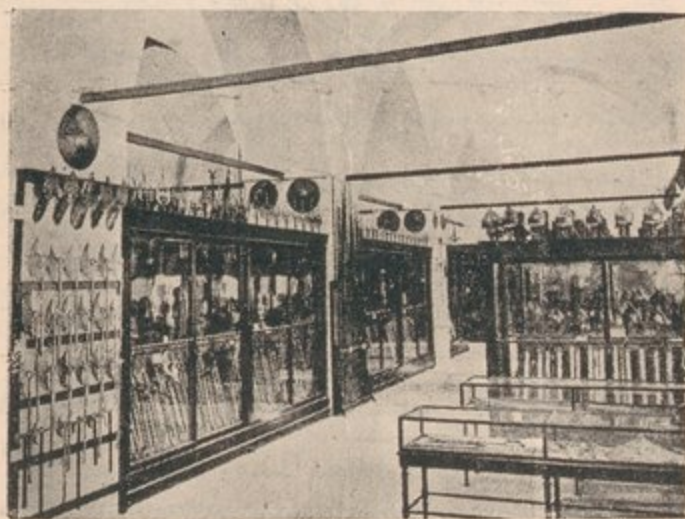
سلام عليك والله يرعاك

أصف لك اليوم بعض ما شهدته أمس فى متاحف قصر طوب قبو الذى كان مباءة السلاطين عصوراً متطاولة . وعسى أن أكتب إليك من بعد طرفاً من تاريخ هذا القصر الأفيح الذى يمتد على إحدى هضاب المدينة من جامع أياصوفيا إلى رأس السراى (سراى بورنو) على بحر مرمرية .

للقصر أسوار بعد أسوار . الأبواب الخارجة تؤدى إلى حدائق واسعة وقد ذكرت فى رسالتى السابقة أحد هذه الأبواب حين أبلغنى المطر إليه سرنا فى الحديقة حتى انتهينا إلى باب آخر اسمه باب السلام فوجدناه إلى حديقة أخرى واسعة تحيط بها أروقة ، ويبدو فيها إلى اليسار بناء ذوقباب ، أمامه رواق جميل . دخلنا فإذا حجرتان تتصل بهما حجرة مغلقة . اسم هذا البناء « قبة آلتى » أى تحت القبة ، وكان فى العصور مجلس الوزراء ، وكان الوزراء من أجل هذا يسمون وزراء القبة أو جلّاس القبة (قبة نشين) . فالحجرة التى إلى اليسار فيها أرائك للوزراء تتوسطها أريكة الصدر الأعظم



قبة آلى (تحت القبة)



خزانة السلاح

ويرى فوق مجلس الصدر نافذة عليها شُبَّاك من الحديد ناتئ . كان السلاطين يشرفون من هذه النافذة ليسمعوا مفاوضة الوزراء أو يروا استقبال الصدور للسفراء . وكتبت إلى جانب النافذة كلمة الشهادة وطرتان ، بخط السلطان أحمد الثالث . والحجرة التى إلى اليمين كانت للكتاب وفيها طرة للسلطان مصطفى الرابع ، وسجادة يقال إنها نسجت قبل خمسة قرون . وكانت الحجرة المغلقة لاستراحة الكتاب

وبنى هذا البناء فى عهد سليمان القانونى سنة ٩٣٣

ووراء هذه البنية بُرج يعلو فى الهواء ٤٢ متراً عليه منظرَةٌ تطلُّع على المدينة كلها . وكان حوله بناء

وعلى مقربة من « قبة آلتى » حجرة كبيرة هى اليوم خزانة الأسلحة القديمة أسلحة الملوك والأمراء . يرى الداخل أمامه أطبار^(١) كثير من سلاح ممالك مصر ، وإلى يمينه خزائن زجاجية يطلُّع فيها على سيوف لبازيد وسليمان . وهذا سيف السلطان الغورى ، وهذا سيف طومان باى . وأما سيف قايتباى هذا فقد طبعه من حديد وجده عند الحجرة النبوية سنة ٨٨١ . وهذان سيفان لمحمد الفاتح ؛ هذا الطويل المحلى للمخافل ، وهذا القصير العاطل للمعارك .

وبينما نتأمل هذه السيوف ونعجب من قدمها أرانا المعرض ما هو أبعد فى التاريخ وأجل شأنًا ؛ هذا سيف عليه اسم معاوية ، وهذه سيوف أموية طويلة مستقيمة ، وهذا سيف لعبد الله بن عمر ، وآخر لكعب

الأحبار . وهذا السيف الطويل العريض المذهب قائمه قد كتب عليه :
« معاذ بن جبل كاتب رسول الله » بل هذا سيف عثمان بن عفان .
سعدت حيناً بالذِّكر ولم أكدرها بتحقيق الأسانيد .

وتقدمت قليلاً لأرى دروعاً لمالك مصر ؛ فهذه درع كاملة : قميص
وسراويل ، وعلى الصدر أضلاع من الحديد .

ومشيت إلى جانب آخر من الحجرة فرأيت الأقواس والسهم ريشها
ونصلها ، والجُعب . وهى قسي تركية من بنات القرنين العاشر والثالث
عشر هـ . وهذه جِعب (تراكش) محلاة مزركشة ، وهذه درع
هنجارية محلاة الصدر بالذهب والعصوص الكريمة ، وهذه درع كتب
عليها اسم الشاه عباس الصفوى ، ولا أدري أى العباسين الأول أم الثانى ؟
وليت شعرى لمن هذه الدرع التى اتخذت جُنة من الآيات والدعوات
تقرأ عليها : يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف . فالله خير حافظاً ، يا مالك
الملك ، يا منجى من المهالك ، أنت الباقي وكل شىء هالك . ويين أن السجع
يقتضى أن يكون : يا مالك المالك الخ . ولعله تحريف الكاتب أو الطابع .
نتقدم إلى خُفَتانات من الجلد أو النسيج الصفيق ومغافر من الجلد
والحديد . بل هذه مغافر للخيل ؛ والفرس صديق الفارس فى المآزق
يحتاج له كما يحتاج لنفسه . وكانت الخيل تلبس المغافر على رؤوسها
والتجافيف على أبدانها . وفى شعر أبى الطيب :

حواليه بحر للتجافيف مأنج يسير به طود من الخيل أيهم

ثم ترى قوائم أعلام يعلم الله ما شهدت من ظفر وهزيمة ، ثم بنادق من عصور مختلفة فيها المحلى بالصدف الذى يُضرب بالزند والصوان ، وفيها بنادق القلاع الثقيلة وضروب أخرى كثيرة .

تركنا خزانة السلاح وسرنا حتى اجتزنا الباب الثالث إلى رحبة واسعة ، يُفضى الباب إلى رواق مستطيل مع الجدار ، وعلى الباب من الداخل كتابة وثلاثة ألواح مستديرة فيها أسماء السلاطين وتواريخ ولايتهم ووفاتهم من عهد عثمان إلى محمد السادس وهى تشغل لوحين ونصف الثالث وبقي الفراغ فيه ناطقاً بانتهاء الدولة .

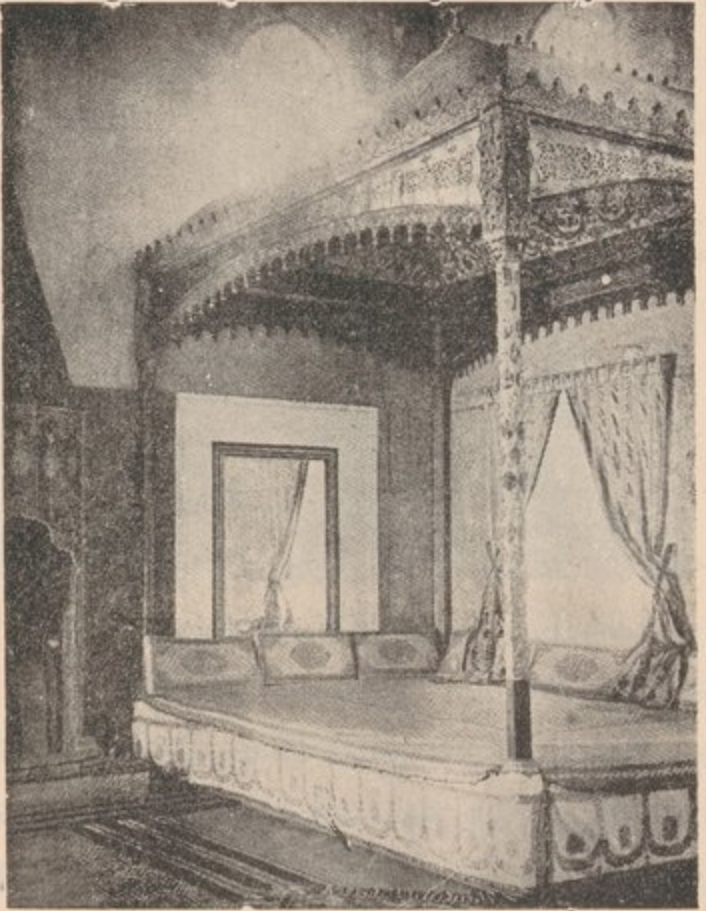
وأمام الباب حجرة يتقدمها رواق . وهى حجرة العرض (عرض أوده سى) وكانت مجلس السلطان لمقابلة السفراء ورجال الدولة أيام الأعياد وفيها سرير مُنجد تعلوه قبة من الخشب المصنَّع المزين وكان أثاث الحجرة وزينتها من آيات الإتيقان والبذخ ولكنها احترقت سنة ١٢٧٣ وبقي بعض آثارها .

وفى جانب الحجرة نافورة يقال إنها كانت تفتح حين يسير السلطان حديثه حتى لا يسمع الذى فى الخارج .

وفى الرواق الذى أمام الحجرة حَجَر من المرمر يقال إن قتلة السلطان سليم الثالث وضعوا جثته عليه وأروها للصدر علمدار مصطفى باشا .

وتقدمنا فلما ذات اليمين إلى (الخزينة) وفيها من نفائس التاريخ

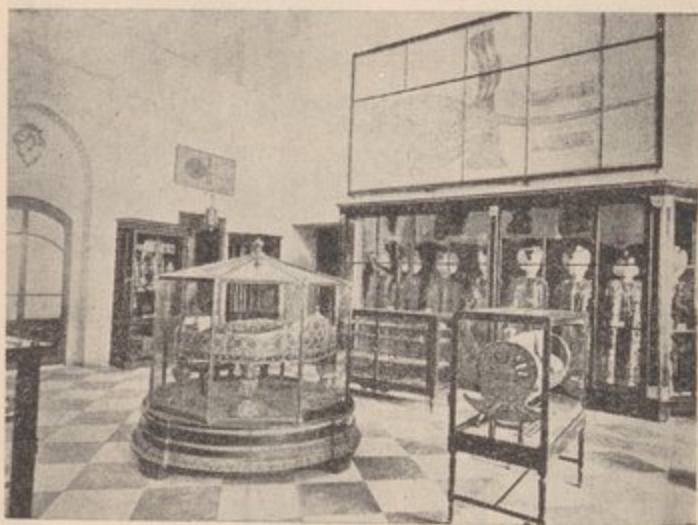
وأعلاق الملوك ما يكل الطرف دون تأمله ؛ الحجرة الأولى والثانية بهما أدوات الطعام والقهوة من الصيني الجميل في ندرة من الألوان ، وفتنة من بدائع النقش ، صحن وطسوت وأباريق وفناجين ، وأدوات من البللور



حجرة العرض

والنحاس المذهب ، وخوانات من الفضة ومواقد ... الخ الخ .

هذه المرائى اللألاء تبهر العين حيثما توجّهت فتشغل الناظر عن التفكير فيما وراءها من التاريخ . قلت : ماذا أرى وماذا أدع ؟ هذه للعابر متعة دقائق ، وللباحث درس أشهر ، ولمفكرّ عبرة الدهر .



حجرة الملابس وعرش إسماعيل في وقاية من زجاج ويرى في وسطها

ثم حجرة الملابس . يا له منظرًا مهيبًا ومقامًا هائلًا ! صفّ ينتظم السلاطين من الفاتح إلى عبد المجيد . ها أنت ذا في حضرة السلاطين الذين رجفت بهم الأرض قرونًا ، وامتلاّت صفحات التاريخ أجيالاً . هوّن عليك لا ترع . ما هي إلا ألبسة تحملها أعواد . أجل ! هذه الجبة ، وهذه العمامة الكبيرة ، وهذه الشارة (سرغوج) التي تعلو العمامة محلاة بالماس ،

وهذا الخنجر المذهب الذى تثقله هذه الزمرّدة الكبيرة - أجل هذا لباس الفاتح وزينته وسلاحه ، ولكن لا تُرَع إن هو إلا لباس على أعواد . إضحك إن شئت ، وتحدّث كما تشاء ، ولا تأخذك هيبة الفاتح وصولته ، وإن شئت فقف خاشعاً مطرقاً مفكراً فإنها ذكرى رائعة وتاريخ ماثل . فإذا أخذتكَ سورة الذكرى واستشعرت رهبة الملك فارفع رأسك وانظر فليس أمامك الفاتح ، ولكن جيبته وقفطانه وعمامته وخنجره .

وانظر بجانبه ملابس بايزيد الصوفى : عقد من الزمرد حول حلقة من الجواهر يزين هذه العمامة ، وعلى مقبض الخنجر ثلاث قطع من الفيروز زرقاء صافية . وتقدمتُ فوقفتُ أمام سليم وسليمان ! ولست أبالى حضرة سليم وسليمان ، فقد ذهب الدهر بسليم وسطواته ، وذهبت الريح بملك سليمان .

انظر إلى مَنْ بَعْدَ سليم وسليمان : هذان سليمان الثانى ومحمد الرابع على رأسيهما عمارتان تخالفان ما رأيت قبلاً ، عمارة حمراء عليها لفافة صغيرة وشارة عظيمة جداً . ثم انظر العائِم الطويلة المضلعة على رأس مصطفى الثانى ومن بعده .

وهذا محمود الثانى ، الذى بذل فى الإصلاح جهده وبطش بالإنكشارية بطشته ، فى زى أوربى على رأسه طربوش عليه قطيفة سوداء وشارة . ثم عبد الحميد على رأسه الطربوش والشارة فقط . وهكذا يسير التاريخ متمهلاً من أبهة الماضى واستقلاله وجلاله إلى يسر الحاضر وتقليده وجماله .

وفى وسط الحجرة صوالج لعبت بالأمور حتى لعبت بها الأقدار .
وليت شعرى ما خَظَبُ هذا المهد السلطاني الصغير ؟ بل أى طفل من بنى
السلاطين ترجَّح فيه ، وأى أيد من أيدي الأميرات أو الخادِمات هزته ؟
وماذا كان حظ الطفل من هذا المهد إلى ذاك اللحد ؟
وأما هذا العرش العظيم المسبَّع الجوانب ذو القوائم الأربع فيقال
إنه عرش الشاه إسماعيل ...

وبعد فيا صديقي الزيات ! أخشى أن يطول الحديث فليقف الكلام
عند عرش إسماعيل وموعِدتنا الرسالة المقبلة إن شاء الله
والسلام عليكم ورحمة الله

ه — متاحف طوب قبوسراى

يا أخى صاحب الرسالة !

سلام عليك .

وقفت بك فى الرسالة السابقة على عرش للشاه إسماعيل الصفوى .
وجدير أن نطيل الوقوف عند هذا العرش الذى بذلت الصناعة وسعها
فى هندسته وتذهيبه وترصيعه وتلوينه ، ولأمت فيه يد الإتيقان بين الذهب
والمينا والزمرد والياقوت ، وألفت بين ألوانها تأليفاً متلائماً عجيباً ،
وقد أرى فيه الذكّر تتلألاً تتلألاً تلالؤ الجواهر

وقفت عند هذا العرش أذكر الشاه إسماعيل هذا الملك الجبار الذى نشأ فى زلازل الحادثات ومُلِّك أزمّة دولة مبتدأة ، وهو لم يبلغ الحلم ؛ وما لبث أن مدّ سلطانه ما بين العراق إلى الهند . ثم أورث أبناءه دولة لا تزال آثارها شاهدة بماثرهم ، ناطقة بعظمة ملكهم ، مذكّرة بما طوى الدهر من سلطانهم .

هذا العرش ما خطبه ، ما باله فى خزان سلطان آل عثمان ؟ هنالك ذكرتُ جِلاّد سليم وإسماعيل ، وذكرت موقعة جالدران ، الموقعة التى كادت تذهب بدولة إسماعيل الناشئة ، لولا أن عاقت سليماً العوائق . وجالدران وإد ميد شمالى آذربيجان اصطفت فيه جنود سليم وجنود إسماعيل سنة ٩٢٥ من الهجرة . قسّم سليم جنوده ، وجعل الانكشارية فى القلب واتخذ مكانه خلفهم ، وجعل المدافع وراء الجناحين ، وشد بعضها إلى بعض بالسلاسل . وصفّ إسماعيل جنوده ، وتولى قيادة الجناح الأيمن ؛ مائة وخمسون ألف جندى صمدت لمثلها . فانظر هذه الحرب المتأججة يضررها ثلاثمائة ألف !

ويحمل إسماعيل الفتى الشجاع ، معترّاً بجنده ، مفتخراً بنسبه العلوى ، مصمّماً أن ينتصر أو يقتل ، ويشق جناح العثمانيين الأيسر ، ويحسب أن النصر مقبل عليه .

وتظاهر جناح العثمانيين الأيمن بالهزيمة وانقسم . فتحملُ ميسرة إسماعيل ، وترمى بنفسها فى الفرجة بين القسمين . فإذا هى أمام المدافع ،

وإذا النيران تأخذها من كل جانب . تتبدل الحال و يواتى العثمانيين الظفر .
و يسقط إسماعيل عن جواده جريحاً ، وينجيه من الأسر القريب
الفرار إلى تبريز .

وبادر سليم يجمع الغنائم ، ويزهى بما نال من ظفر على عدوه الجبار .
ها هو سليم يدخل تبريز بعد ثلاثة عشر يوماً دون حرب . وكانت
تبريز يومئذ دار الملك ، وبها خزائن إسماعيل ؛ قد جمع فيها ما أخذ من
التيموريين وغيرهم من الأمراء الذين غلبوا على ممالكهم . وبينما يدبر
للاستيلاء على ملك إسماعيل كله يرى بين جنوده أمارات العصيان فيرجع
أدراجه قانعاً بما أحرز من نصر ، وما ملك من بلاد . لم يبق في تبريز إلا ثمانية
عشر يوماً .

هذا العرش مما غنم سليم في هذه الحرب الضروس ^(١) .

وذ كرت حينئذ الرجل الكبير قانصوه الغورى الذى خشى صولة
سليم فمالأ الشاه إسماعيل ، فأفسد ما بينه وبين العثمانيين وتتابعت الأحداث
حتى كانت وقعة مرج دابق فى رجب سنة ٩٢٢ قبل وقعة جالديران بسنين
ثلاث . وتصورت سليماً يحرز نصراً بعد آخر ، ويطوى مملكة بعد مملكة
بجنده وعُدده ؛ ولا سيما هذه المدافع التى لم يتسلح بها محاربوه .

وعدت أتذكر ما أعقبت عداوة سليم وإسماعيل من عداوة بين
المسلمين ، وما أثارت من ضغينة بين أهل السنة والشيعة ، وما كان القتال

(١) رأيت عند الأستاذ محمد نور الدين ابن المرحوم نور الدين بك مصطفي صورة
تيمورلنك على هذا العرش . فعلمه كان من قبل لتيمور وغنمه الشاه إسماعيل من بنى تيمور

إلا على السلطان والجاه ، وإنما كانت المذاهب تعلقة .
ثم تبادت الفكر ، وتواتت الذكر . فأخذت أقيس الرجال الثلاثة
واحداً بآخر ، وأتذكر ما كان منهم فى السياسة والعلم والأدب . وقلت :
هؤلاء الثلاثة الذين سيطروا على وسط البلاد الإسلامية كانوا يمثلون ثقافة
الأمراء المسلمين . وفيما أثر عن ثلاثتهم من شعر نماذج من أدب أمرائنا
فى القرن العاشر الهجرى . وعلمت أن أكتب إليك فى هذا (يا صاحب
الرسالة) ؛ ثم تذكرت أنى أصف آثاراً فى متحف ، وأن الكلام
على قانصوه وإسماعيل وسليم جدير أن يستأثر بمقال أو أكثر .
ولعلى أجد لذلك فرصة بعد . . . والسلام عليكم ورحمة الله .

٦ — متحف الأوقاف

بناء على مقربة من جامع السلطان سليمان كان مدرسة من المدارس
القديمة . دخلنا قبيل الظهر فإذا فناء مربع فيه بستان ، وحوله حُجرات
ذات قباب أمامها أروقة .

دخلنا حجرة فيها طائفة من المصاحف والكتب العربية والفارسية
والتركية ، فيها بدائع الفنون : الكتابة والتذهيب والتحلية والتجليد .
وبين المصاحف مصاحف كوفية قديمة منها قطعة يقال إن كاتبها عمر رضى
الله عنه ، ومصحف كتبه عثمان ، فى زعم الزاعم . قلبنا البصر الحائر بين مائة
مصحف أو أكثر كلها من بدائع الآثار .

ورأينا في هذه الحجرة منشورات (فرمانات) كثيرة اُقتنَّ الكاتبون في خطها ورسم طغرائها على أشكال مختلفة عجيبية ؛ منها منشورات للسلطان سليمان ولعثمان الثالث ومحمود .

ورأينا في الحجرة دُويّا ومقلّعات منها دواة للوزير أسعد مخلص باشا أحد الوزراء في عهد محمود الثاني وعبد الحميد . وكان عالماً شاعراً .

ورأينا في حجرة أخرى ، يقال أنها كانت مطعم الطلاب ، سجاجيد قديمة فيها متعة ومشغلة لعشاق السجاجيد .

وفي حجرة ثالثة كثير من مخلفات السلاطين : في وسطها صندوق من الزجاج فيه أوعية زجاجية في أحدها شعرات للرسول صلوات الله عليه ملفوفة على ماسة ، وعلى الجدار صورة السلطان محمود مصورة على المينا كتب فوقها وتحتها البيتان :

سلطان سلاطين جهان محمود خان صورته ملك سيرقى ظل يزدان
دايدارينه مرآت نكاه آشفته تصويرها يوننه إنسان حيران
(سلطان سلاطين الدنيا محمود خان ملك في الصورة والسيرة ظل الله

ترتاع مرآة النظر لرؤيته ويحار الإنسان في تصويره الهايوني)

وفي الحجرة قفاطين ومناطق محلاة كانت لأطفال السلاطين ، ومناديل مزركشة كانت لامرأة سليمان ، ونعال منها نعل للسلطان سليم .

ومن عجيب ما رأينا في هذه الحجرة قميصان ليلدرم بايزيد وسليم ياوز قد كتب على كل منهما القرآن كله ، وكان يلبسه صاحبه حين الصلاة .

وحبذا القرآن حلية ولكنها أجدر بالقلوب .
ورأينا ألواحاً عليها أبيات من البردة ومن الشعر الفارسي وهكذا .
وفي الحجرة الرابعة صناديق صغيرة مرصعة بالصدف كان بها الشعرات
النبوية ، وصناديق جميلة للمصاحف تسمى مفازات .
ورأينا فيها مفتاحى مكة والمدينة وهما من حديد ، غليظان فى طول شبر
أو أطول ، وطستاً وإبريقاً من الفضة المذهبة كانا لأم السلطان عبد العزيز
وفى جانب الحجرة فوهة فرن كان يُخبز فيه للطلاب .
ورأينا فى حجرة أخرى سجاجيد قديمة كبيرة من عهد السلاجقة ،
وتواييت سلجوقية نقلت من مدينة قونية . وفوانيس نحاسية منها فانوس
خير الدين باربروس . وصندوق يقال إن الشاه إسماعيل أهدها إلى السلطان
سليم ، وأن السلطان كان يحفظ فيه أوراقه حين السفر ، وعلى ظهر
الصندوق صوّرت بيوت النرد والشطرنج .
ورأينا فى أحد الأروقة المحيطة بالغناء طاحوناً عتيقاً كان يطحن فيه
القمح لخبز طلاب المدرسة .
وهكذا رأينا عصوراً من التاريخ فى لحظات ، وبدائع من الفنون
فى لحات ، وزمناً طويلاً طوى فى هذه الحجرات .

٧ — في جوامع استنبول

يجد القارىء في ثنايا الرحلة ذكر بعض المساجد وطرف من أوصافها ؛ ولست أبغى في هذا الفصل أن أصف هندسة المساجد ونقشها وزينتها . فحسبى أن أقول ما قلت حينما زرت استنبول المرة الأولى سنة ١٣٤٨ هـ . لو أن مدينة بنيت من أجل هذه المساجد لم يكن أمراً نكراً . ومن الفكاهة أنى لهجت بوصف مساجد استنبول حينئذ حتى رأيت في المنام من يقول : لو أن إنساناً سافر على حمار من مصر إلى استنبول ليرى مساجدها لم يكن ملوماً ؟ ! ومحدثى في المنام لم يبالغ مبالغة من قال في وصف تمثال كسرى برويز وفرسه شبديز : « لو أن رجلاً خرج من فرغانة القصوى ، وآخر من سوس الأبعد قاصدين النظر إلى صورة شبديز ما عُنفا على ذلك » وقصارى القول أن تاريخ دولة من أعظم دول الإسلام يتجلى في هذه المآثر ، وصفحة رائعة من الحضارة الإسلامية ترصع بهذه الجواهر .

وإنما أقصد في هذا المقال إلى ذكر ما رأيت أثناء صلوات الجمع في زورتنى الأخيرة لاستنبول ، معدداً المشاهد متفرقة دون اهتمام برسم صورة واحدة من تفاصيلها :

يوم الجمعة الثانى والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ (٣٠ تموز سنة ١٩٣٧) .

بكرت إلى حى بايزيد أجدد العهد ، وأقضى حق شوق قديم طال

ثمانى سنين . جلست فى المنتديات التى هناك تحت الأشجار بجانب الجامع . وبعد قليل رأيت جماعة من إخواننا العراقيين بينهم صديق ابراهيم بك الواعظ المحامى ، فتحدثنا حيناً . وبدأ لى أن أصلى فى جامع بايزيد ؛ واقترح بعض الأصحاب أن نصلى فى السليمانية — جامع السلطان سليمان وليس بعيداً من مكاننا . وهو جامع فخيم رائع يذكر بعظمة سليمان . بُنى على هندسة مساجد استنبول : قبة عالية عظيمة تنزل منها أنصاف قباب ، وتحت الأنصاف أنصاف أخرى تعمدها جذر وعمد ضخام . وكنت أحسب جامع سليمان أوسع من آيا صوفيا ، حتى قيل لى أن طول السليمانية تسعون ذراعاً ؛ وآيا صوفيا مائة وخمسة .

شرع القارىء يترتل سورة الأحزاب ؛ وقرأاءة الجوامع فى تركيا والعراق لا يلتزمون سورة الكهف يوم الجمعة كما يفعل قرأء مصر . وكان الناس يفدون قليلاً قليلاً حتى اجتمع زهاء مائة وخمسين ، وهو جمع يتضاءل فى عظمة السليمانية . ثم ختم القارىء وقرأ الآية : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . . . فعرف المصلون أنه وقت الأذان . ثم قاموا لسنة الجمعة أربع ركعات على مذهب الحنفية . ثم رتل المؤذنون على المحفل صلوات على النبي . وقرأ القارىء : إن الله وملائكته يصلون على النبي ... الخ وأذن بالتركية أذاناً يُصم الآذان .

وبدأ الخطيب بلغة عربية فصيحة . ثم تلا الآية : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فلهم أجرهم عند ربهم

ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ؛ وشرحها بالتركية شرحاً وافياً . ثم قال بالعربية : خير الكلام كلام الملك العلام ... الخ . وتلا آية قصيرة .
وهذه سنة الخطباء في تركيا وفي العراق ؛ يخطمون الخطبة بآية لا يحدّث كدأب خطباء مصر . ويتشابه خطباء تركيا والعراق في مبادئ الخطب وترتيبها وخواتمها ، وفي الترتّم فيها .

وجلس الخطيب وقام إلى الخطبة الثانية فدعا بالعربية وحدها ثم ترنّم بالآية : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ... الخ .
ولما فرغ المصلون من فرض الجمعة قاموا كلهم يتنفلّون ؛ ولم يقتصرُوا على أربع الركعات المسنونة في مذهب الحنفية . بل صلى كثير منهم عشر ركعات أو أكثر .

ولا يجد من يريد الخروج بعد الفرض طريقاً لاشتغال الحاضرين جميعاً بصلاة النافلة . ثم يخطمون الصلاة ختماً طويلاً وهم في خشوع تام .
والحق أن للترك آداباً حسنة في مساجدهم ، لا تسمع حديثاً ولا ترى غير النظام والخشوع .

الجمعة الثانية :

أردت أنا وزميلى الدكتور زيادة الذهاب إلى جامع أبى أيوب الأنصارى « أيوب سلطان » . فلم يتيسّر لنا الذهاب ذلك اليوم . فعدلنا إلى أقرب الجوامع من جسر (غلطة) ؛ وهو ببنى جامع « الجامع الجديد » ويسمى جامع والده سلطان — بنته والدة السلطان عبد العزيز .

وهو جامع كبير جميل زُينت بالقاشاني جذُرُه وعمدُه . وكان القارىُّ يقرأ في سورة الإسراء وتوافد الناس حتى اكتظ بهم الجامع . وكان الخطيب واعظاً بليغاً . بدأ بقوله : الحمد لله الذي لا يزول ولا يزال ، الدائم الذي لا يتحوّل من حال إلى حال ، أحده حمداً يكون لنعمائه عديلاً ، وأشكره شكراً يكون برضاه كفيلاً ... ثم تلا أحاديث وشرحها وأفاض في وعظ بليغ ...

الجمعة الثالثة : [٦ جادي الثانية — ١٣ آب]

صليت في جامع بايزيد ، وكان الجامع مزدهجاً بالمصلين ؛ وقد التزم معظمهم تغطية رأسه (بطاقية) أحضرها معه ، ولم يترخصوا في الصلاة حاسرين . ولا مقبعين ...

ورأيت في جانب المسجد طائفة من النساء يصلّين على حدة . وهذا منظر جميل مألوف في جوامع تركيا . ترى المرأة العجوز أو الشابة تدخل المسجد وفي يدها ولدها في وقار وخشوع ، تتجلى فيها حرمة المرأة وحريتها في أجمل صورها ؛ ولست أنسى حين دخلت جامعاً في اسكودار فلم أر إلا ثلاث نساء يقرآن القرآن . وجلست بجانب المحراب ، فرأيت إحداهن أقبلت ، فوضعت المصحف في محفظة . ثم قبلته خاشعة وانصرفت ، ولا أنسى صوت امرأة جلست إلى جدار القبلة في أولو جامع في (بروسه) تتلو القرآن في صوت يملأ القلوب والجلود والهواء اقشعراراً ؛ وكنت في مكتبة الجامع فسألت قيم المكتبة . فقال : حافظة تتلو القرآن ، والحافظات عندنا كثيرات .

فليت شعري ! لماذا لا يطالب نساؤنا بنصيبهن في المساجد ؟ لماذا نرى المرأة لعبة في الملاهي ، وفتنة في الطريق ، ونفقدها في المساجد ؟ ... جواب هذا عند المتزعمات من نساؤنا .

ولما بلغ القارىء آية السجدة ، قرأها وسجد ، وسجد الحاضرون كلهم ، لم يفعلوا ما يفعله كثير من قراء مصر ؛ يتكون آية السجدة ، وساء ذلك عملاً . ولما فرغ من سورة الإسراء ، قرأ الآية : ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين والآية : سبحان ربك رب العزة عما يصفون ... الخ . وقال : الفاتحة . ثم رتل هو ورفقاؤه الصلاة على النبي ، وقام الناس لصلاة السنة . ثم قرأ القارىء : إن الله وملائكته يصلون على النبي ، وشرع الخطيب فحمد وتشهد . وكان مما قال : وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة من جمع بين قلبه ولسانه وأشهد أن سيدنا وسندنا ومولانا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وصفيّه وخليفه الداعي إلى الله في سرّه وإعلانه . ثم قرأ أول سورة العنكبوت : ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يُفتنون . وتلا حديثين معناهما أن الإيمان والعمل قرينان ، وأفاض في الشرح والوعظ وختم بآية وجلس . والناس هناك لا يرفعون أيديهم للدعاء بين الخطبتين .

وكانت الخطبة الثانية كلها دعاء بالعربية ، وختمها بالترنم بالآية : إن الله يأمر بالعدل . . الخ .

الجمعة الرابعة :

ذهبت مع جماعة من الأصدقاء إلى جامع أيوب . ركبنا إليه باخرة صغيرة من الجسر — جسر غلطة — فمضت بنا في خليج القرن الذهبي زهاء نصف ساعة . والناس يقصدون جامع أيوب يوم الجمعة للزيارة وختن أبنائهم . وهم يسمون الختان (سُنْتُ) ، وقد رأينا في الطريق صبياناً توشحوا بأوشحة بيضاء وحمراء ، ولبسوا طواق مذهبة ! فعرفنا أنهم ذاهبون للختان . . .

دخلنا والجامع مكتظ ، والقارئ يتلو في سورة الأنبياء . وصعد المنبر خطيب هرم أبيض اللحية والرأس وكأنه تخرج من التكلم بالتركية في خطبته ، فدعا بالعربية ، وتلا آية وجلس . ثم قام للخطبة الثانية فأتى بالعربية ، ودعا فيها للمسلمين . وختم بالآية : إن الله يأمر بالعدل . ثم شرع يفسر بالتركية أحاديث . ثم ختم بالدعاء ، ولا أنسى دعاءه في جهر وقوة : اللهم انصر شريعة محمد ، ومزق شمل من مزق شملها .

٨ — إلى عُلَيَّة (*)

يا بنيّتي الحبيبة ! هأنذا على شاطئ البحر قد انتبذت مكاناً قصياً ،
وفرت من الناس لأظفر بنفسى . وأمواج « مرمرة » توسوس بنشيد
المساء بين يديّ ، وقد توارت الشمس بحجابها . وذات اليسار جُزُرُ
الأمرء جاثمة على الأمواج . وذات اليمين تلوح من خلال الأشجار
« مودا » الجميلة لألاءة تُطلّ في مرآة من خليجها . وعلى بعد تلوح الآستانة
الجليلة تنازع مناراتها الظلام عن نفسها . وعلى مقربة منى منارة (فنار)
تضئ وتخبو لترشد السائرين على الماء كأنها بصيص من الأمل خفاق يلوح
للسائرين في بحر الحياة !

أسمعُ ضوضاء الجوارى في البحر ، وصغير القطار في اسكدار ، وزقزقة
عصافير المساء خافتة تنساب إلى الأذن كخطرات النفس لا يرى مصدرها ،
وضوضاء الناس أحياناً . فهذه الخليقة العظيمة في برها وبحرها ، وهذا
الجلال الحزين منبعثاً من مغرب الشمس ، وهديرُ الأمواج الذى يهمس
بسلام الليل بعد عراك النهار ، وكل ما أسمع من الأصوات ، وما ينبعث
فى نفسى من ذكرى وعبرة ، وسرور وحزن ، وما يثير حديث الناس فى قلبى
من حب وبغض ، ووحشة وأنس ، وهذا النّفر الذى جلس على مقربة
منى يقطع على الفكر بأصواته ، ويهبط بالنفس من معارجها بضحكاته ..

كل أولئك يا بنيتي العزيزة لم يشغلني عنك ! فما تزال أمام عيني بسماتك
وعبساتك وضحكك وبكاؤك وإسلاسك وعُرامك وسكوتك وضوضاؤك ،
وهل للسكوت إليك من سبيل ؟ ونومك ويقتطك ، ودلالك وإخافك
وإلحاقك . وكل هذا يا بنيتي محبَّب إلى ... لوددت أنك هنا الآن تطيفين
بى لاعبة صاخبة ضاحكة سائلة ، لا يفحمك جواب ، ولا يسكتك خطاب .
تأخذين بيدى وثوبى تمنعين كل فكر فيما سواك ، وكل حركة فى غير
مرضاتك ! ليتك هنا لتمسكى بالقلم ، وتقطعى على الفكر ! فكم فى الأفكار
من آلام ، وكم فى الأفكار من أحزان . إذاً لناجيتك عن كُثْب ، ورجعت
من خيالى إلى حقيقتك ! وإنها يا بنيتي لأشبه الحقائق بالخيال . هى الحقيقة
المحبوبة السعيدة ، الحقيقة التى يعجزنى بيانها ، فأمسك القلم لأخرج
من الألفاظ الضيقة إلى عالم من الفكر غير محدود ، وأفتح للقلب سبيله
فى الحب الذى لا يعرف النهاية ...
هأنذا ألقى القلم فسلام عليك .

٩ — وداع الآستانة^(١)

الباخرة رشيد مُرسية أمام المدينة العظيمة تتأهب للسير ؛ وأنا مولِّ
وجهى شطر البلد الحبيب ، ونفسى مقسمة فى مشاهدته ومناحيه : هذا ينى
جامع مشرفاً على جسر (غلطة) . فهل تذكر ساعة قضيتها تقاب الطرف

(١) كتبت فى الرحلة الأولى سنة ١٩٢٩

في قبابه ، وتوجه القلب إلى محرابه ، وتمتع النفس بمراى جُدره وأساطينه
الجملة بالقاشانى النفيس ؟ وأنظر إلى اليسار قصر الملوك « طوب قبوسراى »
تلوح قبابه وشرفاته . فهذا كشك بغداد كأنى أقرأ على جدرانها هذا البيت ،
وكأنه كتب طلسماً يردّ الفناء ، وهيهات لا تردّ أيدى الزمان طلسم :
كشاده باد بدولت همیشه أين درگاه (١)

بحق أشهد أن لا إله إلا الله
لقد فارقت القصر دولته ، واستباحت حرمة ! فهو الآن متحف ترو
فيه النظارة ، وقد عُرض فيه السلاطين ملابس وعماهم ، وانطوت
على الأجسام القبور . فكم واقف أمام ملابس سليم وسليمان يتأمل الجبة
والخزام والخنجر ، ويعجب بما يتلألأ على العماهم من الجوهر ، وكم ضاحك
يلفت صاحبه إلى عرش السلطان أحمد ، وما فيه من عجائب الفكر واليد !
إيه يا ضلال البشر ! أنها لأكداس من العبر ، ومواعظ فيها مزدجر .
وذاك أيا صوفيا شامخاً بقبته ، مشرفاً بمناراته ! بنته المسيحية وأخذه
الإسلام فما غيّر إلا قليلاً ؛ حتى يُرى الصليب نزع بعضه وبقي بعضه ،
والصورة طمس وجهها وبقيت معالمها (٢) . وماغضت المآذن الأربع من
قدره . بل زادته رفعة على رفعة . ثم جامع السلطان أحمد ذو المنارات

(١) ليظل هذا القصر معبوراً بالسعادة أبداً .

(٢) قد كشف عن الصور المسيحية وعطلت الصلاة فيه فرجع كنيسة كما كان .
وقد رأيت العمل في تنصيره في الرحلة الثانية

الست يطاول آيا صوفيا ويتيه عليه . أتذكر أساطينه الأربع ، وقبته الرائعة ؟ يا لها أربعة أساطين حملت الدنيا والدين ! ذلك أحب مساجد الآستانة إلى قلبي ، وأروعها في نفسى . أليست هاتان منارتى جامع بايزيد ؟ أجل ! فيها هو ذا برج الحريق على مقربة منهما فى فناء دار الفنون (جامعة الآستانة) — ذلك البناء الضخم الواسع الذى كان مقر رجال الحرب ، ولا يزال على بابه الكبير « دائرة أمور عسكرية » بين الآيتين : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » و « ينصرك الله نصراً عزيزاً » . فلعل دولة العلم قد أديلت من دولة الحرب !

ولله حى بايزيد ! ما أحبه إلى ، وكم فيه من ذكرى ، وكم سعدت بالجلوس بجانب أشجار بايزيد لشرب الشاى ! لا أسأل نفسى : لم أحببت هذا المكان ؟ فما أشد حقد الذى ينقص على نفسه سرورها بالبحث عن العِلل !

ونظرت ذات اليمين فإذا « السلمانية » كالطود الشامخ قامت قبابها كالقمم ، وتأبى السلمانية إلا أن تحتج لسلیمان . فهى أعظم جوامع الآستانة . وأكاد لا أستثنى آيا صوفيا . وهو مشرف على خليج قرن الذهب أينما وجه الإنسان ببصره شطر الخليج رآه . وجامع الفاتح يلوح بعيداً بقبته البيضاء ؛ وفى جامع الفاتح وفنائها وما حوله من مدارس دارة ، وحدثات ذابلة مسرح للفكر ومجال للعجاب والفخر والحزن والأسى . ولا أنس يوم أضللت نفسى فى حى الفاتح ، وهو حى أقرب إلى الأموات وأشبه

بالمقابر ؛ تنكّر له الزمان وأعان عليه الحريق . سرت بين عمرانه وخرابه
أهبط إلى الخليج في مسالك ضيقة فقيرة ، يتبين فيها جلال الفقر والنظافة .
فالبوت على فقرها تنفتح عن مرأى نظيف ، وما أشبهها بالرجل الفقير
الصالح عليه أطمار مغسولة مطهرة للصلاة !

ورأى حتى غلطة . . . ومالى وحى غلطة ؟

تحركت السفينة والساعة اثنتا عشرة ونصف . فدارت حول رأس
السراى (سراى برونو) ، فلاحت المساجد التى تطل على الخليج مشرفة
على مرمر مرة أخرى ، وتجلى مدخل السفور الجميل فى وسطه « برج
البنّت » : (قيز قله سى) . وأشرفت الثكنة السليمية على ساحل آسيا .
وتبدّى اسكدار وحيدر باشا ، وقاضى كوى ، وما وراء حيدر باشا
وقاضى كوى .

السفينة تمعن فى سيرها . فانظر إلى اليمين أسوار استنبول وأبراجها
العتيقة التى شادها الرومان ، تلوح وراءها القباب والمآذن . إيه يا ملتقى
الأبهر من تاريخ البشر !

مضت السفينة فى سيرها ساعة ، والآستانة تختفي قليلاً قليلاً . ويأتى
الاختفاء مساجد أيا صوفيا والسلطان أحمد والقاتح . وداعاً أيتها المشاهد
الجميلة المحبوبة قبل أن يعيا الطرف عن مرآك . الساعة الآن واحدة وربع ،
فأين الآستانة ؟ لست أراها فأنا أستمع عليها بالمنظار ، كما يجهد الفكر
ليذكر أيام السعادة الغابرة ، أو كما يكذب الصاحى ذهنه ليذكر أحلاماً

سعيدة استيقظ عنها . الأستانة تلوح من خلال المنظار كالللم أو أخفى !
ليت شعري ! فى أى بناء هذا الزجاج الذى يبص على البعد كما يُلمع المودع
بالمنديل لمن يودّعه . ذهبت بى الأفكار ، وأخذنى التعب . فاستلقيت
على كرسى ثم أقفت والساعة اثنتان . فمأرايت بالمنظار عيناً ولا أثراً ...
وداعاً أيتها المدينة العظيمة ! وداعاً أيتها الذكريات السعيدة الشقية !
وداعاً أيتها المشاهد الجميلة البائسة ! وداعاً إلى يوم اللقاء ...! (١)

١٠ — بروسة (٢)

الآن أجلس على مرباً مشرف على بروسة ، ممتدة على سفحها
وسهلها ، تلوح سطوحها مسنمة بين أشجارها ، آخذة من سفح الجبل
إلى منبسط السهل — وعن يسارى يشيل جامع (الجامع الأخضر)
جامع السلطان محمد شلى ، ووراءه بناء مئمن يكسوه القاشانى حلة خضراء
وتشرف فى سماءه قبة صغيرة تحتها مراقد السلطان وبعض أبنائه . وقد لاح
على السفح إلى اليمين جامع أمير سلطان تطاول السرو الباسق منارته . ولاح
قبة ضريح بير محمد البخارى صهر السلطان بايزيد . واحتجبت وراء الأشجار
قبور لاذت بقبر الرجل الصالح الشريف — وعلى عيني اليمنى (يلديرم
جامعى) جامع بايزيد الأول تلوح قبتاه وقباب صغيرة بجانبها ، ومنارته

(١) قد يسر الله الرجوع إليها بعد ثمانى سنين

(٢) كتبت هذه الكلمة فى بروسة سنة ١٣٤٧ هـ ١٩٢٩ م

الفذة ، وبجانبه قبة تحتها قبر ذلك السلطان العظيم ، وعلى اليسار من وراء أشجار يشيل جامع ، تلوح منارة أولو جامع أو الجامع العظيم ذى القباب العشرين . بناه السلطان بايزيد — كما سمعت من سادن يشيل جامع — على هذه الشاكلة تحلة ليمينه إذ حلف ، وقد كربه أمر عدو ، ليينين عشرين مسجداً إن رزقه الله النصر والظفر . فتحلل من يمينه بأن بنى مسجداً له عشرون قبة . وهاتان منارتان بيضاوان جميلتان كأنهما شمعتان ، وما أشبه هذه المآذن بالشموع الهادية فى الظلمات ، وبحق سميت منارة أولو جامع الذى ازدحمت على جدرانه وأساطينه أيدي الكتاب يتنافسون ويفتنون . فلا ترى اسطوانة ، ولا موضعاً فى جدار خالياً من خط صنع من الكتاب يفرغ وسعه ونبوغه فى الإتيان واللعب بالخط عكساً وطرداً . وإن هذا المسجد لتاريخاً عظيماً للخط ، ومعرضاً لا نظيره ، وإن فيه وحده لحجة تدمغ رهوس من يحاولون كتابة اللغة العربية بحروف أجنبية . وعلى بعد على سفح الجبل فى الناحية اليسرى يلوح برج عال فيه ساعة عظيمة يقوم فى موضع من الحصار أى القلعة القديمة حيث ضريح الرجلين العظيمين : عثمان الغازى وأورخان وبعض ذوى قرابتهما .

وهنا وهناك تلوح منارات صغيرة على مساجد خاملة بناها قوم لم يبلغوا من حظوظ الدنيا وبعد الصيد ما بلغ غيرهم . ولعلمهم كانوا بالصدارة والزعامة أحق . وإن الجاه والمجد والسلطان فى هذا العالم لأتفه

ما يكافأ به الرجل الطيب ذو النفس الزكية . فلا تأسف على ما فات الصالحين من ضوضاء هذه الحياة .

لا أرى من هنا مسجد مراد الثانى وضريحه والأضرحة الكثيرة التي قامت حوله : ضريح جم الأمير التيس ، وبعض الأمراء ، وزوجات السلاطين وبناتهم . لا أرى هذا ولا أرى جامع خداوندكار شهيد قوصوه مراد الأول — الجامع الذى يقوم فى حى جكر كه على سفح الجبل عند الينابيع ، ولا أرى قبره مشرقاً على السهل مقفلاً على جلاله وأسراره وذكرياته . وبفنائنه نوافير الماء الحار والبارد متجاورين سيقاً إليه من الجبال القريبة — وما أجمل وأعذب مسایل المياه فى كل ناحية من نواحي بروسة ! فى كل شارع ومنعطف صنوبر ينساب إليه الماء تحت الأرض من الجبال ، ولا يخلو مسجد من حوض جميل تخر فيه المياه ليل نهار فى وسط الجامع أو فناءه الخارجى ، وإن أنس لا أنس جلسة فى أولو جامع على مقربة من الحوض وقد أضاءت فوقه قبة الجامع الوسطى عالية يكسوها الزجاج ، تنفذ منها أشعة الضوء لتقابل أشعة النافورة .

وكذلك لا أرى فى مجلسى منارة مسجد أورخان هذا المسجد الصغير الذى هو أقدم مساجد بروسة طرا .

يا لك أكداً من الماضى والحاضر تلوح أمام العين ! يا لك ذكريات يحيش لها الصدر ، وينطلق منها الفكر فى مسارب يعيا بها جهد الفكر ! لله بروسة الجميلة سهلها وجبلها وأبنيتها وأشجارها ، والله فيها هذا التاريخ

العظيم يلوح في أرجائها ، والله نفسى كلما خلت انثال عليها من العبر والفكر
ما يملؤها هماً وحزناً وعزوفاً من الناس ونفوراً ، وما يسمو بها في عالم
من الخيال ، والحقيقة لا تدري أهى سعيدة فيه أم شقية ؟ ؟
أيها القلم ! حسبك ! فما تركنى الناس أبلغ في خلوتى ما أريد منها ،
ها هم قد جلسوا يتحدثون ، وبدأت أصوات النرد ، تقطع في نفسى
حديث الفكر . . .

قف ! فقد مضيت في الكتابة نصف ساعة ، وما أخسرك إن كنت
جريت هذا الشوط بغير جدوى !

إيه بروسة ! والدنيا غير والدهر قلب . ليت شعرى ، وأنا أحبك
وأود لو انفسح لى الزمان للبقاء فيك . فتبلغ نفسى من جمالك وجلالك
غايتها . . . إيه بروسة ! ليت شعرى أراك مرة أخرى ، أم تلك جلسة
التسليم والوداع إلى الأبد ؟ إنما العلم عند الله .
وإنما نحن ظلال متنقلة ، وليس لنا من الأمر شئ .^(١)

١١ — بروسة أيضاً^(٢)

لم يكن بد من رؤية بروسة ، على ضيق الوقت . فما زلت فى شوق
إليها منذ رأيته قبل ثمانى سنين ، وما كنت لأستطيع أن أقاربها ،
ولا أذهب إليها .

(١) قد يسر الله زيارة بروسة بعد ثمانى سنين ، كما يرى فى المقال الذى بعد هذا
فله الحمد (٢) كتبت فى بروسة بعد ثمانى سنين من كتابة الكلمة التى قبلها .

ركبت باخرة من بواخر استنبول الجميلة إلى يلووه . فسارت زهاء ثلاث ساعات حتى بلغنا الشاطئ ، فإذا سيارات كبيرة مهيئة للمسير إلى بروسه .

دخلت المدينة عصرآ ، فاسترحت قليلاً . ثم خرجت أجدد العهد بمعالمها . فكانت الصور تتجلى لى واحدة واحدة ، فتجلو ما أخفاه الزمان من الذِكر فى نفسى ، ويحسر الزمان كما تحسر السيول عن الأطلال : وجلا السيول عن الطلول كأنها زُبُر تجدد متونها أقلامها رأيت شارعاً كبيراً فيه تمثال للغازى ، وهو شارع جديد ذهب ببعض ما عرفت من المعالم القديمة . ولكنى بعد قليل عرفت المعاهد التى رأيتها قبلاً ، وجددت العهد بها كلها .

كان أول ما قصدت ، بعد جولة قصيرة فى المدينة ، أولو جامع (الجامع الكبير) جامع السلطان بايزيد الأول . وهو جامع لا يدخله داخل مهما قسا قلبه إلا حن إلى الصلاة !

جامع جميل تبارى الخطاطون على مرّ العصور فى تزيين جدرانہ وعمده ببدايع أقلامهم . فحيثما توجه النظر راقته آية أو حديث أو حكمة ، أبدع الكاتب فى خطها ، وافتن فى تركيبها ؛ وكثير من الجمل كتب طردأً وعكساً ليتم تراوج الفن .

وفى سقف المسجد عشرون قبة صغيرة تتوسطها قبة كبيرة من الزجاج ينصب منها الضوء على حوض فيه نافورة تلقى الأشعة بمثلها صفاء وجمالاً .

فلا تزال تسمع بين الماء الصاعد والضوء الهابط وسوسة تحالط القراءة والتسبيح في جوانب المسجد .

قد وصفت بروسة قبلاً . فلا أعيد الحديث عنها إلا جلسة لي عند يشيل جامع (الجامع الأخضر) :

جلست عند بشيل جامع على مرقب عال يشرف على المدينة ، وعلى سهل واسع أخضر تحده جبال — وكنت جلست هذا المجلس قبل ثمانى سنين ؛ نخيل إلى أنى كنت فى مجلسى هذا قبل أيام قليلة ، كأن لم تمض بين الجلستين ثمانى حجيج . ثمانى سنين كأنها الأمس واليوم فما بقاء عمر تطير سنوه طيران الساعات

جلست أقلب الطرف بين بروسة الممتدة على السفح ماضيها وحاضرها وبين السهل الجميل ، وأردد الفكر بين الماضى والحال . وطاف بى طائف من الشعر فكتبت هذه الأبيات ذكراً لإحدى البُنَيَّات :

على مرقب فى الطود فوق بروسة	جلست يجول الطرف والفكر يشرد
تردّ لى الذكري سنين قد انقضت	وعندى من التاريخ غيب ومشهد
على السفح أسطار وفى السهل مثلها	تطالع فيها العين ما ليس ينفد
يلوح مع الأطيّار فى الطود منزل	ويسمو مع الأشجار فى اللوح مسجد
خطوط لها فى العين مرأى ورونق	وفى نغمات الريح لفظ مغرّد
والنفس ، بعد الخط واللفظ ، مقصد	معان بأعماق الضمير تردّد

تراءى لى السهل الفسيح جميعه مصلى ، وللأشجار فيه تعبد
تقيم له الأجبال جدران معبد له القبة الزرقاء سقف مؤبد
يعارض عيني فيه أنى توجهت خيالك يدنو فى الفضاء ويبعد
يلوح كما لاحت تماثيل مريم تزين بالإبداع فيهن معبد
فلولا جلال لا يحد وبهجة تخيلت أنى فى الكنيسة أقعد

١١ — من استنبول إلى اسكيشهر

فصل القطار من حيدر باشا على الشاطىء الأسوى ، والساعة ثمان
من صباح الثلاثاء ثانى رجب سنة ست وخمسين وثلاثمائة وألف (٧ سبتمبر
سنة ١٩٣٧) . فسار صوب الشرق والجنوب محاذياً خليج أزميت .
مر بهركة الشهيرة بمناسجها ، وبلغ أزميت والساعة إحدى عشرة ثم عارفية
بعد الظهر . ثم توجه القطار صوب الجنوب فضرب فى أرض دكناء خصبة
كثيرة الجبال والأودية والأنفاق والمياه والشجر والفاكهة . لا يمل المسافر
ترديد النظر فى جمالها ونضرتها .

وفى القطار اسكيشهر « المدينة القديمة » بعد الساعة السادسة من المساء
فقد سار إليها من استنبول عشر ساعات .

أويت إلى فندق صغير قريب من المحطة ، وبكرت يوم الأربعاء
أسير فى البلدة وأتخلل طرقها . فأدانى طريق جديد فى أحد أطرافها ،
إلى مكان واسع اجتمعت فيه عربات كثيرة تجرها الثيران عرفت

أنه سوق تجلب إليه غلات القرى القريبة . وهى العجلات التى وصفها ابن بطوطة من قبل .

عدت إلى الفندق فركبت عربة كعربات الركوب المعروفة فى مصر ، وسألت عن دار المفتى ، وكنت أحمل إليه رسالة من أحد أصدقائه . وليس للمفتين اليوم شأن وسمى ، ولكن لهم بين الناس مكانة ، ولهم فى الإرشاد أثر حسن .

أصعدنا فى المدينة صوب ربوة مشرفة عليها ، وهذا السؤال بعد السؤال إلى الدار . قرع الحوزى باب دار صغيرة ، فانفتح عن شيخ وقور تلقانى بالتسليم والترحيب . فدخلت داراً نظيفة طاهرة بعد أن خلعت حذائى إتباعاً لسنة القوم .

وللترك عناية بالطهارة . وكانت السنة عندهم أن تخلع النعال على أبواب الدور لتبقى الدار كلها طاهرة ، وأنعم بها سنة إسلامية . وقد نزلت منذ سنين داراً فى قاضى كوى ، فأقمت بها شهراً . فمأريت أحداً دخلها إلا خلع نعليه ، ولبس نعلان نظيفة يسير بها فى الدار . فأين من هذا بدعة المدينة الحاضرة التى نطأ كل شىء بنعالها ؟

تركت دار المفتى بعد جلسة قصيرة لانتظره فى فندق هناك يسمى : « بوزان بلاس » . ثم سرنا لنرى بعض مشاهد المدينة وآثارها . فرأينا مساجد منها مسجد معطل بناء السلطان علاء الدين السلجوق . ورأينا حوض الماء الذى يسقى المدينة ، وأنايب ماء حاراً فى وسط البلد يرتفع

بها الناس . وفي المدينة سحّات تساق مياهها إلى البيوت والمساجد والحمامات .
وبها نهر يسمى : « بور صوق صو » . وهو من روافد نهر سقاريا .
أويت إلى الفندق ، وقد أخذ منى الزكّام مأخذه ، وكان عقابيل
برد أصابني في بروسة .

أشار على عثمان قيمّ الفندق أن أذهب إلى الحمام — ولا أنسى أدب
عثمان ومودّته ومبالغته في إكرامي — قلت : لا قبل لي بالحمامات العامّة
إنها حارة الماء ، كثيرة البخار . فقال : ترى الحمام ولك الخيار . وما زال
بني إلحاحه حتى ذهبت إلى حمام على مقربة من الفندق . فسار أمامي
إلى أن فتح باباً . فرأيت حوضاً واسعاً قريب الغور ، جلس على حافته
المستحمّون مؤتزرين ، ووضعت يدي في الماء فإذا هو حارّ جداً . ثم ألقيت
حجرّاً خاصة بها أحواض صغيرة ، فأخذت واحدة منها ، وكان آخر عهدي
بهذا الزكّام . فشكرت لعثمان إلحاحه ، وحمدت لاسكيشهر حماماتها !

تركت أمتعتي في الفندق ، وسافرت إلى أنقرة يوم الخميس ، وعدت
يوم الأحد . فأمضيت يومى في اسكيشهر منتظراً قطار قونية !
وكانت الأسواق مغلقة ، فلم نظفر من مصنوعات المدينة بما أردنا ،
ولعنّا هذه البدعة بدعة الأحد !

وقد شهدت صلاة الظهر في مسجد سليمان . وهو مسجد جديد ، بناه
أحد أغنياء المدينة موضع مسجد أحرقه اليونان فيما أحرقوا وخرّبوا
من اسكيشهر .

وحرصت على أن أشهد درس المفتى . فذهبت إلى جامع أودون بازار
فشهدت صلات العصر . ثم جلست ناحية من الجامع لايرانى المفتى . واجتمع
كثير من الناس ، وعلا المفتى كرسيه ، وأخذ يتحدث فى سيرة الرسول ،
ويعظ الناس . فراقنى بيانه ، وأعجبني أدب القوم فى جلوسهم واستماعهم .
وتركت اسكيشهر شاكرًا لأهلها مودتهم وإيناسهم على قصر
الاقامة بينهم .

١٢ — أنقرة

سار القطار من اسكيشهر ميمًا أنقرة ، والساعة إحدى عشرة صباح
الخميس رابع شهر رجب . وكنت مررت بأنقرة فى طريقى من حلب
إلى استنبول . فلم أعرج عليها راجيًا أن أنزل به فى عودتى .
ضرب القطار خمس ساعات ونصف صوب الشرق فى برية قليلة الماء
والشجر . وشتان ما بين هذه الطريق ، والطريق من استنبول إلى اسكيشهر
ومررت بنهر سقاريا . فذكرت جلاد الأبطال على ضفتيه لدفع العدو
عن ديارهم ، وأكبرت البطولة التى صورتها صفحة هذا النهر ، والتى تجرى
مع مائه على مر الدهور !

وكان معى فى القطار ضابط تركى . فما تحدثنا حتى قطعنا معظم الطريق
فسألته عما بيننا وبين أنقرة ، مللاً من السفر وشوقاً إلى الغاية . فلما عرفنى

مصرياً قال : نحن لا نعد المصريين أجنب في بلادنا . قلت : وما عدت
نفسى في دياركم غريباً على رغم الحادثات .
ثم لاحت المدينة في أضوائها المنشرة بين السهل والجبل ، وبدأت
فى نور من تاريخها ، ولألاء من مجدها ، وزهو بفعالها . فذكرت قول
شوقى رحمه الله :

قم ناد أنقرة وقل يهنيك ملك أقمت على سيوف بنيك
أعطيته ذود اللبابة عن الشرى فأخذته حراً بغير شريك
تبنى الممالك من صخور أهلها والقوم من أخلاقهم نحتوك
فلو أن أخلاق الرجال تصورت لرأيت صخرتها أساساً فيك
أكبرت جهاد القوم لا أخص رجلاً ولا فريقاً فإنما هى مآثر الأمة
التركية كلها لا مآثر زيد ولا عمر ، وهى العزة الإسلامية التى ورثتها هذه
الأمة على الأجيال ، وحفل بها تاريخها فى ساحات القتال .

أنقرة مدينة قديمة عرفت قبل الرومان ، وكان لها شأن فى الدولة الرومانية
وزادت مكانة وعمراناً فى عهد الدولة العثمانية . وكانت قبل الحرب من
أكثر مدن الأناضول عمراناً ، وحاضرة ولاية من أكبر ولاياته تسمى
باسمها . وهى فى بقعة كثيرة المياه والزرع والشجر . وكان سكانها أكثر
من سبعين ألفاً . ثم بلغت ذروة مجدها حين اتخذها الترك مقرّ القوى
المجاهدة فعاصمة الجمهورية .

وقد فتحها الخليفة المعتصم حينما سار لغزو عمورية ، ويقول أبو تمام :
يا يوم وقعت عمورية انصرفت عنك المني خُفلاً معسولة الحلب
جرى لها القال برحاً يوم أنقرة إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجرب
ولها ذكر في قصة امرئ القيس المعروفة .



منظر عام لأنقرة

وأما أنقرة التي ذكرت في قول الأسود بن يعفر :

ماذا أوّمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعث إباد
أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجيء من أطواد

فهي موضع بنواحي الحيرة . ويقال إنها أنقرة التي نتحدث عنها . وهو قول بعيد .

وقد استولى عليها السلطان مراد الأول سنة ٧٦٢ هـ . وكانت عندها الوقعة المعروفة بين تيمورلنك والسلطان بايزيد الأول سنة ٨٠٤ . وقد أسر فيها بايزيد . وينسب إليها كثير من العلماء ، وبها مزارات طائفة من الصوفية منهم حاجي يرام ولي ، وله جامع كبير .

- ٣ -

وأنقرة الجديدة متصلة بالقديمة تمتد على السفح والسهل . سيساؤها^(١) جادة واسعة مديدة قامت على جانبيها أبنية شاهقة جميلة معظمها مباني الدولة ، ويمتد منها شوارع أخرى مصعدة ومصوبة . ولا تزال يد التعمير عاملة في كثير منها .

وهي في نظامها ونظافتها وحدائقها وتماثيلها من أجمل المدن العصرية على صغرها .

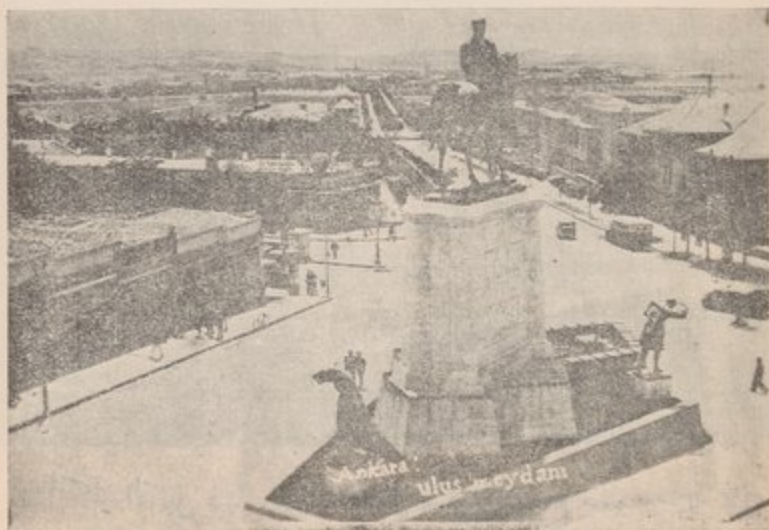
أمضيت سحابة اليوم جائلاً في أرجاء المدينة أتأمل مبانيها وتماثيلها ، وما أكثر التماثيل فيها . وكلها للغازي منفرداً أو مع صور رمزية تمثل نهضة تركيا .

وحرصت على صلاة الجمعة في أنقرة ، ولا جمعة على مسافر ، ولكني رغبت أن أصلي الجمعة في أنقرة معقل الكمالين ومصدر دعوتهم . فعمدت

(١) السبائك الموردة الفكري

إلى جامع صغير هو أقرب الجوامع من أنقرة الجديدة ، ومن التمثال الأكبر للغازى .

بلغت باب الجامع فإذا الناس مزدحمون فى فناءه الصغير ، وإذا امرأة سائلة على الباب ترشد القادمين إلى أن فى داخل المسجد مواضع للصلاة . جرتُ الفناء مزدحماً بالمصلين إلى المسجد فاتخذت مكانى على عتبة بين صفوف مرصوفة فى الداخل والخارج .



تمثال الغازى فى أنقرة

سرّنى أن يكون هذا التزام فى الصلاة على خطوات من التمثال الأكبر الذى يُظن أنه أقيم محادثة للدين . وخرجت أنظر إلى المسجد

الصغير يموج بالمصلين ، وإلى النصب الكبير يعلوه الغازى فارساً ويحف به تماثيل ترمز إلى جهاد الأمة رجالها ونسائها إبان حرب الاستقلال . قلت : إنما رفع هذا الفارس إلى مكانه من هذا النصب الإيمان المتمكن فى نفوس هؤلاء الرجال والنساء من هذه الأمة المرزأة الصابرة الكريمة . ما هذا التمثال فى حقيقة أمره إلا انتصار هذا المسجد فى البأساء وثبات إيمانه حين زلزلت الأرض . إن هذا تمثال البطولة ولكنه مدين لهذا المسجد على ما بينهما من تنافر .

أمضيت يوم الجمعة وصباح السبت مطوفاً فى أنقرة إلى غير غاية ، وقطعت الجادة الكبيرة من أولها إلى نهايتها ذهاباً وإياباً ، ورأيت مدرسة الزراعة ودور الوزارات . ثم لقيت مساء السبت الأخ الكاتب الفاضل نور الدين ، وكنت ذهبت إلى جريدة أولوس مساء الجمعة فزرتة وتواعدنا اللقاء ليهدىنى إلى ما لم أر من مشاهد المدينة . ركبنا معاً فأصعدنا على السفح فمررنا بدار عصمت باشا فدار الغازى ودار أخته وهما مشرفان على المدينة . ودخلت بيت الشعب فى أنقرة (خلق أوى) . وفى كل مدينة تركية بيت للشعب تبث فيه الآراء وتعلم النظم التى يريدونها للأمة حزب الشعب . وبيت أنقرة بيت ضخم أمامه تمثال للغازى ؛ صعدت إلى الطبقة العليا فى درج ضخم يرى الصاعد فيه على الجدار صورة كبيرة فيها قبر تيمورلنك . ورأيت حجرات منها حجرة كبيرة فيها أثاث شرقى وتحف جميلة أخبرت

أن الشاه رضا بهلوى استقبل فيها حينما زار أنقرة .
وسرّنى أن رأيت فى هذه الحجرة ألواحاً تزينت بآيات من القرآن
الكريم وأبيات من قصيدة البردة . والحق أنى ما حسبت بيت الشعب ،
وهو مبعث الدعوة الكمالية ، تعلق فيه ألواح القرآن ولولا إظهار براعة الترك
فى الخط العربى الذى محاه الغازى من صفحات تركيا الحديثة . وقد تفاءلت
خيراً وقلت : إنها الثورة ثم الهدوء ، والجور ثم القصد ، والإفراط ثم الاعتدال
وعسى أن يتوب إخواننا إلى كثير مما هجروا من تاريخهم



الجمادة الكبرى فى أنقرة

ولقيت رئيس بيت الشعب ، وهو أحد النواب فتحدثنا وأفقيته مهتماً
بكتاب فى يده فرنسى يتضمن تاريخ النصيرية ؛ أطلعنى على نبذة من

الكتاب تُعدّ فرق النصيرية ، وتبين أن منها الشمسية أى عباد الشمس والقمريّة أى عباد القمر والكليية أى عباد الكلب . قال محدثى : الكلب فى التركية إيت . قلت نعم . قال والنسبة إليه إيتى . قلت أجل . قال فكامة إيتى (حيثى) كلمة تركية معناها « كلبى » . ووقف فكرى مبهوتاً عند هذا الحد ، وتقدم محدثى يقول : فالنصيرية من الحِيثيين فهم ترك . أو كما قال . قلت : نعم وفوق كل ذى علم عليم

ولست أخفى على إخواننا الترك أنى قرأت وسمعت كثيراً من نظرياتهم الحديثة فى أصل الحضارة والإنسان ومدنية المصريين واليونان وردّ هذا كله إلى أصل تركى ، وسمعت بنظرية لغة الشمس (كُونش دلى) وهى اللغة التركية أصل لغات العالم كلها ، وعرفت رأيهم فى السومريين والحِيثيين . وأمثال هذا ، فرأيت أن عقل الأمة التركية وشرفها يحتمل عليها الرجوع عن مثل هذه الأقاويل . إن فى حقائق التاريخ التركى ما يغنيهم عن التعلق بالخرافات التى يسخر منها العقل

ضاق الزمن عن إطالة الإقامة فى أنقرة لأعرف ما أريد من ماضيها وحاضرها فبرحتها عائداً إلى أسكيشهر فى قطار الليل .

١٣ — من أسكيشهر إلى قونية

ركبت قطار المساء والساعة ست ميماً قونية ؛ وكانت زيارة قونية مُنية فى النفس حاولتها حينما سافرت إلى استنبول من قبل فحال دونها

بُعد الشقة . وبينها وبين استنبول أكثر من عشرين ساعة بالقطار .
وكنت حينئذ أهاب اختراق الأناتول . فلما اخترقته في هذه السفرة ،
وأنست بالسفر فيه ، عرمت على الرجوع إلى الشام من الطريق التي أتيت
منها ؛ وكانت قونية أحب بلادها إليّ ، وكانت نفسى على رؤيتها أحرص .
وإنما أربى من قونية زيارة مولانا جلال الدين .

كان معى فى القطار شاب من قونية ، معه زوجه ؛ فحدثنى عن الترك
وتمسكهم بدينهم ، وما فعلوا فى الحرب ، وكيف توغل اليونان فى الأناتول
حتى قذفهم أبطال الترك فى البحر ؛ وقال : إنهم قاربوا قونية ، ولكن
مولانا جلال الدين ردّهم عنها . قلت فى نفسى : هذه كلمة ظاهرها خرافة
وباطنها حق ؛ فإن ما يبثه جلال الدين فى النفوس من قوة وإيمان وجهاد
وحرية جدير أن يرد كل عدو عن حماه .

بلغ القطار قونية والساعة ست ونصف من الصباح فمضيت إلى فندق
اسمه فندق سلجوق فاسترحت بمقدار ما حال التعب الشديد يبنى وبين
مشاهدة المعاهد التى طال اشتياقى إليها . ثم خرجت إلى المكتبة « ملت
كتبخانه سى » فألقيت نظرة على فهارس المكتبة ولا سيما العربية منها
فلم أجد فيها من نفائس الكتب أو غرائبها ما يستوقف الباحث ، وأرسل
معنا قيم المكتبة رجلاً من الموكلين بالآثار فذهب بنا إلى حيث يدفعنا
الشوق ويدعونا الحب ، إلى البقعة التى ترسل الشعر والحكمة والتصوف

في آفاق الإسلام منذ ستة قرون ، إلى المزار الذي استبدل به صاحبه
قلوب العارفين :

فلا تطلبن في الأرض قبري فإنما صدور الرجال العارفين مزارى
إلى الذكرى العظيمة التي لا تزال تدوى في القلوب تقي وشعراً ،
وفي العقول حكمة وإيماناً ، وفي الأذان موسيقى وغناء ، إلى النبوغ الذي
مزج الحكمة والتصوف والشعر في أحسن تقويم ، إلى الرجل الذي أنبتته
بلخ وظفرت به قونية ولكن لم يسع قلبه وعقله مكان ، إلى الحكيم
البكري الذي لا تحده الأنساب والأوطان ، إلى صاحب المثنوى والديوان
مولانا جلال الدين الرومي الذي تنسب إليه الطائفة المولوية المعروفة في مصر
والأقطار الإسلامية . وقد اشتهرت مجالسهم في السماع ، يجتمعون على
نظام خاص ويدورون بترتيب محكم على نغمات الناي وإنشاد المثنوى
والناي عند المولوية رمز إلى الحنين الدائم إلى العالم الروحي . وقد بدأ
مولانا جلال الدين كتاب المثنوي بنشيد الناي وأوله :

استمع للنّاي غنى وحكى	شفه البين طويلاً فشكا
مذ نأى الغاب - وكان الوطناً -	ملاً الناس أنينى شجناً
من تشرده النوى عن أصله	يبتغى الرجعى لمغنى وصله
أين قلب من فراق مُزقاً	كى أثبّ الوجد فيه حُرّقاً ؟
كلّ نادٍ قد رآنى نادباً	كل قوم تحذونى صاحباً
ظنّ كلّ أننى نعم السّمير	ليس يدرى أى سر فى الضمير

إن سرى في أنيني قد ظهر غير أن الأذن كلت والبصر
 إن صوت الناي نار لا هواء كل من لم يصلها فهو هباء
 هي نار العشق في الناي تثور وهي نار العشق في الخمر تفور . الخ



دار المولوية في قونية

وكان للمولوية في تركيا شأن عظيم . وكان رئيسهم (جلبي قونية) يقلد
 سلاطين العثمانيين السيف حين يتولون الملك .
 وكذلك كان لهم أثر عظيم في الأدب ، وحسبك من شعرائهم
 الشيخ غالب .

هذه دار المولوى ولكن لا أرى الوفود متزاحمة على بابها ، ولا أرى الدار آهلة بنزأها ؛ قد أقفر الندى ، وخلا السامر ، وعدت الدار من الآثار يدخل إليها بالمال الصالحون والفجار .

يلقى الداخل سور يتوسطه باب عتيق فوقه ظلة وعليه ثلاثة أبيات بالتركية تدل على أن السلطان مراد خان بن سليم خان بنى هذه الخانقاه سنة ٩٩٢ هـ . ومراد هذا هو مراد الثالث بن سليم الثانى بن سليمان القانونى (٩٨٢ — ١٠٠٣ هـ) . فإذا ولج رأى فناء ينتهى إلى الشمال بحجرات كانت مساكن المولوية ومجالسهم ومأوى ضيوفهم . وإلى اليمين حجر رفيعة اتخذت الآن مكتبة ، وأمام الداخل بناء كبير تعلوه فى الجهة اليمنى قبة خضراء مخروطية ، تحلق فوق قبر جلال الدين ، وفى الجهة اليسرى مأذنة وقبتان كبيرتان ، ويدخل إلى البناء من باب جميل مصنع تعلوه كتابة فيها هذا الشعار الذى يرى على كثير من أبنية المولوية : « يا حضرت مولانا » ، ويُفضى الباب إلى حجرة فيها آثار للمولوية ؛ فيها كتب ونسخ من المثنوى هى أقدم نسخه وأنفسها ؛ ثم باب آخر يفضى إلى قبور المولوية والمصلى ودار السماع (سماءخانة) : إلى اليمين رواق عليه قبة يفصله سياج وسُتر تمنع الناس أن يدخلوا إليه أو يروا ما فيه إلا أعلى ضريحين كبيرين : أحدهما لجلال الدين والآخر لأبيه بهاء الدين . ويبدو ضريح

الآب من وراء السياج مستطيلاً رأسياً . فيقول العامة : لقد قام بهاء الدين في قبره إجلالاً لابنه !

وفي وسط البناء رواق بناه السلطان الفاتح ، وإلى اليسار مصلى ودار للسمع من آثار السلطان سليمان القانوني .

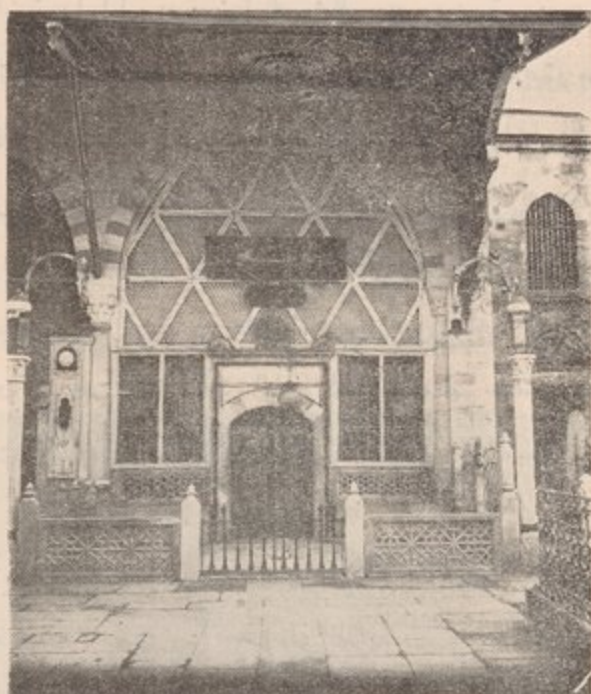
وفي البناء من عجائب الخط والنقش والتذهيب والكتب والبسط ما يبهز الناظر . وفيه من ملابس مولانا وآثاره وآثار بنيهِ .

رأيت أربع قلانس ، قيل : إن إحداها قلنسوة مولانا ، وأخرى لابنه سلطان ولد ، والثالثة لشمس الدين التبريزي ، والرابعة لحسام الدين جلبي ، من كبار أصحاب جلال الدين .

ورأيت ثلاثة مصاحف كتبت في أواخر القرن التاسع ، فيها ترجمة تركية ، ومصحف سلجوقي بين سطوره ترجمة فارسية ، ونسخاً من شروح المتنوي ، ونسخة من الفتوحات يقال إنها بخط الشيخ الأكبر .

ورأيت سجادة عليها صورة الكعبة . قيل أنها كانت لأم جلال الدين مؤمنة خاتون بنت السلطان جلال الدين خوارزمشاه ، وسجادة أخرى يقال أن السلطان علاء الدين السلجوقي أهداها لجلال الدين يوم عرسه ، عليها الآية : « أقم الصلاة لدلوك الشمس » .. وقناديل صنعت في مصر ... الخ أطفئنا بجوانب المكنان نستمع إلى الدليل ، وللدكرى في نفوسنا صوت أبين من صوته وأصدق وأجل ، ولكني أستعيز بالله من قول القائل :

يك طواف مرقد سلطان مولانا ی ما
هفت هزار وهفصد وهفتاد حج اکبرست
« طوفة بمرقد مولانا سبعة آلاف وسبعائة وسبعون حجاً اکبر »



الباب الداخلى لمزار جلال الدين

ثم خرجت وفي النفس حنين إلى البقاء وعزم على العودة :
خرجت أمشي يقول قلبي للرجل : بالله أنظريني
وعدت في اليوم التالي فلقيت أمين الدار ، وكنت واعدته اللقاء

لاشتراء بعض الصور . فقلت : أريد تجديد العهد بالمزار فدخل معي يطوف .
 في أرجائه ويصف ما يرى ويروى من التاريخ . وخرجت ولم أقض حاجات .
 الفؤاد من رؤية ما وراء السياج . ونعوذ بالله من الحجاب ! إن شرَّ ما يلقي
 الصوفي أن تسدل الحجب دون آماله ويحال بينه وبين مقصوده . خرجت
 كارهاً أثاقل لأمضى مع الرجل إلى داره ، فيعرض عليّ ما صوّر من آثار
 قونية . قال : أنت أستاذ ؟ قلت : نعم . قال : انتظر . ثم أشار إلى فتبعته .
 فرجع إلى المزار وتلفّت ، ثم أشار إلىّ وفتح باب السياج ، فتبعته . قال :
 نحن نمنع العامة من الدخول ونمكن الأساتذة الباحثين من رؤية ما يشاءون .
 فشكرت له وسرت إلى ضريح جلال الدين بين قبور كثيرة لشيوخ المولوية
 من أولاده . وقفت وقفة أناجي الروح العظيم وأستلهم حكمته وعظمته .
 ثم خرجت وفي النفس ما فيها من جلال الذكرى وثورة الشوق . . .

— ٤ —

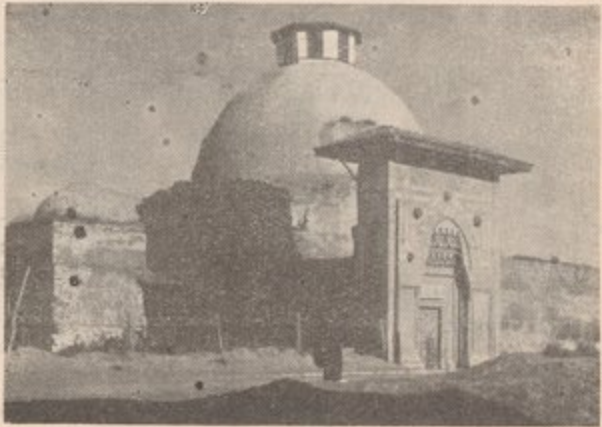
ورأينا من آثار قونية مسجد علاء الدين وقصره . وهما من أعظم آثار
 السلاجقة هناك ؛ يقومان على ربوة في المدينة تسمى ربوة علاء الدين :
 (علاء الدين تپه سی) .

ورأينا على مقربة من الربوة مدرسة قره دای وزير السلطان
 علاء الدين . ولا يزال فيها من عجائب الصنعة ، ولا سيما الكاشاني ، ما يخلدها
 على رغم الزمان الذي ذهب برونقها ، وكثير من نقوشها .
 وعلى باب المدرسة آيات وأحاديث وكلمات عربية . منها : رب أوزعني

أن أشكر نعمتك . إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى .
السماح رباح . العسر شؤم . الحزم سوء الظن . الولد مجبنة مَبْخَلَةٌ . . .
وفي المدرسة بهو عليه قبة ، وإيوان وحُجْر قليلة كانت للطلاب ،
وحجرة فيها ضريح صاحبها .

وزرنا مدرسة خربة تسمى صرحه لى مدرسة بنيت سنة ٦٤٠ هـ
ومدرسة صغيرة لحفظ القرآن كتب على بابها :

« أنشأ هذه البقعة في أيام دولة السلطان محمد بن علاء الدين خلد الله
مملكته صاحب الخيرات والحسنات محمد بن الحاج خاصبك الخطيب
أعلى الله شأنه . وجعلها دار الحفاظ سنة أربع وعشرين وثمانمائة » .



مدرسة قره دای في قونية

قلت : هذا تاريخ محرف ؛ فقد انتهت دولة السلاجقة قبل هذا

التاريخ . والظاهر أن البناء شيد سنة أربع وعشرين وستائة في عهد
علاء الدين كيقباد الأول (٦١٦ — ٦٣٤) ثم بدا لى أن السلطان
المذكور هنا من سلاطين بنى قرمان الذين خلفوا السلاجقة فى قونية .
ومن عجائب الآثار وبدائع الصنعة مدرسة إينجه منارة (مدرسة المنارة
اللطيفة) . وأنا أعنى القارىء من وصفها وأكتفى بما تنطق به صورتان
المثبتتان هنا .

ولا يسعنا أن نغفل جامع صاحب عطا (صاحب آتا) بناه أحد وزراء
السلاجقة الكبار نحر الدين على بن الحسين بن أبى بكر المتوفى سنة ٦٨٤
وقبره فى إيوان داخل المسجد ومعه خمسة قبور . وتدل الكتابة على مدخل
الإيوان أنه بنى فى مفتتح المحرم سنة ٦٨٢ .

وفى أطراف المدينة على مقربة من المزارع جامع صغير فيه قبر العالم
الكبير صدر الدين القونوى المتوفى سنة ٦٧١ ؛ وكان من الأساتيد فى علوم
الدين والتصوف . وكان واسطة بين الشيخ الأكبر محيى الدين ومولانا
جلال الدين . تزوج محيى الدين أمه ورباه . وعنه أخذ جلال الدين فيما يقال .
وله مؤلفات فى التفسير والحديث والتصوف .

ذهبت إليه وحيداً قبيل الغروب فما زلت أسأل حتى اهتديت إليه
فألفيته مقفلاً ، فسرت قليلاً وعدت فإذا رجلان جالسان بجانب الباب
أحدهما ضرير . فلما اقترب المغرب قلت : ألا يفتح المسجد ؟ ففتحوا الباب
فدخلنا إلى مسجد صغير عطل من جمال الصنعة والزينة فتقدم أحد الرجلين



مدرسة لينجه منارة (المنارة الطيفة)

فألقى قبعته ووضع العمامة فعرفت أنه الإمام . وتقدم الآخر وعلى رأسه
(كاسكت) فأداره وأقام الصلاة ، فصلينا المغرب وحدنا . وسألت عن



باب مدرسة إربد مناره

ضريح صدر الدين فأشير إلى نافذة تطل إلى حديقة صغيرة . فنظرت فإذا قبر بجانب النافذة فوقه عريش من الكرم وبجانبه أشجار

ولم تقرّ نفسى دون أن أرى مثنوى الصوفى العجيب الغريب الذى اتصل بجلال الدين فحوّله من الدرس إلى الخلوة ، ومن أستاذ علم إلى مرشد طريقة ، الرجل الذى أثار حوله الظنون والأيدى حتى قتل فى إحدى الثورات عليه ، فما زال جلال الدين يُشيد بذكره ويلهج به فى شعره حتى سمى ديوانه الكبير باسمه . ذلكم شمس تبريزى (شمس الدين محمد بن على التبريزى) الذى يقول فيه جلال ، وما أكثر ما قال فيه :
نه من تنها سرايم شمس دين وشمس دين

مى سرايد عندليب أزباغ وكبك أزكوهسار
باسمه الورق والعفادل تشدو لست وحدى أنوح : (شمس الدين)
عزمت على زيارته فقليل إن المزار مغلق لا يفتح لأحد . فاكثفت بمشاهدة البناء على بعد . ثم لج بى التطلع فسرت إليه ليلاً فجارت بى طرق متعرجة ضيقة فرجعت أسفاً وأعجلنى السفر المبكر عن المسير صباحاً . وإن قدر لى الرجوع إلى قونية كانت زيارة شمس الدين أول ما أفعل .

قونية مدينة كبيرة فى ولاية واسعة تسمى باسمها . وهى على حافة صحراء كبيرة يمر بها نهر صغير ينتهى إلى بحيرة غريبها . وتبعد ٤٥٠ كيلاً من استانبول إلى الجنوب الشرقى منها . ويتصل بها سهل خصب

جداً تكثر خيراته إذا أصابه مطر جود ، ونهرها وينابيعها لا تنفي باروائها .
وصناعة البسيج بها رائجة

وهي كثيرة المساجد بها زهاء ١٥٠ مسجداً و ٥٠ جامعاً ، وأهلها
معروفون بالدين والتقوى
وبها كثير من آثار السلاجقيين إذ كانت حاضرة دولتهم في آسيا
الصغرى

وهي مدينة قديمة عرفت أيام اليونان والرومان . ومن الأساطير التي
تروى أن تليماً سَلَطَ عليها فكان يبلع النساء والصبايا حتى قتله برسبوس
ابن جوبيتر (المشتري) فوضع أهلها على أحد أبوابها تمثالاً لهذا البطل
الذي نجاهم من التنين فسميت المدينة إيكونيوم أخذاً من كلمة إيكون
أى الصنم أو التمثال

إذا وقف الإنسان على ربوة علاء الدين رأى أمامه ميداناً كبيراً
فيه أنصاب حديثة للجمهورية التركية ، وأبنية ومساجد . وينتهى النظر
إلى قبة مولانا جلال الدين تبدو من وراء الأبنية . وبها شوارع مديدة
واسعة . منها الجادة التي تمتد من الربوة إلى المحطة وفيها تمثال عظيم للغازي .
ويرجى المدينة مستقبل عظيم . ولا ريب أنها كانت أيام السلاجقة أعظم
عمراناً وأكثر سكاناً

وقد زارها ابن بطوطة بعد زوال دولة السلاجقة واستيلاء أمراء
بنى قرمان عليها فقال :

« مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والأنهار والبساتين والفواكه وبها المشمش المسمى بقمر الدين — وقد تقدم ذكره — ويحمل منها أيضاً إلى ديار مصر والشام . وشوارعها متسعة جداً وأسواقها بديعة الترتيب وأهل كل صناعة على حدة . ويقال إن هذه المدينة من بناء الإسكندر . وهى من بلاد السلطان بدر الذين بن قرمان وقد تغلب عليها صاحب العراق فى بعض الأوقات لقربها من بلاده التى بهذا الإقليم

نزلنا منها بزواية قاضيه ويعرف بابن قلم شاه ، وهو من الفتيان وزاويته من أعظم الزوايا . وله طائفة كبيرة من التلاميذ ولهم فى الفتوة سند يتصل إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ، ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة

وكان صنيع هذا القاضى فى إكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله وأجل . وبعث ولده عوضاً عنه لدخول الحمام معنا

وبهذه المدينة تربة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا . وكان كبير القدر . وبأرض الروم طائفة ينتمون إليه ويعرفون باسمه فيقال لهم الجلالية كما تعرف الأحمدية بالعراق والحيدرية بخراسان . وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد والصادر » اهـ .

ولا أنسى مسيرى فى قونية ليلة الوداع وانتحائى منتدي قرب المحطة وجلسى تحت أشجار هناك إلى نافورة كأن وسوستها فى صمت المكان مناجاة أو حديث نفس

وبينا يجول الفكر في مشاهد قونية وتاريخها ، ويطير بيني وبين الوطن والأهل في لحات ، انبعث المذيع مبلغاً رسالة مصر كأنها جواب النجوى . ولست أدري أعرف صاحب المنتدى أنى مصرى فأنسى ، أم كان اتفاقاً أجاب حديث الضمير . وكثيراً ما سمعت في استنبول وقونية صوت مصر ، لا سيما حين تلاوة القرآن

١٤ — من قونية إلى أطنة (أذنة)

فصل القطار من قونية والساعة سبع وعشر دقائق من صباح الأربعاء عاشر رجب سنة ست وخمسين وثلاثمائة وألف (١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٧) وكان مقصدنا أذنة ، والمسافة بينهما يقطعها القطار في إحدى عشرة ساعة . سرنا برهة نرى أرضاً مخضرة مشجرة ، ثم ضربنا في سهل قاحل ، وبعد ثلاث ساعات وعشرين دقيقة وقف بنا القطار على قرمان . فرأينا من المدينة على بعد قلعة قديمة في إقليم مشجر . وهي على ٥٧ كم إلى الجنوب الشرقى من قونية ، وكانت حاضرة بنى قرمان الذين أقاموا إمارة حين ضعفت دولة السلاجقة ، وبقي الأمر في أعقابهم أكثر من قرنين (٦٥٤ — ٨٨٨ هـ) . وسميت المدينة قرمان باسمهم ، وكانت قبلاً تسمى لارنده . وبهذا الاسم ذكرها ابن بطوطة ، وقد زارها في عهد سلطانها بدر الدين بن قرمان ، وهو ابن مؤسس الدولة كريم الدين بن قرمان . يقول ابن بطوطة :

« وكانت قبله لشقيقه موسى ، فنزل عنها للملك الناصر — أظنه يعنى محمد بن قلاوون — وعوضه عنها بعوض ، وبعث إليها أميراً وعسكراً ، ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين ، وبنى بها دار مملكته ، واستقام أمره بها . ولقيت هذا السلطان خارج المدينة ، وهو عائد من تصيده . فنزلت له عن دابتي ، فنزل هو عن دابته . وسلمت عليه وأقبل عليّ . ومن عادة ملوك هذه البلاد أنه إذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله وزادوا في إكرامه . وإن سلم عليهم راكباً ساء لهم ذلك ، ولم يرضهم ، ويكون سبباً لحرمان الوارد . وقد جرى له ذلك مع بعضهم وسأذكره . ولما سلمت عليه وركب وركبت ، سألني عن حالى وعن مقدمى . ودخلت معه المدينة . فأمر بإنزالى أحسن نزل . وكان يبعث الطعام الكثير والفاكهة والحلواء في طيافير الفضة ، والشمع . وكسا وأركب ، وأحسن . ولم يطل مقامنا عنده ، وانصرفنا إلى مدينة أقصرا » اهـ .

وقد لقيت في القطار بين قونية وأطنة اثنين من حلب يقيان في قونية . فعرفت منهما طرفاً من صناعة النسيج في المدينة . وكان في المقصورة التي ركبت فيها رجل من اسكيشهر اسمه محمد أصله من مهاجرى رومانيا ، وآخر اسمه عمر من قونية ، وآخر اسمه سعد الدين من بنى كوى ، وقد أخبرنى أنه طبيب . وعرفت من أحاديث الرفاق أن تيسير الحكومة التركية السفر ، وإرخاصه إبان معرض أزمير يرغبان الناس في الأسفار لتعرف أرجاء البلاد ، والاستفادة مما يقفون عليه من أحوال التجارة والصناعة .

وقد تحدث رفيقنا الطبيب فيما تحدث عن حب الترك المصريين ،
وفرحهم بتقدمهم وترحيبهم بهم في ديارهم . وساق الحديث إلى العراق
فقال : وكذلك نحب أهل العراق ونحفظ عهدهم . ولكن أهل الشام
لم يعرفوا أخوتنا وعهدنا إبان الحرب ، حتى لم يتورعوا أن يقتلوا مرضانا
في المستشفى ؛ فأكبرت هذا واستفطعته وأنكرته . فأيد قوله حلي كان
حاضراً . قلت : لعن الله الفتنة إنها تثير الخصام وتقطع الأرحام ، وتضرب
الصديق بيد الصديق ، وتلعن القريب بغربة البعيد . وما أعرف أهل
الشام إلا أهلاً لكل خير . وما لنا والماضي القريب الذي ظلم فيه الترك
العرب فثار العرب على الترك ؟ لماذا لا نرجع إلى العصور المتطارة فنرى
تآخي الأمتين في السراء والضراء قروناً كثيرة ؟ ولماذا لا ننظر إلى الحاضر
والمستقبل فنرى أن منفعتنا وأواصر كثيرة تقضى علينا بالمودة وال صداقة ؟
ثم مررنا بأريلى ؛ وهى قصية على ١٣٠ كيلاً إلى الجنوب الشرق من
قونية ، كثيرة المياه والشجر والفاكهة . ونزل بعض الركاب ورجعوا
إلينا وفى يد كل منهم رأس ضأن مطبوخ . وقالوا : هذا بلد مشهور
بالرءوس . وكنت أوصيت خادماً للقطار بغدائى . فلما حضر شاركت رفيق
اسكيشهر غلظت طعامى بطعامه فلم تفتنى رءوس أريلى اللذيذة .

وبلغنا أولو قشالة والساعة واحدة وخمس وأربعون . وهى قرية يلتقى
عندها سكتا الحديد : السكة الآتية من قونية واسكيشهر والأخرى الآتية
من قيصرية وأنقرة . وهذا الموضع مبدأ جبال طوروس من الناحية الشمالية

ارتفاعه ١٤٣٦ متراً . وعادت جبال طوروس بمرائيها الرائعة وقممها وأوديتها الهائلة . وقد وصفتها من قبل .

ومررنا بقره بيكار ، وهي معروفة بمياهها العذبة اللذيذة . وفي تركيا أنواع من مياه الينابيع تهتم الحكومة بحفظها ونقلها في القوارير إلى أنحاء المملكة . ورأيت في استانبول حوانيت لشرب هذه المياه خاصة . وأذكر أنني حين ركبت القطار من حلب إلى استانبول ألفت في القطار ماء من هذه المياه فأكثر منه حين الطعام وبين الطعامين . وكان معي رفيق انكليزي فسأل عن ثمن الزجاجاة . قلت : لا تسأل قبل أن نستمتع بهذا الماء اللذيذ فإني أخشى أن يكون غالياً . فدعنا نشرب على جهل .

١٥ — أذنة (أطنة)

وقف القطار على أذنة والساعة ست ونصف مساء بعد مسيرة إحدى عشرة ساعة من قونية . فنزلت في فندق اسمه يني أوتل أي الفندق الجديد . وكان بعض الرفاق أخبرني أنه وفندقاً آخر لأحد البغداديين أحسن فنادق المدينة .

ذهبت بعد الاستراحة إلى حديقة على نهر سيحان تسمى سيحان باركي أي حديقة سيحان . فرأيت مكاناً واسعاً مضاء به مجالس جميلة مشرفة على النهر وفيه مطعم كبير ومسرح . ولما أصبحت سرت في المدينة فإذا شارع طويل يمتد من المحطة ، وهي

خارج البلد ، ويسير في طرف المدينة بين أبنية جديدة أروعها نصب ضخمة فيه تماثيل يعلوها تمثال الغازي مصطفى كمال . وتماثيل الغازي وما يتصل به من أنصاب تمثل تحرر الأمة التركية واستقلالها ، تقابل زائر كل مدينة تركية كبيرة .

ثم يخترق الشارع المدينة كلها حتى ينتهي إلى نهر سيحان ، ويرى السائر فيه نشاط التجارة وكثرة السابلة والعربات .

وكان أحد الترك قال لي في اسكي شهر : إن الإنسان ليجد في أذنة رائحة بلاد العرب . وحق أن المدينة في سهل واسع خصب حار ينبت به زرع البلاد الجنوبية ، وتبدو في أفقه نخلات بين الحين والحين . ومنظر الأرض جنوبي طوروس يخالف منظر الأرض شماليه . وكذلك الهواء يختلف كثيراً . وأذنة حارة رطبة لا يحف عرق السائر فيها صيفاً ولا يستطيع ساكنها إغلاق منافذ مسكنه



١٦- في طرسوس

هذه مدينة أذنة (أطنة) ، قدمتها البارحة ، وسيمر بها اليوم قطار طوروس السريع ذاهباً إلى الشام ، وهو يمر بها ثلاث مرات في الأسبوع . فإن فاتني قطار اليوم ، فلا مفر من الانتظار في أذنة إلى السبت . إن هواء أذنة حار ، وليس فيها ما يشغل الزائر ثلاثة أيام ، فقيم التلبث ؟ إن لى في طرسوس أرباباً ولا بد لى أن أزور طرسوس . إنها قريبة بينى وبينها مسيرة ساعة للقطار . ولو كانت بعيدة لما ترخصت فى القعود عنها . إن لم يتيسر لى العودة منها قبل موعد القطار فليذهب قطار الأربعاء ، وليذهب قطار السبت ، فما عن زيارة طرسوس معدى . إن فى القلب لحينناً إليها ومن أمانيه وقفة فيها :

وقفة بالعقيق نطرح ثقلًا من دموع بوقفة بالعقيق

أُجاوز أذنة صوب الجنوب دون أن أرى طرسوس ؟ أعظم به من عقوق ، وحرمان للنفس مما تمننت سنين طوالاً !

ما شأن طرسوس ؟ ما الذى يشوقنى فيها ؟ إنها مدينة صغيرة كثيبة المنظر ، فما الذى حببها لى ؟ لله أى كنز فى طرسوس دفين ! وأى تاريخ كبير فى تراب هذه المدينة الصغيرة !

حاولت أن أبكر إليها فأعود فأدرك قطار طوروس ، ولكن فاتنى

قطار ست ونصف من الصباح وكان على أن أختار إحدى النيتين :
إما قطار طوروس وإما طرسوس

أخذت القطار إلى طرسوس والساعة ثمان ونصف

هذه طرسوس أحد الثغور القديمة بين المسلمين والروم ، طرسوس التي
فتحتها الرشيد ومات فيها ابنه المأمون غازياً كما مات هوفى طوس . لله همة
أبعدت بهذين السهمين من بغداد إلى الشرق والغرب . من كان يظن
أن الرشيد والمأمون كانا مترفين من أبناء النعمة وأخذان القصور فليعلم
أن الرشيد كان همة لا تفتر بين الحج والغزو :

فمن يطلب لقاءك أو يردده ففي الحرمين أو أقصى الثغور
وأن المأمون لم يقعد عن قيادة الجيش إلى ثغور الروم ، وأنه لقي حتفه
غازياً في هذه المدينة النائية :

ما رأينا النجوم أغنت عن المأمون في ظل ملكه المحروس
غادروه بعرصتي طرسوس — مثلها غادروا أباه بطوس
يقول ياقوت :

— وبينها وبين أذنة ستة فراسخ ، وبين أذنة وطرسوس فندق
بُغا والفندق الجديد . وعلى طرسوس سوران وخندق واسع ولها ستة أبواب
ويشقها نهر البردان ...

وما زالت موطناً للصالحين والزهاد يقصدونها لأنها من ثغور المسلمين ،
ثم لم تزل مع المسلمين في أحسن حال . وخرج منها جماعة من أهل الفضل
إلى أن كانت سنة ٣٥٤ هـ . الخ .

كانت طرسوس ثغراً تتكسر عنده غزوات الروم ، وفي إقليمها غزى أمير العرب وشاعروهم سيف الدولة وأبو الطيب المتنبي .

واستولى عليه الروم سنة ٣٥٤ ، حين مرض سيف الدولة ، فغربوا مساجدها وجلا كثير من أهلها . يقول ياقوت : « وملك تغفور البلد فأحرق المصاحف ، وخرب المساجد ، وأخذ من خزانة السلاح ما لم يسمع بمثله مما كان جمع من أيام بني أمية إلى هذه الغاية ... » اهـ .

ثم دخلت في حوزة المسلمين حينما امتد سلطانهم على بلاد الروم من بعد وبعد الحروب الصليبية استولى عليها المصريون . ثم استولى عليها بنو رمضان الذين حكموا أذنة وماحولها في القرن الثامن الهجري إلى أن أدبل منهم للعثمانيين .

ذكرت كثيراً من وقائع الدهر في طرسوس ، وذكرت الرشيد والمأمون وسيف الدولة والمتنبي وقصيدته السينية التي مدح بها محمد بن زريق في طرسوس :

هذي برزت لنا فهجت رسيساً ثم انثنت وما شفيت نسيساً
ورثيت للشاعر حين ذكرت أن الممدوح أعطاه عشرة دراهم ،
فقليل له : إن شعره حسن . فقال : ما أدري أحسن هو أم قبيح ولكن
أزيدة لقولك عشرة دراهم .

ركبت في طرسوس عربية ومعى رفيق اسكيشهر ، وكان الخوذى يعرف العربية . ولا تكلم أحداً في هذه النواحي بالعربية إلا أجابك .

قلت : أين منسج راسم بك ؟ فذهب إلى معامل عظيمة للنسيج
لمحمد بك راسم المصرى . ولم أجد البك هناك ولكنى رأيت المناسج الكبيرة
وسررتى ما رأيت فيها وما سمعت .

وسألت رجلاً هناك : أتعرف قبر الخليفة المأمون ؟ المأمون بن الرشيد
مات هنا ودفن . فهل عندكم علم عن قبره ؟ قال : لا . ولكن هنا شيخاً
خبيراً بالآثار ، لعل عنده علماً . غاب عنى قليلاً ، وعاد يصف للحوذى
الموضع . انتهى السائق إلى جامع كبير له سور عال ضخم كأنه أعد للقتال
وعلى مقربة منه خانات كبيرة ، وبجانبه تكية مغلقة . دخلنا الجامع إلى
صحن واسع يحيط به أروقة تمتد على جدار الباب ، وعن اليمين والشمال ،
وفى وسطه حوض مظلل ؛ ويفصل الصحن والمسجد جدار دخلنا من باب
فيه إلى مسجد مستطيل فيه ثلاثة عقود تقوم على صفيين من العمد .

وفى الجدار الشرقى من المسجد كوة تطل على التكية المغلقة . نظرت
منها فإذا مصلى مسقوف ، وإذا ثلاثة قبور ، أشار خادم المسجد — وهو
حلبى الأصل — إلى أقربها إلى الكوة وقال : هذا قبر المأمون . قلت :
أرأيت عليه كتابة ؟ قال : أجل ! ثم سألت ناساً فى طرسوس وأذنة
فاتفقت كلمتهم على وصف القبر وموضعه . وأخبرنى بعض علماء العرب
والترك أنهم رأوا القبر وقرأوا عليه اسم الخليفة المأمون . وأما المؤرخون
فقد أجمعوا على أن المأمون دفن فى طرسوس .

هنا الخليفة العظيم ... ! هنا الرجل العالم المحب للعلم والعلماء ... ! هنا

الملك العفو الذى قال : لو علم الناس حبي للعفو لتقربوا إلى بالذنوب ... 1
هنا عبد الله المأمون بن هرون الرشيد ... !
رحم الله أبا العلاء :

أتم بنو النسب القصير فطولكم باد على الكبر والأشراف
والراح إن قيل ابنة العنب اكتفت بأب عن الأسماء والأوصاف
هنا أمير من أمراء المؤمنين يفتخر به تاريخ الإسلام . وحق على الأمم
الإسلامية كلها على اختلاف أجناسها أن تشيد بذكره ، وتعظمه
في قبره .

لقد درست قبور الخلفاء والعباسيين في بغداد وسامرا . فلا يُعرف
لواحد منهم قبر اليوم حاشا قبر هرون ، الذى طمست عليه عصبية الشيعة
في طوس ، وحاشا قبر المأمون الذى طمس عليه النسيان في طرسوس أو كاد
تمنيت أن أجلس إلى قبر المأمون ساعة ، فأسجل ما توحىه إلى نفسى
عظمة الماضى ومصائب الحاضر ، وغير الزمان ، وتقلب الأيام ، وما يبعثه
في النفس ذكر المأمون ، وجواره من عظمة وإعجاب ، ونغار وعبرة !
ثم جلّت في طرسوس ، فرأيت مساجد عتيقة ، ولكنى أصغرت
كل شيء فلم أبال به ، بعد أن وقفت على قبر الخليفة الكبير المأمون بن
الرشيد رحمهما الله ! ...

بعد أن كتبت هذه الكلمة عن طرسوس لقيت الشيخ العلامة

خليلاً الخالدي فتحدثنا عن هذه البلدة وما كان لها من شأن في الثغور الإسلامية . فقال الشيخ :

كنت أعجب حين أقرأ في تاريخ كثير من علمائنا أنهم رحلوا إلى طرسوس وأقاموا بها ، وأقول : ما لهؤلاء العلماء وما لطرسوس هذا الثغر القصي ؟ . وما زال بي العجب حتى قرأت في سيرة أحدهم أنه سافر للحج وذهب إلى طرسوس للرباط . فعلمت أن رحلة علمائنا رضى الله عنهم إلى هذه المدينة إنما كانت لأداء هذه السنة الإسلامية ، مرابطة العدو في الثغور فمن رحل إلى طرسوس أبو عبيد القاسم بن سلام ، أقام بها زهاء اثنتين وعشرين سنة ، وأبو داود المحدث صاحب « السنن » أقام بها إحدى وعشرين سنة وألف هناك كتاب السنن . وعبد الله بن المبارك كان يتردد عليها ويطلق الإقامة بها . والنسائي أقام وحدث فيها طويلاً . ومن رباطوا هناك أبو زيد المروزي صاحب أعلى إسناد للبخارى ، والإمام أحمد بن حنبل ، ويوسف بن أسباط ، وهو محدث عظيم أجل من ابن المبارك ، وقد أقام بطرسوس أكثر من عشرين سنة . وإبراهيم بن أدهم أقام بها عشرين سنة أو أكثر .

ولابن المبارك كتاب في مدح طرسوس وأهلها لمكانهم من المرابطة والجهاد . وكانت طرسوس والمصيصة وأذنة والهاروتية من مواضع المرابطة ، يقصدها العلماء لأداء هذه الفريضة .

قلت : هذا سر من أسرار عظمة الإسلام وعلوه ، وسبب من أسباب

تمكن المسلمون في الأرض وسيطرتهم عليها ، كان علماءنا لا يرون العبادة
إعكافاً واعتزالاً ، ولكن جهاداً ورباطاً ، كانوا يسيطرون على الدنيا بالدين
ولا يهجرونها من أجله ، كان أحدهم صاحب قلم حيناً وصاحب سيف حيناً
مجاهداً في العلم والحرب ، كانوا رحمهم الله عبداً زهاداً حجاجاً غزاة
مرابطين ، كما قيل في الخليفة الرشيد :

من يقصد لقاءك أو يرده في الحرمين أو أقصى الثغور
ليت شعري ! متى يفقه مسلمو اليوم مقاصد دينهم ليسيطروا
على الأرض بالحق وللحق .

الرجوع الى أذنة

ذهبت من طرسوس إلى مرسين . وهي بلدة ساحلية ومرفأ ذو خطر
جنوبي الأناطول . وخرجت مع رفيق من اسكيشهر إلى موضع في أطراف
المدينة جلسنا ننعم بهواء البحر ومنظره حتى بلغت الساعة الخامسة فركبنا
عائدين إلى المدينة لركب قطار خمس ونصف فعدنا إلى أذنة بعد مسير
ساعتين وربع .

وأضيت في أذنة يوم الجمعة أرى طرقها وأسواقها ومنازلها ومجالسها
وقد صليت الجمعة في الجامع الكبير . وهو جامع بناه آل رمضان الذين عمروا
جامع طرسوس الكبير . وقد ذكرتهم آنفاً .

وقد سمعت في طريقى إلى المسجد أذاناً عربياً يذيعه مذياع مصر ،

فكان عوضاً عما فاتنا في جمعة أذنة من الأذان الإسلامى الذى استُبدل به الأذان التركى .

إن للترك حقاً أن يخطبوا فى المساجد بالتركية . فما أضيع خطبة تخطب السامعين بغير لغتهم ؛ ولكن لا حق لهم فى تغيير الأذان ؛ لأنه بضع كلمات قد دخلت فى كل لغة إسلامية ؛ فالتركى وكل مسلم يعرف الكلمات : الله أكبر ورسول الله والصلاة والفلاح أكثر مما يعرف نظائرها فى لغته . وقد جعلت هذه الكلمات القليلة ، التى تعدّ كلمات إسلامية لا عربية ، شعاراً للمسلمين يُدعون بها إلى الصلاة . فما الحاجة إلى تبديلها ؟ لا حاجة لإخواننا إلا أنها نزوة من نزوات الثورة ، وقاهم الله سيئاتها .

وقد تبينت فى الخطبة والقراءة فى أذنة لهجة عربية خالصة أبين مما سمعت فى استنبول والأناتول ؛ وذلك أن اللغة العربية شائعة فى هذا الإقليم ، والعرب كثيرون فيه . وهو إقليم مجاور للبلاد العربية ، ولم يكن من قبل بينه وبين الشام حدود من السياسة أو العصبية التى قطعت أوصال المسلمين . وقد سمعت فى قونية شاباً تركياً يقيم فى مرسين يجيب من سأله : هل تعلمت العربية ؟ — بأن الحكومة تمنع تعلمها والتكلم بها . وعرفت هذا حينما دخلت أذنة . ونحن لا ننازع إخواننا الترك على هذا الإقليم ، بل ندعو سكانه من العرب إلى أن يعاشروا إخوانهم الترك معاشرة الأخ للأخ وأن يخلصوا لدولتهم كل الإخلاص . ولكننا نلوم هذه السياسة القاطعة القاسية التى تحرم على العرب أن يتكلموا بلغتهم فى بلادهم أقرب البلاد

إليهم ، وبين أمة آخوها قروناً طويلة في السراء والضراء ، ولا تزال أواصر الأخوة الإسلامية والتاريخ والمنافع تحكم بينهم المودة . ليت شعري أيسر الأبطال من سلاطين العثمانيين وجندهم الذين دافعوا عن راية الإسلام في هذه البلاد قروناً أن تمحى منها لغة القرآن ؟ ... لو كان هؤلاء العرب في حكم الإنكليز أو الفرنسيين ، أو أية دولة أخرى ما منعوا أن يتكلموا بلغتهم . فما هذا التقاطع أيها الإخوان ؟ وما هذا الجور أيها المسلمون ؟

ليت شعري متى ينفي القوم إلى تاريخهم ويفيقوا من ثورتهم ويعترفوا بالشأن التي تربطهم بإخوانهم وجيرانهم !

إنى على يقين أن إخواننا سيكفون عن هذه السياسة سريعاً ويرجعون سيرتهم الأولى : « قل عسى أن يكون قريباً » .

وبجانب الجامع الكبير قبر الوزير الشاعر الكبير ضيا باشا صاحب كتاب « الخرابات » ، وهو مختارات من الشعر العربي والتركي والفارسي . و « الخرابات » في لغة الأديين الفارسي والتركي معناها « الحانات » .

ويوم السبت سرت إلى حديقة على نهر سيحان تسمى « ألوس پاركي » فأما ألوس فكلمة تركية قديمة وضعت حديثاً مكان كلمة « أمة » . وأما « پارك » فكلمة أوربية شاعت في تركيا الحديثة . . . وفي الحديقة مجالس عالية مظلة مشرفة على نهر سيحان . جلست هناك أسرح الطرف في النهر وما وراءه ، وأرى النواير ترفع الماء ، والغلمان يصيدون السمك . وبدأ لي أن أكتب ، فتحسست قلبي فلم أجده . فقلت لصبي هناك يمسح

الأخذية : إذ ذهب فاشترى قلماً . فعاد بعد مدة بقلم رصاص غير مبرى ،
استغنيت عنه بدواة وقلم ، وأبقيته ذكرى لأذنة . وسميته « قلم سيحان »



مدخل قلعة حلب . ويرى القنطرة على الخندق المحيط بالقلعة والغرفة العليا التي عمرها
السلطان الناصر بن قلاوون ، وتحتها دهايز فيها كوى لرمى السهام ، والسلك المحمّاة
على المهاجرين

ثم انتقلت إلى مقهى قريب يشرف على قنطرة عتيقة مشيدة على النهر
ورأيت مضخة تخرج الماء من الأرض ، فشربت منها ماء عذبا بارداً يشبه
أن يكون مثلوجاً . فقلت : إن من نعم الله أن ينبثق في هواء أذنة الحار
هذا الماء الشديد البرد !

١٧ — من أذنة إلى حلب

سار القطار من أذنة والساعة اثنتان بعد الظهر ، فبلغ حلباً والساعة عشر ورابع . وكنت سألت في القطار بعض الرفاق من حلب عن فندق عربي آوى إليه ، فأشاروا بفندق الحمراء فشاقني باسمه وآثرت الذهاب إليه . أصبحت أسأل عن الأصدقاء والمعارف في حلب ؛ سألت عن الوالى الأمير مصطفى الشهابى فعلمت أنه في دمشق . وسألت عن آخرين فأخبرت أنهم يصطافون في لبنان . فأمضيت يومى أتردد في أرجاء المدينة ، وأذكر تاريخ حلب وأدبائها ولا سيما سيف الدولة وأبو الطيب . وأذكر كل ما قال الشعراء وخاصة أبا الطيب وأبا العلاء في نهر قويق .

وذهبت في المساء إلى الجامع الكبير وقلعة حلب . وقد ذكرتهما في رحلتى الأولى إلى الشام . فأكتفى هنا بصورة القلعة .

وهبطت من القلعة سائراً إلى المدارس العتيقة والمساجد في ذلك الحى حتى ولجت المدرسة الخسرفية على غير قصد . وهى مسجد يحيط به فناء واسع ومساكن للطلبة . وأقيمت جماعة يصلون المغرب فشاركتهم . ولما قضينا الصلاة قلت للإمام : ما هذا المسجد ؟ قال : المدرسة الخسرفية . قلت : كم طلابها ؟ قال : أتريد أن تعرفها ؟ تفضل . ومشيت معه فإذا كراسى في جانب من الصحن فجلسنا وشرع الشيخ يتحدث عن المدرسة وعلومها وطلابها . وتعارفنا فإذا هو مؤرخ حلب العالم الفاضل الشيخ محمد

راغب الطباخ الذى قال عنه المرحوم أحمد زكى باشا : حلب قِدر والطباخ مغرفتها . فقلت : أليس من حسن الحظ أن يلقى الحائرُ فى حلب مؤرخَ حلب على غير موعد ؟ وبالع الشيخ — أكرمه الله — فى إكرامى ودعا الطلاب يعرفهم بى . ودعانى إلى أن أشهد تمرين الطلاب على الخطابة صباح اليوم التالى . وتقابلنا فى الموعد وذهبنا فتعاقب الطلاب على الكلام ، وبالغوا فى تحية ضيفهم والترحيب به — جزاهم الله خيراً — وتكلمت شاكرًا مبينًا واجب الشاب المسلم فى عصرنا هذا ، والسبيل التى يسلكها فى معترك هذه الفتن .

وزرت المدرسة الحلوية التى بناها نور الدين الشهيد . وكان من مدرّسيها رضى الدين السرخسى صاحب المحيط الرضوى فى الفقه ، والعلامة القاشانى صاحب البدائع . وكانت امرأته من العلماء ، وكان لا يخرج الفتوى حتى توقعها معه ، وكان يجلبها ويطيّعها . ومما يروى عنهما أن الشيخ استأذن نور الدين فى الخروج إلى قاشان . فسأله عن السبب ؟ فقال : إن السيدة تريد السفر ولا أستطيع مخالفتها . فأرسل نور الدين حاجبه الخاص إليها يبلغها التماسه أن تبقى فى حلب . فأخذت على نور الدين أنه أرسل حاجبه وقالت : كان ينبغى أن يرسل السيدة . فاعترف نور الدين بخطئه .

وكان من مدرّسيها كذلك كمال الدين بن العديم مؤرخ حلب . وإنما سميت الحلوية لأن الحلوى كانت تقدّم لطلابها وغيرهم فى رمضان .

وكانت أعظم مدرسة للحنفية في بلاد الشام^(١)
وخرجت مع الأستاذ الطباخ إلى المكتبة الأحمدية ، وهي على صغرها
تحتوي بعض نفائس الكتب ونوادرها . ثم مررنا على المطبعة العلمية مطبعة
الأستاذ الطباخ فالمكتبة الوطنية وهي دار كتب أنشأتها حكومة حلب
حديثاً ، ويرجى أن تستمر العناية بها حتى تفي بحاجات المطالعين في هذه
المدينة العظيمة .

ثم لقيت الأديب الصديق سامي الكيال صاحب مجلة الحديث فبذل
جهده في الاحتفاء والإكرام وأراني ما اتسع الوقت لرؤيته من مشاهد حلب ؛
ذهبنا إلى مُتنزه خارج حلب يسمى السبيل ، وهو حديقة فيها حوض ماء
كبير يقصده الناس بالعشي ليأنسوا بمنظره ويمسحوا الحرَّ بهوائه

ورجعنا من السبيل فمررنا بفندق البارون حيث ينزل والى حلب
الأمير مصطفى الشهابي . وقد ألفيناه هناك فتحدثنا برهة وقلت له لقد حرصت
ألاً أفارق حلب حتى أرى سيف الدولة . وإن يكن ابن حمدان ربعياً
والشهابي مضرياً فالعرب اليوم لا يعرفون العصبية المفرقة .

١٨ — من حلب إلى حمص

بكرت إلى المحطة فركبت القطار إلى حمص وكنت قد منيت عيني

(١) ما ذكرته عن الحلاوية مروى عن الشيخ الخالدي

وقلبى — حينما مررت بجمص فلم أعرج عليها — أن أيسر لها وقفة
فى هذه الربوع حين الرجوع

ذهبت إلى الجامع الكبير الذى أسس فى عهد عمر بن الخطاب وجلت
فى المدينة قليلاً . ثم ذهبت إلى مسجد جميل خارج البلد يحنو على ضريح
الرجل العظيم سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه وضريح ابنه عبد الرحمن .
ولله وقفة على قبر خالد توحى إلى النفس ما توحى من القوة والرجولة والبطولة
والطاعة والخضوع للقانون ؛ هنا القائد الذى شهد وقائع العرب والعجم والروم
فما استعصى عليه ظفر قط . وماذا عسى أن أقول فى رجل قال فيه عمر الذى
لا يعرف فى الحق هواة ولا فى الشهادة محابة « عجزت النساء أن يلدن
مثل خالد »

ثم انطلقت إلى الميلاس على نهر العاصى ، وكنت رأيت هذا المتنزه قبل
سبع سنين ، وشهدت ماءه متدفقاً يدير ست أرحية فى طاحون هناك .
فعاودت رؤية الطاحون وجلست على حافة النهر أنعم بمنظره ومائه وهوائه
وتغديت هناك ، وأنا أذكر قول الشيخ عبد الغنى النابلسى :

مدينة حمص كعبة الأنس أصبحت يحببها لها الدانى ويسعى لها القاصى
ومن حسننها فى روضة مهندسية تعلق فى أطراف أذيالها « العاصى »

١٩ - إلى دمشق

وركبت السيارة إلى دمشق ظهراً فبلغتها والساعة ثلاث ونصف .
عادت دمشق في نضرتها وجمالها وسحرها وجناتها وذكرياتها وآثارها
وتاريخها وآلامها الحاضرة ومستقبلها الباسم على رغم الخطوب ... عادت
دمشق الحزينة الحبيبة ، تأبى كبرياؤها على الخطوب ، ويتجدد جمالها
على العصور .

قد رأيت مشاهدتها مرات ووصفتها ولكني رجعت أطوف في أرجائها
أجدد العهد بمفانيها ؛ ذهبت إلى الجامع الأموي فزار صلاح الدين حيث
وقفت على الجذث الحديث هناك - قبر يس الهاشمي رحمه الله - وقفت
على جذث تغشيه أزهار ذابلة وذكري من الجهاد ناضرة .

وذهبت غير بعيد إلى المدرسة العادلية حيث قبر الملك العادل الأيوبي
وفيها الآن الجمع العلمي ، وإلى المدرسة الظاهرية حيث قبر الملك الظاهر
بيبرس وفيها المكتبة العامة .

في أي تاريخ يسير السائر هذه الخطوات القليلة ما بين جامع بني أمية
إلى مزار صلاح الدين ويس فالملكين العادل والظاهر !

وزرت المدرسة النورية التي بناها الرجل الصالح نور الدين ودفن بها .
وهي في السوق . وكم مررت بها فلم أنس صاحبها العظيم رحمه الله .

ثم زرت المتحف العربي في دار العظم التي هدمت جانباً منها مدافع
الفرنسيين الطائشة عام الثورة .

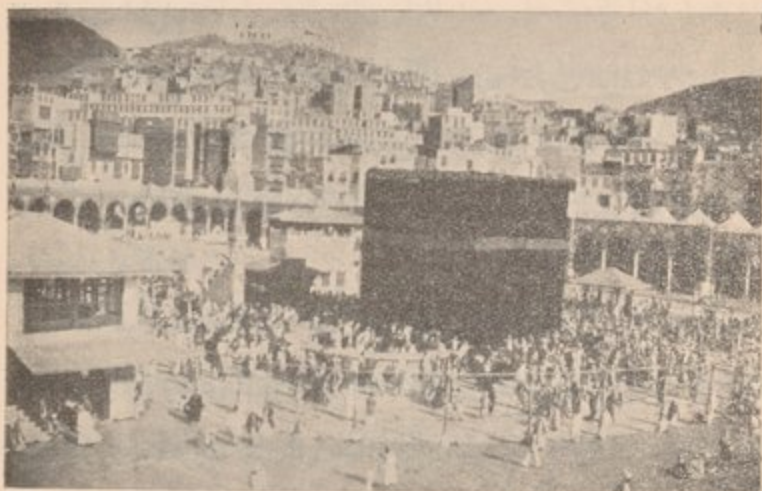
وكانت بعدُ جَولات بين الصالحية والروضة ودُمر . وحسبي ما قدمت
في وصفها .

وزرت النادي العربي وألقيت كلمة في أسس النهضة العربية .
وإني لأتحدث عن دمشق وأقهر قلبي وقلمي أن يمسكا . وإني لأعجب
لهذه المدينة التي تملأ النفس جمالاً وحباً ثم تفيضهما على القلم نظماً ونثراً :
أحييت دمشقُ رميم الشعر في خلدي لا أغرو أن تبعث الأشعارَ أشعارُ
ودّعت دمشق يوم الإثنين الثالث والعشرين من رجب (٢٧ سبتمبر)
إلى بيروت . فركبت الباخرة محمد علي إلى الأسكندرية . فوافيت الوطن
المحبوب ظهر اليوم الثاني حامد الله على ما يسر في هذا السفر ، وما أولى
من العافية في النفس والآل والأصحاب .



في الحجاز

١ - حول الكعبة



الكعبة المشرفة

الليل مهوّد وسنان ، ترى العين سكونه ، ويحس القلب سكينته ؛
ونسيم السّحر يسرى رفيقاً ينفح الخليقة لا أدري أيّ بنى إيقاظها أم إنامتها ؛
والقمر ينضح السكون بأشعته يخفق مع النسيم نوره . وقد أضحى السماء
إلا قرعاً في الأرجاء . وتبدو في سكون الليل ونور القمر قمم الجبال : خندمة
وأبى قبيس وأجياد^(١) .

(١) جبال في مكة .

استغرقت الخليفة في أحلامها الجميلة ، وشغل الليل بشعره البليغ ،
ففيه إصاخة الشاعر للمعنى الجميل المخترع .
ولكن طرق مكة لا تنام ، ولا تفرغ عنها الأقدام . فأنظر في ضوء
القمر ، وفي ظلال الدور ، زرافات متمهلة أو مسرعة ، ذاكرة أو صامتة ،
تؤم البيت الحرام .

الليل هاجع ، والخليفة نائمة ، ولكن هذه القلوب الواهة لا تهجع ؛
ولكن هذه العيون الباكية لا تغمض ، ولكن هذه الزفرات المرددة
لا تسكن ، ولكن هذه الألسنة الذاكرة لا تقتر . قد استوى ليلها ونهارها ،
وعشيها وإبكارها .

هذا هو المسجد الحرام ! فهل تقع العين إلا على مُصل خاشع ، وطائف
بالكعبة واله ، وقارى تنطق بضراسته الآيات ، وداع يرسل قلبه في كلمات ؟
كم قلب محزون حمل إلى هذا الجنب شكواه ، وفؤاد معذب يبت
في هذه الساحة نجواه ! وكم آثم حط في هذا الفناء الأوزار ، ليمحقها بالتوبة
والاستغفار ! وكم دَرس جاء ليتطهر ، من هذا النهر ! وكم يأس ورد يستقى
الرجاء ، ومحروم أقبل يستدر العطاء ! وكم نفس مظلومة ترفع ظلاماتها ،
وأخرى ظلمة تعترف بجنباياتها ! وكم مكوم جاء بجراحاته ، وأرسل آهاته
وأناته ! وكم ثا كل يحمل قلبه كسيراً ، ويُسيل دمه غزيراً ! كل ضارع
على هذا الباب ، خانع عند هذه السدة ، يهاب هذا العِظم ، ويرجو هذا
الكرم . أ كداس من الآلام والآمال ، وأشتات من الهموم والأمانى ،

والشكران والشكوى ، والدعاء والنجوى ، والتضرع والحمد !
ووراء هؤلاء في المشرق والمغرب قلوب توجهت شطر هذا البيت ،
كما تتوجه الإبر^(١) إلى القطب ، وتنزع إليه نزوع الغريب إلى ولده
وداره . فكم مصلّ في أرجاء الأرض ولّي هذا الجنب وجهه وقلبه ! وكم
داع قصد هذا القصد على بعد المزار ونأى الديار ! أترى الدعوات تهفو
على الكعبة مع هذا التسيم ، والصلوات تنزل عليها في هذا الضوء ،
وأسراب الآمال طارت من المغرب والصين لتطوف مع الطائفين ؟ أترى
سوداوات القلوب اجتمعت فكانت هذا البناء ، أم أناسي العيون تراكت
فكانت هذه البنية السوداء ؟

أنظرُ فلا أجد في هذا البناء تمثالاً ولا صنماً ولا وثناً ولا صورةً
ولا نقشاً . إنما هو التوحيد في خلوصه ، والعقيدة في يسرها ، والإسلام
في فطرته ؛ بيت لعبادة الله يؤمه عبّاد الله ، تجتمع حوله القلوب ، وتلتقي
فيه الدعوات ! بيت من التوحيد يحسّ ، وبناء من الأخوة يلمس .

ما أروع هذا مشهداً ! صلاة ودعاء ، وطواف وبكاء ، يسيل بها
الإصباح والإمساء ... من لى بالخلوة في هذا الزحام ، والوحدة في هذه
الكثرة ، والسكون في هذا العباب ، والقرار في هذا المحشر ! من لى
بأن أقف على الساحل من هذا البحر لأرى وأسمع !!

صعدت إلى مصلّى الشافعي فوق زمزم فإذا هو خلاء ، فأشرفت على

(١) إبر المغناطيس .

هذا الجمع أرى جموعاً متوحدة ، ودعوات متجسدة ، وألفاظاً تنطق بمعنى واحد ، وظلالاً يمدّها نور واحد . وكان للقلب مجال بين الكثرة والوحدة والظهور والخفاء ، والوجود والفناء . وكأن تلك اللحظات اتصلت بالأزل والأبد !

وينبعث في هذا الدوى ، بل يشعّ بين هذه الأصوات صوت الأذان : « الله أكبر . الله أكبر » ، وينتظم شعار التوحيد هذه الأصوات ؛ فإذا الدعاء صمت ، والحركة سكوت ، وإذا هذا الجمع نفس واحدة تصيخ إلى صوت واحد .

ما أجمل هذا الصوت وما أروع ! عظمة الله تغشى هذا المشهد ، وكلمة التوحيد تملأ هذا المسجد . قلت لنفسى : « ليت الإنسان يستمتع أبداً إلى أذان الفجر في جوار الكعبة ! » قالت : « أما الأذان فهو دائم موصول لا تحلو منه ساعة من ليل أو نهار . فالأوقات في أقطار الإسلام مختلفة ؛ فما يسكن أذان في بلد إلا ارتفع أذان في آخر ، أبد الدهر . تكبير دائم لمن كان له سمع ، وذكر مستمر لمن كان له قلب . وأما الكعبة فأنت في جوارها كل حين إن لم تكن أسير البقاع ورهن الحجب » .

هلم إلى الرحيل ! طفت طواف الوداع ، وأدبت مع الجماعة صلاة الصبح ، وقد أعدت السيارات والرفاق ينتظرون ؛ ولكن النهار لم يسفر فما يعجلنى عن هذا المكان ؟ هلم قد حان الرحيل وليس من الذهاب بد . ولكن الرحيل يمكن إرجاؤه لأزود للبين نظرات ، وأجمع للفراق

ذكريات ... قد حان الرحيل ولا مناص :

خرجت أمشي يقول قلبي للرجل : بالله أنظريني

رحم الله حافظاً الشيرازي الذي يقول :

وكيف يطيب العيش في منزل المني وأجراس هذا السفر للبين تقرر^(١)

٢ - في خيف مني

هذا ثاني أيام التشريق ، ومنى غاصّة بمضاربها ؛ قد اجتمع إليها الحجاج من أرجاء الأرض ، واختلط فيها وفود المسلمين من كل الأقطار . تجاوزت القباب واشتجرت الأطناب ، وتمعجت السبل بينها تجور بالسائر ، وتعدل بالسالك ، إن لم يكن خبرها وعرف بالعلامات مسالكها ، إلا مهيمعاً يتوسط البقعة تفضي إليه المسالك فيقصد فيه السابل على بينة

زخرت مني بالحجيج ، وازدحم الموسم بأهله . وقد أدينا بحمد الله المناسك ولم يبق إلا رمي الجمار ، وهو أمر أم لا يشغل نزال مني إلا قليلاً فهناك سعة للتزاور والتعارف ، وهناك فسحة لتبادل الآراء والتشاور في خطوب المسلمين

خرجت في رفاقة بعض الإخوان العراقيين أبتغي زيارة بعض الأجلاء من علماء الفرس . فلما لقيت الشيخ وبلغ الحديث منتهاه رغبت أن أرى من وجوه المسلمين وجهاً معروفاً في مجامع الحج منذ سنين لا يخلو منه موسم

(١) يعني أجراس الغافلة .

ولا يحمله محفل . وقد رأيت في عرفات ضارباً خيمته على الجادة فنزلت إليه في نفر من رفقائي حجاج الجامعة وأنسنا به حيناً . وبيننا أنا بالمشعر الحرام من مزدلفة رأيت خطيباً واعظاً يتكلم على جماعة باللغة الأردية ، فدلقت

إليه فإذا هو ذلك الوجه المعروف غير المنكر ، وأنا أرجو ألا يفوتني في منى لقاءه ؛ ومضربه في منى أرفع المضارب ، يلوح للسائر عالياً متميزاً تحفّق عليه رأيت . فليس على من يبغي المسير إليه إلا أن يذهب إلى مسجد الخيف ثم ينظر إلى سفح الجبل ليرى فسطاطاً كبيراً



المؤلف أمام خيمته في منى

قد احتل من السفح مستوى

لا يتسع لغيره ، فليس هناك فسطاط سواه . فإذا تأمله أبصر الراية الأفغانية فعرف أنه منزل السيد محمد الصادق المجددي

أخذت سمت المكان حتى قاربت المسجد فلقيني جماعة من حجاج الجامعة والأزهر ، فصعدنا إلى الفسطاط في شرف يطل على الموسم كله

وينظر إلى مسجد الخيف من كَثَب . لبثنا قليلاً ثم هبطنا إلى فجوة بين الصخور تُسمى غار المرسلات ؛ يقال إن السورة الكريمة « والمرسلات عرفاً » أُوحيتُ إلى صاحب الرسالة صلوات الله عليه هناك . وقد اجتمع الناس يمنعمهم الشرطة من الدخول إليه والتمسح به كما كانوا يفعلون . فوقفنا وقفة قضينا بها حق الذكرى العظيمة ، ثم سرنا مُصعدين في الجبل . وهو جبل شاهق أدكن عظيم الصخور كثير القَلَع^(١) . فما زلنا نصَّعد حتى لاح لنا للوسم جميعه ، وزُويت لنا أطرافه . فيا لك مشهداً جميلاً رائعاً ! هذا مسجد الخيف وهو مسجد برّى عُطل من الزينة ، فراشه الحصباء . بناء كبير تحيطه جدران مديدة بيضاء يتوسط صحنه الفسيح مصلى عليه قبة ومنارة ، وفي جانبه القبلى سقيفة على ثلاثة عقود . وقد راقنى منظره من سفح الجبل تتجلى فيه فطرة الإسلام وطبيعة البداوة .

وهذا المحصَّب عن شمالنا حيث العقبات الثلاث التى ترمى فيها الجمرات . وإلى اليمين يمتد وادى منى بين سطرين من الجبال الشاهقة يسائر فيه الطرفُ أسرابَ الخيام إلى أن يكل . وهناك تبدو دار الملك عبد العزيز التى ينزلها أيام الموسم . وهناك بناء أبيض يلوح بين الأشجار هو (السبيل) للصوى : مورد عذب يستقى منه الحجاج ، يزدحمون عليه النهار كله وطرفاً من الليل . وإنها لمبرة عظيمة .

وأما الجبل الشامخ الذى يمتد على جانب الوادى الأيسر فهو ثبير . وكُم ردد التاريخ والشعر ذكر ثبير !

(١) القلع : الصخور الكبيرة تطلع من الجبل .

ترادفت الذِكر وتوالت العبر في هذه البقعة المقفرة التي تُخصب بالجماعات كل عام منذ عهد الجاهلية ؛ فكأنني بالقبائل تلتقي تتناشد الأشعار ، وتتفاخر بالأحساب ، ويضعون عنهم العداوة والحرب إلى حين ، وقد تغلبهم الضغائن فيفجأ بعضهم بعضاً غير مراعين حرمة الشهر والمكان كما أغارت هوازن على خُزاعة بالمحصَّب من منى فقال أحد بني عدوان :

غداة التقينا بالمحصَّب من منى فلاقى بنو العنقاء إحدى العظامم
وكأنني بهم ينحرون ويزبحون ويضيِّفون ويطعمون ، ويشرقون بقايا
الحم على سفح الجبل .

وكأنني بفتيان قريش وشعراء مكة في الجاهلية والإسلام يقضون حق
المكارم والفتوة ؛ يضيِّفون ويطعمون ويشيدون بالمفاخر ويتناشدون الشعر
ويتناقلون الأخبار ، وينزع بهم الشباب فيتغزلون ويرون في الموسم ،
على جلاله وحرمته ، شملاً من الأحباء يجتمع ، وشملاً يفترق ، فيُشيد الشعر
بفرحة اللقاء ولوعة الفراق ؛ فهذا عمر بن أبي ربيعة يقول :

نظرت إليها بالمحصَّب من منى ولى نظر لولا التخرج عارم
فقلت : أشمس أم مصاييح بيعة بدت لك خلف السترا أم أنت حالم
بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم
ومن قبلُ تذكر المجنون في هذا المكان ليلاه :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أطراب الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلي غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدرى

وهذا العرجی — غفر الله له — يقول :

فی الحج إن حجت وماذا منی وأهله إن هی لم تحجج ؟
وأنا أقول ما قال عطاء حین استوقفه ابن سريج فغناه أبیاتا منها بیت
العرجی فقال :

« الخیر كله والله بمنی ، لا سیا وقد غیبها الله عن مشاعره »

والعرجی هو القائل :

عوجی علی فسلمی جبر ! فیم الوقوف وأتم سفر ؟
لا نلتقی إلا ثلاث منی حتی یفرق بیننا النفر
ورحم الله جریراً کان أرشد من هؤلاء : لقیه الفرزدق بمنی فأنشده :
فإنك لاق بالمنازل من منی فخاراً ؛ نخبرنی بمن أنت فاخر ؟
فقال جریر : « لبیك اللهم لبیك » .

نهتني تلبية جریر فقلت : لبیك اللهم لبیك ، لبیك لا شریك لك
لیبك ... الخ . کم فی هذه الخيام من قلوب وردت هذه المشاهد ورود القطا
الظاء ! وكم من نفوس هجرت خفض العیش إلى مشقة الأسفار وغربة الدیار
لتنعم بالذكر والتوبة فی هذه البقاع المقدسة . لو نفّض كل قلب هنا آماله
وآلامه لسامت هذه الجبال جبال من أحزان البشر وأمانتهم حملها أصحابها إلى
سدة الخالق العظيم يستغفرون ويتضرعون ، ويسترحمون ويتذللون . سرائر
لو اجتمعت فی هذه الساعة لتمثل فیها تاریخ البشر . لو اجتمعت ! لو تشاکی
أصحابها وتناجی أربابها ! لو تشاکی المسلمون فی هذه البقعة وبث بعضهم

لبعض خبايا قلبه ، وتشاوروا فيما يحزبهم ! أجل ، هذه خيام مجتمعة وجماعات مختلطة وبينها تعارف وتزاور ، ولكن أين هذا مما يريد الإسلام ونريد ؟ لا بد أن يُيسّر لكل حاج السير والزيارة ، ويمكن من أن يلقى من يشاء حين يشاء . إن مئات الآلاف من الحجاج لا تيسر لهم مقاصدهم ولا تُكفل راحتهم إلا في نظام دقيق وترتيب حسن . وذلك لمن شاءه جدُّ يسير . وعلى المسلمين جميعاً أن يعملوا له . لماذا لا يكون في منى مجمع مستقوف يسع الحجاج جميعاً يقفون أو يجلسون في راحة ونظام فيستمعون جميعاً إلى الخطباء من زعماء المسلمين يرفعون أصواتهم بالجواهر ؟ لماذا لا يكون هناك مدرج ينحت في الجبال ليسع الألوف المؤلفة ؟ هذا أمر حتم لا بد أن تُتخذ له الأهبة

طالت بي الوقفة وأصحابي على مقربة مني . فقلت : هذا أمر له غير هذه الوقفة . ثم التفت فإذا أعرابي بجانبى تفتّر شفتاه عن أسنان ناصعة وفي فمه عود .

قلت : ما هذا ؟ قال : بشام . قلت ، الذي يقول فيه جرير :

أتذكر إذ تودّعنا سليمي بفرع بشامة ؟ سقى البشام

وقلت : وما هذا ؟ مشيراً إلى شجرة صغيرة من الشجر الذي يسمى

السنط في مصر . فقال : سلم . فتذكرت قول القائل :

ويوماً تُوافينا بوجه مقسم كأن ظبية تعطو إلى وارق السلم

وقول الحجاج : والله لأعصبنكم عصب السلمة ... الخ

قلت : أتستطيع أن تأتينا بأعواد من البشام ؟ قال : إنه على الريح الآخر ، وأشار إلى الجبل ، يعنى سفحه الآخر . فتذكرت الآية الكريمة : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون » والريح المكان المرتفع . قلت لأصحابي : لو اتسع الوقت لأخذنا كثيراً من اللغة عن هذا الأعرابي . فمن كان يظن أن هذه ألفاظ ميتة في المعاجم فليعلم أنها لا تزال حية في أفواه كثير من العرب — وحن الرجوع فرجعنا إلى الخيام .

٣ — في غار حراء

هذا يوم الأحد رابع عشر ذى الحجة سنة ست وخمسين وثلاثمائة وألف ، ونحن في البلد الأمين مكة وقد قضينا مناسك الحج ... قلت لبعض الرفقاء : هلم إلى غار حراء . فأخذنا سَمْتَنَا صوب الشمال ضحوة النهار ، منا الراكب ومنا الراجل ، وملء القلوب اشتياق وسرور ، وعلى الوجوه التهلل والبشر .

بلغنا جبل النور — جبل حراء — بعد أربعين دقيقة . وملنا مع الدليل ذات الشمال فإذا امرأة تنحدر من السفح مسرعة تصيح : « أتم غاوين ؟ » . فقلنا : « ما تبغين ؟ » . قالت : « هنا الطريق » . فانفقنا على أن تهدينا السبيل إلى الغار . ونظرنا إلى الجبل فإذا السفح ينتهى إلى قمة شاهقة ملساء ، قطعة واحدة من الصخر قائمة .

سارت فاطمة أمامنا مُصعدة خفيفة سريعة لا تبالى الشوك والحصى

وأطراف الصخور الحديدية كأنها أروى ترتع على السفح :



بعثة الجامعة المصرية صاعدة إلى قمة حراء وأمامها المؤلف
سارت في طريق مُعلّمة يبين فيها بين الحين والحين تمهيد الإنسان ؛
هنا حجارة مرصوفة يرتقى عليها الصاعد ، وهناك جدار صغير من حجارة
مركومة أو مبنية تعصم المرتقى أن يزل عن الطريق .

تتابعنا صاعدين جاهدين منحنين على المرتقى الصعب ، وما في النفوس من رفعة الذكري أجل وأرفع ، وما يبهل النفس من رهبة المكان أبهر وأروع مما يبهل العين في توقل هذا الطود العظيم . وكأنما نرتقى في التاريخ وعبرته ، رنصعد في جلال الحق وعظمته ، ونطمح إلى السماء ، لا إلى قنّة حراء . ألسنا مقدمين على مشرق النور ، ومطلع الحق ، ومهبط الوحي ، وملتقى السماء والأرض ؟ لكانّ هذه الأشعة المرتدة عن هذه القمة للمساء العالية بقيةً من نور الحق تتألق في حراء ، أو آى من القرآن لا تزال ترددها الأصدا .

صعدنا ثم صعدنا حتى انتهينا إلى صخرة مُظلة ، فأوينا إليها قليلاً نستجم ونمسح العرق . ثم رقينا تتلوى بنا الطريق ذات اليمين وذات الشمال حتى بلغنا مستوى فيه حوض كبير طوله ثمانية أمتار وعرضه ستة وعمقه أربعة ، بعض جوانبه الصخور وبعضها جدار من الحجر ، تجتمع فيه مياه المطر . وقد صادفنا فيه ماء صافياً بارداً فشرب من شرب وتوضأ من شاء ، وجلسنا هناك جلسة شربنا فيها الشاي واسترحنا وجمعنا قوانا لبلوغ القمة . على ذروة الجبل بقية جدار تحيط بمستوى ضيق في وسطه صدع في الصخر يزعم العامة أن عند هذا الصدع شق صدر الرسول . وللعمامة في الأمكنة المقدسة أوهام يصلونها بمواضع من الأرض والجبال والأبنية والأشجار . وكان السلطان عبد العزيز رحمه الله صدّق هذا الزور فأمر أن تبنى على المكان قبة عالية كان ارتفاعها ثمانية أمتار . فلما جاء الوهابيون هدموا القبة والجدار إلا بقية .

وقفنا على الذروة نسرّح العيون حولنا بين جبال وأودية ، ونرى مكة وجبالها وقلاعها ودورها .

هذه قمة حراء فأين الغار ؟ جنوبي هذه القمة درجات هابطة على السفح منحوتة ومبنية ؛ هبطنا زهاء ثلاثين درجة ثم سرنا فلمنا نحو اليمين إلى صخرة هائلة مائلة على الجبل ، وتخللنا مسلكاً ضيقاً قصيراً بينها وبين السفح إلى مستوى صغير ، فإذا أمامنا سفح منقطع ينحدر إلى أرض سحيقة ، وعلى يميننا قمة حراء التي كنا فوقها ، وعلى يسارنا الغار : غار حراء العظيم ! فجوة ضيقة تميل على مدخلها صخور تدعم بعضها حجارة مبنية . فأما سعة الغار فرقد ثلاثة متجاورين ، وأما علوه فقامة رجل ، وفي نهايته صدع ترى منه الأرض والجبال إلى مكة .

هنا فر محمد بن عبد الله بنفسه — فر إلى ربه من ضوضاء الحياة وأكاذيبها ، من مظالم الناس ومفاسدهم ، من باطل العقائد وزورها — أوى إلى هذا الجبل ، إلى هذا الغار ، إلى قلب الخليقة ! هنا طود أشم يطل على أودية ألتحت عليها الشمس المحرقة ليس بها من معنى الحياة إلا نبت ضئيل ، وليس بها من ذكرى الحياة إلا أثر السيل بعد المطر . و وراء الأودية جبال شامخة تتداول عين الرائي ؛ وعلى بعد مكة

بين هذه الأودية والجبال وتحت هذه السماء الصافية حقائق لا يشوبها تمويه ولا تزوير ، ولا بلحقتها تبديل ولا تغيير ، ولا يمسها رياء ولا تفاق . فر محمد إلى هذه الحقائق لا فرار الراهب يترك الناس لينجو بنفسه ،

ولكن كما يلجأ إلى الشاطئ من يحاول إنقاذ إخوانه الغرقى . هنا جمع محمد نفسه وفتح قلبه وناجى ربه ، وهنا تجلى الله لهذه النفس الزكية ، وأضاء على هذا القلب الطاهر ، هنا جاء الوحي ونزلت الآية : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » وهى فاتحة القرآن ، وغرة الإسلام ، وبسمة سعادة الإنسان . لله ما وعى هذا الغار من آيات ! ويا عجباً كيف ثبت على هذه الرجفات ، و « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت حاشعاً متصدعاً من خشية الله » ! قلت من قبل فى شعر الصبا :

لعل جبال مكة لا يزال يحلجل فوقها هذا المقال

ويخفض رأسها ذاك الجلال وما نسيت بغار حراء ذكرى

والآن أقول : ألا يسمع هنا ذلك الصوت مدوياً مردداً ؟ ألا يرى هنا هذا النور طائفاً بجرا متلائماً ؟ ألا يجد الواقف هنا روحاً من الإيمان ، ويسمع وحياً من القرآن ؟

خرج محمد صلوات الله عليه من هذا الغار ، من حضن هذه الخليفة وهو أشبه شئ بها ؛ خرج حقيقة من حقائق الله نقيّة جليلة صريحة ، لا تبديل فيها ولا تزوير ، ولا لبس ولا تغيير ، ولا خفاء ولا اضطراب . خرج قانوناً من قوانين الله التى تسيّر الشمس والقمر والنجوم ، وتمسك السماء والأرض ، يمضى قدماً إلى الغاية المقدورة مضى النجوم فى حُبُكها ، والشمس فى فلَكها .

تمثل الرسول هابطاً من حراء وقد حمل عبء النبوة واضطلع بأمانة الرسالة ، وأفضى الله إليه بوحيه وكلفه هداية خلقه .

ليت شعري أهبط ونفسي قريرة هادئة كما ينزل النور من الشمس والقمر ، أم نزل ونفسي جائشة مججلة كما ينزل الغيث بين الرعد والبرق ؟ لست أدري ، ولكنه نزل ديناً جديداً ، وعصراً وليداً ، وتاريخاً مديداً ، وإصلاحاً شاملاً ، وهدى كاملاً ، ورحمة للعالمين .

أيها الغار ! يا مولد الحق ومطلع النبوة ومأوي محمد ! لولا أن محمداً الكريم نهانا لقبلت أحجارك واكتحلت بترابك .

أيها الغار ! من لى فيك بخلوة ، من لى بخلوة فيك !

ناداني صبي : هلم فقد حان الرجوع . فعدنا إلى مكة .

٤ — الحج

كان سلفنا إذا أرادوا الحج تأهبوا لسفر شاق ، وغاية بعيدة ، وتزودوا لشهور عدة ، ووطنوا أنفسهم على ما يلقون من المشقات والشدائد والأخطار كان المصريون يذهبون بالبر من طريق سيناء فالعقبة لا يركبون البحر ، أو يسيرون إلى القصير فيجتازون البحر إلى الحجاز . ثم جاء عصر البواخر فتيسرت الغاية وقصرت المدة ، ولكن بقي بعد هذا قطع المسافة بين مكة والمدينة على ظهور الإبل ، وبقي سوء الأحوال الصحية في مجامع الحج ، والتعرض للصوص وقطاع الطريق في كل مرحلة وكل حين ؛ بل كان

الحمل المصرى ، وهو فى حراسة الجند والمدافع ، لا يجتاز المسافة بين مكة والمدينة إلا بعد إرضاء القبائل الضاربة على الطريق ، وكانت هؤلاء يتحكمون ويشددون فى مطالبهم ، فإذا لم تجب مطالبهم باغتوا الحجيج بالغارة . بل قال المرحوم ابراهيم رفعت باشا الذى تولى إمارة الحمل سنين إنه زار غار حراء سنة ١٣١٨ ومعه مائة جندى وقال : « وما ينبغي لزائرى هذا الجبل أن يحملوا معهم الماء الكافى وأن يكونوا جماعة يحملون السلاح حتى يدفعوا عن أنفسهم شر اللصوص من العربان الذين يتربصون الفرص لسلب الحجاج أمتعتهم وتقودهم خصوصاً فى مكان منقطع كهذا لا يقصده إلا بعض الحجاج . وقد بلغنى أن أعربياً قتل حائجاً فلم يجد معه غير ريال واحد فقيل له : تقتله من أجل ريال ؟ فقال وهو فرح : الريال أحسن منه »

ذلكم الحج قبل سنين ، وأما الحج فى هذا العصر فقد تهيات وسائله وتيسرت مسافاته وأمنت سبله . تنقل الحجاج بواخر كبيرة ، وحسبك ببواخر شركة مصر التى أعدت لراحة الحجاج وتمكينهم من أداء فرائض الدين فى يسر وطمانينة . فى كل باخرة مصليّ تقام فيه الصلوات الخمس ويؤذن لكل وقت . فإذا بلغ الحاج جُدة وجد المطوفين فى انتظاره يتكفل المطوف الذى يختاره براحته وإعداد السيارات له فى كل طريق . ويجدون فى مكة العناية براحة الحجيج وصحته . فالحكومة تتخذ الوسائل التى تمنع الزحام ، وتراقب مساكن الحجاج وتُلزم أصحابها أن يطهروها وينظفوها فإذا حان وقت الخروج إلى منى وعرفات ، احتاطت الحكومة فمنعت

التزام في الطريق وعנית براحة الحجاج على قدر استطاعتها . وإذا قضى الناس مناسكهم وأرادوا السفر إلى المدينة رُخص لهم في السفر على ترتيب قدومهم مكة الأسبق فالأسبق حتى لا يختل النظام ، ويشدد الزحام ، وحتى لا تضيق بهم المدينة . وكذلك يُلزم زائرو المدينة الخروج بعد ثمانية أيام ليفسحوا لغيرهم فلا يجتمع فيها إلا وفود ثمانية أيام طول الموسم والناس في إقامتهم بمكة ، وسيرهم إلى منى وعرفات ، وسفرهم إلى جدة والمدينة يرتحلون بالليل والنهار آمنين مطمئنين لا يخافون على نفس ولا مال ويظفرون بطأئينة لا يظفرون بمثلها في البلاد الأخرى . ولا يغلو في الحق من يقول إن الأمن في بلاد الحجاز اليوم لا يظفر به إنسان في غيره من بلاد العالم . فإذا خرج الرجل الفرد يملأ جيبه الذهب يقطع الطريق بين مكة والمدينة نهاراً وليلاً ليس معه رفيق ولا حارس لم يخش على نفسه ولا ماله ، وأحاط به الأمن في يقظته ونومه وليله ونهاره . أمر لم نسمع به ولا نسمع به اليوم في قطر من أقطار العالم المتمدن أو المتوحش وقد حدثني أحد الحجاج ، ونحن بمكة ، أنه ذهب إلى المدينة في رفقة فوقعت منهم حقيبة في الطريق ولم يشعروا بها وتعطلت السيارة في الطريق يوماً أو يومين . فلما بلغوا المدينة افتقدوا الحقيبة فأخبروا الشرطة فردتها إليهم بعد قليل . وأخبرت أن حاجاً آخر كان يطوف بالكعبة فسقطت منه ساعة فذهب إلى الشرطة فردوها إليه . وأعرف أن طالباً من طلبة الجامعة سقطت منه ورقة بنك قيمتها جنيه في سوق مكة ولم يفتقدوها

إلا بعد أن رجع إلى المدرسة السعودية التي كنا ننزل بها . فلما رجع إلى السوق وجدها حيث سقطت أمام الدكان الذي كان يشتري منه . وقد تواترت الأقوال في أمثال هذه الحوادث حتى لم يبق مكان للشك فيها وحتى اطمان الناس فتركوا أمتعتهم الثقيلة في مساكنهم ليرجعوا إليها بعد قضاء مناسكهم ولم يجدوا حاجة إلى أخذها معهم . فنحن تركنا بعض متاعنا في جدة أمام الفندق المصري فأرسل إلينا في أيام مختلفة لم نقد منه شيئاً . وقد تأخر متاع بعض الطلبة كثيراً فقلق ؛ فقلت له : ستأتى حقائبك لا محالة فإن شيئاً لا يضيع في هذه البلاد . وكان يسكن إلى قولى حيناً ثم يعتاده القلق حتى جاءت أمتعته كاملة . وأخبرني مخبر عن رجل من الذين ذهبوا إلى الحجاز أنه كان في سيارة ضاقت بأمتعة الراكبين فأخذوا حقيبة عليها اسم صاحبها وتركوها في الطريق عمداً ليتخففوا ثم طلبوها حيناً بلغوا غايتهم فردت إليهم

والمسافة بين مكة والمدينة زهاء ٥٠٠ كيل كانت تقطع في أربعة عشر يوماً . وقد قطعها ركب المحمل المصري سنة ١٣١٨ من الهجرة في ١٢٥ ساعة وخمسين دقيقة ، في أربعة عشر يوماً . وتقطعها السيارات الكبيرة اليوم في أربع عشرة ساعة ، ولكن المسافرين يحتاجون إلى الراحة مرات على الطريق فيبيتون ليلة في بعض المراحل . والطريق كله غير معبد ، وفيه مسافة قصيرة رملية تسوخ فيها السيارات إن لم يحذر السائق وقد خرجنا من جدة إلى المدينة بعد المغرب فبلغنا رابغاً بعد سبع

ساعات ، وبتنا بها ثم استأنفنا السير ضحى آملين أن نبلغ المدينة في نهائنا ولكن ساخت بعض السيارات في الطريق فأثرنا أن نبني في مكان اسمه أبيار بنى حصان . وخرجنا منها ضحى فبلغنا المدينة بعد العصر . ولكننا في رجوعنا إلى جدة خرجنا من المدينة ضحى فبلغنا رابعاً وقت العشاء بعد أن استرحنا في الطريق ساعتين ونصفاً في ثلاثة مواضع . وبتنا في رابع وتركناها ضحى فبلغنا جدة ظهراً بعد سير خمس ساعات . فكان سيرنا من المدينة إلى جدة ثلاث عشرة ساعة ونصفاً . وإذا أصلح الطريق سهل أن تقطع المسافة كلها في عشر ساعات . وأمكن الراكب المتعجل أن يقطعها في ثمانى ساعات أو سبع . وما أقرب هذا سفرأ وأيسره

ولست أقول إن وسائل الحج بلغت من اليسر والنظام الغاية التي نرجوها . ولا أزعـم أن الحرمين الشريفين والحجاز في الحال التي يتمناها مفكرو المسلمين ؛ فلا يزال المسلمون يرجون للحجاز نظاماً وعمراناً لا يذكر معه ما يسره الله في السنين الأخيرة من الإصلاح والتنظيم . لا يزال مفكرو المسلمين يطعمون في أن يروا في الحجاز آثار التعاون الإسلامى ، وبذل المال في سبيل الله ، حتى تكون أحوال الحجاز مكافئة لمكانته عند المسلمين ، ومصورة عناية المسلمين به وتقديسهم إياه

لا يزال المسلمون يتمنون أن يروا الحجاز آخذاً من ثروة المسلمين وعلومهم وفنونهم ما تأخذه الأماكن المقدسة الأخرى من الذين يقدسونها

وما أسعد المسلم الغيور على دينه المعنى بإقامة شعائره يوم يذهب إلى الحجاز فيرى الطرق ممهدة بين جدة ومكة فمضى فعرفات ، وبين جدة والمدينة ، ويرى في طريق المدينة فنادق يأوى إليها فيجد راحتته وطعامه وشرابه كما يشتهي ، ويجد مواضع للوضوء والصلاة تمكنه من إقامة الشعيرة على خير الوجوه

ما أسعده يوم يجد في منى وعرفات مواضع للطهارة والصلاة ميسرة على وجه يليق بهذه البقاع المطهرة . إن المسلمين يضربون اليوم خيامهم في منى وعرفات في أمن وسلام ونظام ، ولكن هذه الخيام المتفرقة تقسمهم فلا يجتمعون إلا قليلا . فما أجل أن يهيا في منى وفي عرفات مكان واسع جامع يسع الناس جميعاً في صعيد واحد يرى بعضهم بعضاً فيشعر المسلم بالجماعة الإسلامية ممثلة ، والأخوة الإسلامية مصورة . فإذا استمع هؤلاء جميعاً إلى خطيب أو واعظ أو داع يتكلم في مجهر فيسمعهم معاً ويعظمهم معاً ويدعو فيؤمنون بصوت واحد ويرفعون أيديهم جملة واحدة كان في هذا من الجمال والروعة ما لا ينساه المسلم على مر الزمان ، وبقيت هذه الصورة في نفسه حيثما سار تذكره بالأخوة الإسلامية

وهل أغلو إذا قلت إن من المسلمين من يرجو أن يكون في منى مدرج ينحت في الجبل يسع مئات الآلاف من الحجاج يجتمعون إذا شاءوا ويتفرقون في سكون وطمأنينة وسلام في وقت قليل وحركة يسيرة كما تفعل الأمم الأخرى في مجامعها التي نضم آلافاً كثيرة ؟ ولماذا لا يكون للأمم

الإسلامية بيت في مكة أو المدينة يجتمع فيه بعد موسم الحج ممثلو هذه الأمم ليتشاوروا فيما بينهم ويداولوا الآراء فيما يصلح للمسلمين ويرفع أخلاقهم ويسعدهم بين الأمم ؟ لماذا لا يبذل المسلمون من أموالهم وأفكارهم لإنشاء المدارس والملاجئ والمستشفيات في الحجاز ، وفي إنشاء المكاتب ونشر الكتب الإسلامية والمجلات تبحث الأمور الإسلامية المشتركة وتقصد إلى التقريب بين التربية الإسلامية والثقافة الإسلامية في العالم الإسلامي جهد الطاقة ؟ إن الحجاز ينبغي أن يكون ملتقى الثقافات الإسلامية .

ثم يرجو كل مسلم أن يصلح المسعى بين الصفا والمروة فيفصل من السوق والطريق ويجعل على شاكلة تشعر الساعى أنه في عبادة ينبغي أن تفرغ لها نفسه ويتم لها توجهه . وما أحوج الحرمين في مكة والمدينة إلى أن ترحح عنهما الأبنية المجاورة ويدور بهما مهيع واسع يظله الشجر . وهناك بعد هذا إصلاح مذبذب منى وحفظ لحوم الأضاحى وجلودها لينتفع بها أو بأثمانها الفقراء طوال العام . ثم تعبئة ماء زمزم في أوان ترسل إلى الأقطار الإسلامية . وقد أثبت البحث أنه ماء نافع مرىء فضلاً عما له في نفوس المسلمين من حرمة ، ثم إضاءة مكة والمدينة وسوق الماء إلى دورها ومساجدها ، وأمور غير هذه كثيرة .

هذا كله جدير بعناية المسلمين وتعاونهم وبذلهم من أموالهم وأفكارهم وأعمالهم . ولن يؤدوا واجبهم ويعربوا عن اهتمامهم بدينهم وبيروا من التقصير حتى يحققوا هذا كله بل أكثر منه .

قد تحقق الشرط الأول لكل إصلاح وهو الأمن الشامل والطأنينة العامة يسرها الله للحكومة السعودية واستحقت بهما مثوبة الله وشكر المسلمين كافة . فعلى المسلمين جميعاً أن يتقدموا فيتعاونوا على خطة معينة خالصة لوجه الله يعالجون بها من أمور الحجاز ما يجعله صورة لحضارة المسلمين وتآلفهم وتعاونهم . ومن أولى من المسلمين بالتعاون والتآخي ودينهم دين الأخوة العامة والتعاون على البر والتقوى ؟ والله يهيئ للمسلمين من أمرهم رشداً ويوفق للخير حكومات الاسلام عامة والحكومة المصرية خاصة وهي التي حملت النصيب الأوفر في أمور الحجاز منذ قرون كثيرة والتي يؤمل المسلمون فيها خيراً كثيراً في رعاية جلالة الملك الصالح « فاروق الأول » حفظه الله





أمام المدرسة السعودية في مكة
عبد الوهاب عزام ، عبد الحميد العبادي ، ابراهيم مصطفى ،
أحمد أمين ، عبد الله المزروع

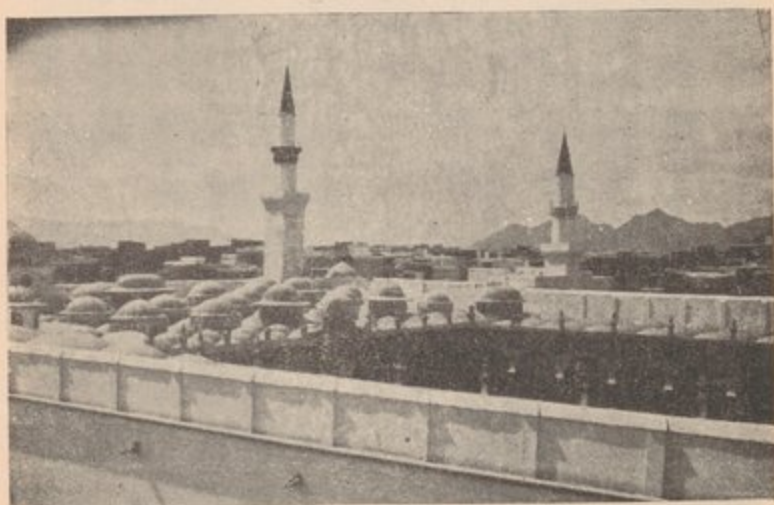
٥ — في المدينة المنورة

فصلنا من جدة مغرب الثلاثاء خامس عشر ذي الحجة ، متوجهين لتلقاء المدينة . وهي مسافة تقطعها قوافل الإبل في ١٤ يوماً . وبعد مسير سبع ساعات في طريق سهلة على مقربة من البحر بلغنا رابعا . وهي قرية ذات نخل على مسيرة ساعة من البحر للراجل ، تجتمع فيها طرق بين جدة ومكة والمدينة . وإذا حاذاها الحجاج القادمون من الشمال في البحر الأحمر أحرموا للحج . وليست هي ميقات للإحرام ولكن الميقات الجحفة على عشرة أميال إلى الجنوب منها .

واستأنفنا المسير ضحى الخميس آملين أن نبلغ طيبة عشية اليوم ولكن الرمال عوّقت بعض السيارات فبقنا في أبيار بني حصان . ثم غدونا سائرين ونزلنا بالمسيجيد بعد ثلاث ساعات . واستأنفنا السير حتى العصر فلاح لنا النخل أخضر يانعا يبشر باقتراب الغاية ؛ ونزلنا آبار على وهي ذو الحليفة ميقات أهل المدينة . ومنه أكرم النبي صلى الله عليه وسلم لحجة الوداع . ثم سرنا فلاحنا بعد قليل المدينة المنورة تتوّجها القبة الخضراء ، كأنما تباهى على صغرها السماء ... أهذه نضرة الإيمان في هذه البقعة ، أم ازدهار الآمال في هذه المساحة ؟ أم كما قال عا كف بك : واحة نزلت من السماء لتأوى إليها الأرواح المتحرقة في البیداء ؟

دخلنا المدينة من الباب الشامي حيث محطة سكة الحديد الحجازية وحططنا رحالنا في المدرسة السعودية وقد أعدت لنزلنا . ثم سارعنا نتأهب

للموقف الجليل؛ للساعة التي تعرج فيها الروح من الأرض إلى السماء، ذلكم المسجد النبوى فى بهجة النور والإيمان، يدوى بالمصلين والداعين والقارئین ولكن الواقف إزاء الحجرة النبوية لا يرى من هذا الجمع أحداً ولا يُحس من هذا الدويّ همساً. لا يرى إلا هذا الجلال ولا يسمع إلا هذا الوحي. وإنما هي وقفة يمتحى فيها الزمان والمكان فيتصل الأزل بالأبد والسماء بالأرض



منظر الحرم النبوى من الخارج

يا لك بقعة صغيرة لا يدرك العقل مداها، ولا يبلغ الفكر منتهاها !
يا لك حجرة يظل الفكر مسافراً فى أرجائها، محلّقاً فى أجوائها، فيطوف
فى أرجاء التاريخ، ويخلق فى أقطار السماء والأرض؛ وكأنما طوى الزمان
وزويت الأرض، واجتمعت الإنسانية، وحشر البر والحق وكل خلق
طيب فى هذا الضريح. يا لك بقعة كالكوكب المضيء تناله الأعين فى لمحّة

وتحيط أشعته بالعوالم العظيمة ! يا لك بقعة كمنبع النهر العظيم ؛ متدفق بالحياة فياض بالبركة مدّاد بالخير يحيي الأجيال بعد الأجيال .

يا حيرة الوصف ، ويا عجمة البيان ! أهي عنوان كتاب انطوى على الحق والصدق ، والخير والبر ، والإحسان والرحمة ، يقرؤه القارى جملة ثم لا يزال تروعه منه الصفحة بعد الصفحة ؟ أم هي تاريخ لا يزال الدهر يكتب صفحاته وإنما أوله وحى الله وآخره غيب الله ؟

أترى هؤلاء المصلين لا يفترّون ، وهؤلاء المرتلين القرآن لا يصمتون وهؤلاء الداعين لا ينقطعون ، أسمع هذا الأذان وهذا السلام وما يحدث به المسلم أخاه ، وما يفضى به في علانيته ونجواه ؟ ليس فيما ترى إلا أناسي هدام محمد ، وأفعال علمها محمد ، وكلمات أملاها محمد ، بل كل صوت يرتفع إلى الله في أقطار الإسلام ، وكل عبارة في وضوح النهار أو جنح الظلام ، وكل لسان يدعو إلى الخير وكل يد تمتد بالبر ، وكل كلمة حق ودعوة صدق ، وكل نية محمودة وسعى مشكور ، فهنا منبعه ، ومن هذه البقعة وحيه ؛ بل كل نزعة في المسلمين إلى سؤدد ، وكل طموح إلى علا ، وكل سلطان فيهم قائم بالحق ، وكل شرع نافذ بالعدل ، وكل دعوة إلى حرية وثورة على ظلم ، وانتصار للحق ، وتمرد على الباطل — كل أولئك شعاع من هذا النور ، أو ماء من هذا ينبوع .

ولست تتمثل هنا مجدداً ولا سلطاناً ولا سؤوداً ولا علواً إلا تمثلته تواضعاً للحق ، وبراً بالخلق ، ورأيته سؤود المساكين وسلطان المستضعفين ، السلطان

الذى يجمع الناس على شريعة من العدل والرحمة والمودة والسلام .
موقف يتضاءل في جلاله كل جلال ، ويصغر في جماله كل جمال .
لمحات تطهر فيها النفس من أرجاسها ، وتبرأ من أهوائها ، وتسمو على شهواتها
وتخلص من أغلالها ، فتستمد الخير والحق والعلاء والتقوى والحب والسلام
وتسع السماء والأرض وكأنما تُخلَق خلقاً جديداً وتفتح في أعمالها صفحات
جديدة . خسر من لم يطهره هذا الموقف ، وخاب من لم ترفع نفسه هذه
الساعة . هنا النفس المطهرة . هنا محمد بن عبدالله . هنا رسول الله . هنا
خاتم النبيين . ثم هنا اثنان من صحبه وخلفائه : أبو بكر وعمر .



المسجد النبوي من الداخل

والمسجد النبوي في شكته الحاضر بناه السلطان عبد الحميد العثماني ،

استغرقت عمارته ١٢ سنة بين سنة ١٢٦٥ وسنة ١٢٧٨ ولم تُبق من الأبنية القديمة إلا قليلاً ؛ وهو جميل المنظر حسن الهندسة في سقفه قباب صغيرة منيرة مزينة تحملها عمدة متقاربة صبغت لوناً أحمر وزينت بالتذهيب .

كان المسجد حين بناه الرسول سبعين ذراعاً في ستين ، وجدرانها من اللبن وسقفه من الجريد وعمده جذوع النخل . ثم وسّعه الرسول فجعله مائة ذراع في مثلها ثم توالى التوسيع والتعمير في أيام الخلفاء الراشدين فمن بعدهم حتى انتهى إلى شكله الحاضر . ولكن حدود المسجد القديمة معلومة بالعمد كما حددت الروضة النبوية بين القبر والمنبر .

ولا ينظر الإنسان نظرة في هذا المسجد المبارك إلا وقعت على ذكرى كريمة من رسول الله وأصحابه . فهناك سارية عائشة ، وسارية أبي لبابة الصحابي التي ربط نفسه بها ، وآلى ألا يبرح حتى يتوب الله عليه ، وخوخة أبي بكر . الخ

وحول المسجد مواقع الدور التاريخية : دار أبي بكر ، ودار عثمان وغيرها وفي المدينة مشاهد كثيرة عظيمة لا يتسع المقام لتعدادها . وحسبى أن أذكر ما شهدت في يوم واحد يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من ذي الحجة : خرجنا إلى جبل أحد وهو شمالي المدينة قريب منها ، فمرنا بجبل سلع وسرنا حتى شهدنا مكان موقعة أحد ورأينا قبر حمزة أسد الله رايضاً في العراء وعلى مقربة منه جدار يحيط بمدفن شهداء أحد رضى الله عنهم . وفي اليوم نفسه توجهنا شطر الجنوب إلى مسجد قباء وهو أول مسجد أسس في الإسلام ؛ بناه الرسول صلى الله عليه وسلم حينما هاجر من مكة

فنزّل في قباء على مقربة من المدينة في بني عمرو بن عوف . وهو المسجد الذي ذكر في القرآن : « لمسجد أسّس على التقوى من أول يوم أحقّ أن تقوم فيه . فيه رجال يحبّون أن يتطهروا . والله يحب المتطهرين » ، والمسجد كما يرى اليوم حسن المنظر على الجدران تتجلى فيه البساطة والنظافة . وقد توالى عليه التعمير حتى انتهى إلى بنائه الحاضر . وفي صحن المسجد مكان يقال إنه مبرك ناقة الرسول صلوات الله عليه . وقد قرأت عليه بيتين باللغة التركية .

وعلى مقربة من المسجد بئر أريس . وهي بئر عميقة مأوها عذب غزير صاف . وهي التي سقط فيها خاتم النبي من يد عثمان بن عفان أيام خلافته . ويستخرج الماء منها ومن آبار المدينة كلها بالسواني : ترى بكرات على البئر معلقة بها غروب^(١) كبيرة وتجر حبالها الدواب من الإبل أو البقر أو الحمير . وقد تجتمع الثلاثة معاً ؛ تسير الدابة نحو البئر فيتدلّى الغرب حتى يمتلىء ثم ترجع عن البئر حتى يرتفع الغرب . فإذا علا الحوض جذبته الحبال فينصب مأوه في الحوض ؛ فسير الدابة أو السانية في طريق مستقيمة ذهاباً وجيئة

والمدينة جيدة الهواء في الصيف معتدلة في الشتاء ، وأرضها خصبة وآبارها غزيرة وبساتينها كثيرة ، وفيها النخل والكرم والمان والبرتقال والخواخوش والموز والبطيخ وفواكه أخرى . وثمرها جيد جداً وأصنافه لا تعد . ولكن الأرض في وقتنا هذا ليست مستغلة كل الاستغلال ، ولا تفي

(١) الغروب جمع غرب وهي الدلو الكبيرة .

بجارات أهلها ، ويعيش كثير منهم على التجارة ، ويعول فقراؤهم على جدوى المسلمين .

ويظهر على دور المدينة وساحتها الفقر . وفي ذمة المسلمين أن يبروا جيران رسول الله وأن يعمرُوا دار رسول الله . عليهم أن يقدقوا الخيرات ، ويمدوا أيديهم للأعمال الدائمة المنظمة من بناء المستشفيات والملاجئ والمصانع والمدارس . وظنى أنه إذا استثمرت أموال المسلمين فى أرض المدينة وغلاتها زادت خيراتها أضعافاً مضاعفة ووفت بجارات سكانها أو كادت .

إن الحرم المدينى والمدينة كلها أهلها ودورها ومساجدها وطرقها وساحتها، كل أولئك يدعو المسلمين إلى التعاون على الخير، والاجتماع على العمل الصالح الذى يجعل طيبة بلدأ معموراً أهلاً ، منسق الدور والطرق ، ميسر الطعام والشراب، موفور وسائل الصحة — العمل الصالح الذى يجعلها مباءة علم يؤمها بعض الطلاب من أرجاء الأقطار الإسلامية لتؤلف بينهم الثقافة الإسلامية المشتركة ، وتحفزهم إلى خير الإسلام والمسلمين الآراء المتداولة ، ويدرسوا تاريخ الإسلام فى مواقعه . وليت المدينة تصير مقصد المسلمين من أقطار الأرض يفرون إليها فى الحين بعد الحين ليجدوا سلام أنفسهم وطمانينة قلوبهم وصحة أبدانهم، فيذهب إليها أغنياؤهم وأمرأؤهم كلما ملكوا الفرصة للاستراحة قليلاً من ضوضاء الحياة ومفاسدها .

لن يبر المسلمون دينهم ورسولهم وأنفسهم حتى تسخو أيديهم بالمال ، وتجتمع عقولهم وأعمالهم على الإصلاح . والله يهيب لهم من أمرهم رشداً ويهديهم للتى هى أقوم .

من ذكريات أوربا

١ - على بحيرة وندمير

إقليم البحيرات في انكلترا من أجل بقاع العالم . سافرت إليه من مدينة بلاك پول فبلغت وندمير ، وهى مدينة صغيرة قامت على بحيرة وندمير . وقد نعمت بجولات بين المدينة والبحيرة والمروج . ثم يمت شطر البحيرات الأخرى فى سيارة كبيرة مع جماعة من السائحين ، فررنا بمنظر رائعة من جبال وأودية وشلالات حتى بلغنا بحيرة كرك أكبر هذه البحيرات ، فاسترحنا عندها . ثم برحناها نطوف فى هذه البقعة الجميلة ونرى بحيرات أخرى . ثم عاودنا كرك فى طريقنا إلى وندمير ، ومررنا بقبر الشاعر الإنكليزى شاعر الطبيعة وِردلِ وِرت .

وبلغنا غايتنا فى العشى وقد انطوت النفس على ذكرى يوم من الصور الرائعة والمناظر الجميلة الجميلة ، والسرور والمرح . وكان لى جلسات على بحيرة وندمير فيها للفكر والقلب مجال ، وللنفس انبساط واتقباض .

وقد دونت مما جال فى النفس إذ ذاك هذه الكلمة .

على بحيرة وندمير^(١)

الآن أيتها البحيرة اجلس على شاطئك وحيداً لأبعث في ثناياك
خيالاً مع الخيالات التي تمر عليك ليلاً ونهاراً . وليت ضوضاء الناس
تتركني لنفسى لأحدثك حديث القلب ، وأبثك ما في الضمير . أنت مأبجة
بين جبالك المحضرة ، وضفافك النضرة ، قد أقام الربيع عليك أعراسه ،
وأمر الشباب عليك أنفاسه ، فإذا أنت مرآة تطالعها كل ناضرة
من الزهر ، ومائسة من الشجر ، وكل جميلة من البشر . نخبرني - والشتاء
يقترّب - كم أقام الشتاء مأتمه على ضفافك ، وأمات كل حياة حولك .
كم ضربك القر فسكنت ، وكم أمضك الزمهرير فجمدت ! كذلك أنت
أيتها البحيرة الجميلة في نعمائك وبأسنائك ، بين ربيعك وشتائك ،
منذ انبجس بك العهد المجهول إلى أن يغيب بك الزمان .

حديثيني أيتها البحيرة كم طوت أحشاؤك أخيلة على أخيلة كما خط
في القرطاس سطر على سطر ! كم شهدت صفحتك من جذلان ومحزون وممتع
بالحياة ومغبون ؟ كم شهدت من قلب اللقاء الحبيب خفاق ، وآخر يمزقه الفراق ؟
وكم رأيت إنساناً كالعصفور متنزياً يملأ الهواء بالأصدا ، وآخر واجماً يطالع
فيك صورة السماء ؛ برحت به الحقائق فأطرق إلى الخيال ورأى الحياة
ضلالاً في ضلال ؟ ليت شعري لو تفتحت صفحاتك عما حوت ، ونشرت

(١) كتبت على بحيرة Windermere في إقليم البحيرات شمالي غرب إنجلترا يوم

الاثنين ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٦

سريرتك ما طوت أتكونين على صفرك تاريخ الطبيعة والإنسان في السراء والضراء ، والبؤس والنماء ، والنضرة والذبول ، والمرح والخمول ؟ كذلك تمر أشباحنا سراعاً على مسرح الحياة تضطرب ظلالها على الأرض ، ويردد صداها الهواء ثم يزول الظل ويفنى الصدى ؛ ولكنك أيتها البحيرة أبقى على الزمن وأثبتت على الحن . فاضحكي من الإنسان أو فابكي عليه . ومهما تسخرى أو تترنى فاحفظي في صدرك مع الظلال المتراكمة المتراخمة المتماخية صورة فتى ركب الزورق على صفحتك وحيداً وخطاً على ضفافك فريداً ، وأطال الفكر في أرجائك ، وقلب الطرف في أرضك وسمائك . ولو شاء لأطال في وصفك وأسهب في شرحك فأضحك وأبكي ونظم من أمواجك أنغام الموسيقى الإنسانية التي لا يفتأ الزمن يعزف بها ، وصوّر في صفحتك صوراً شتى من النعم والحن

هكذا يتحدث إليك هذا الإنسان الفرح الحزين ، الناعم البائس . فليت شعري هل ترينه مرة أخرى ؟ سيفارقك عما قليل فاحفظي ذكره أو فانسى ، فإنه لا محالة زائل عن صفحات الحياة كلها ومن مكنون صدرك

إلى بثينة ومية :

أتدري بثينة أن أباه على شاطئ الماء من وندمير
تجنب كل الأنام وآوى إلى معزل لحديث الضمير
ولكن ضوضاءهم لم تدعه يتوب إلى قلبه المستطير

يرى الناس منى وجهاً غريباً كلفظ قد اعتاص بين السطور
 يرون فتى عربىّ السمات غريب الصفات كطير تقور
 وقد يعجبون بخط أنيق وفاتهم كل معنى كبير
 وما ضمّ سيفر حوت دفتاه عظات الحياة وسير الدهور

بثينة شوق له ثورة تبرّح بالنفس لفحّ السعير
 أمية كيف العُرام وكيف الدلال وما أنت بين البكا والسرور؟
 أمية رغم القواد بعاد وربك يعلم ما فى الصدور
 بنية كيف تمر الليالى وعهدى بحبك غير صبور الخ



٢ - من القاهرة إلى بروكسل

- ١ -

بنتى العزيزة بثينة

أحدثك عن رحلتى راجياً ألا تكلفينى ترتيب الحديث على ترتيب
المشاهد؛ فإنما هى فرص تنتهز. فسأبدأ بالحديث عن سويسرة قبل الحديث
عما رأيت فى الطريق إليها .

أكتب إليك من قرية فى قم جبال سويسرة الشاخنة اسمها برجنشتوك
وقد أضحى النهار ، والدَّجْن مُطبق ، والجو بارد ، أحس منه مثل ما أحس
فى شتاء مصر إذا قرس ، وأنا أضع قلمي بين الحين والحين لأعرك كفى
إحداهما بالأخرى حتى أحسن إمساك القلم . فستان ما بينى وبينكم ؛ شتان
ما بين حلوان و برجنشتوك !

لا تقع العين هنا إلا على خضرة أو زُرقة أو بياض — خضرة العشب
الأثيث والشجر الكثيف ، وزرقة السماء ، إذا تصحو ، وزرقة البحيرات
ترى من قم الجبال بعيدة بعد السماء وبياض السحب .

تسألين : ما الذى أحلك هذه القرية الباردة فى تلك القمم العالية ؟
نزلت أنا وزميلي الأستاذ أحمد أمين مدينة لوسرن من سويسرة ،

وأردنا أن نركب في البحيرة : بحيرة لوسرن إلى مكان قريب . قليل :
كرستين . فقصدها على باخرة صغيرة بين مناظر معجبة بل مدهشة من
جبال تخالط قممها السحب ، ويزين سفوحها حلال من الأشجار ضافية
في الماء . وتطل في مرآة البحيرة منازل متفرقة أو قرى صغيرة كأنها
أعشاش الطير بين أفنان الدوح .



منظر على بحيرة لوسرن

بلغنا كرسيتين بعد أربعين دقيقة ، فنزلنا لنجول فيها قليلاً فإذا
شاطئ ضيق بين الماء والجبل ، فيه فندق ومطعم ودور قليلة ، وإذا الناس
يجمعون عند السفح ، وإذا مراكب عجيب مدت أمامه قضبان من الحديد
ولكن إلى أين ؟ إلى ذروة الجبل الرفيعة التي يكاد الطرف يعيا دونها .
مدت القضبان على السفح ، وأعد هذا المراكب على شكل لا يميل راكبه
مع انحدار الطريق بل يجلس مستوياً كأنه في قطار عادي . ويجذب هذه

« المرقاة » جبل من حديد مفتول فتصعد خمس دقائق في طريق ضيق عن يساره الجبل ، وعن يمينه مهوى هائل إلى الحضيض . انتهى بنا هذا المرتقى الخفيف إلى مكان به فنادق عظيمة وطريق ضيقة معبدة ، فسرنا نتأمل جمال الخليقة وجلالها حتى راقنا مكان قصي على سفح أخضر ؛ فصعدنا إليه ، وأخذنا حظنا من الراحة والتأمل والتعجب . وكان معنا طعامنا فطعمنا .

وسرنا إلى سرقب يُطل على البحيرة يعلو على البحر ثلاثة آلاف وأربعمائة قدم ، جلسنا قليلاً ولحق بنا جماعة من السائحين الأمريكيين معهم امرأة تدلهم الطريق والتاريخ . وقفت وحفوا حولها فقالت : « هنا منظر من أروع مناظر العالم ؛ هنا سبع بحيرات ؛ إلى اليسار بحيرة سمباخ . ولها صيت في تاريخ سويسرة ؛ هنا كانت حرب بين النساويين والسويسريين الذائدين عن بلادهم ، وكان الأولون مثلي الآخرين عدداً . فلما أعت السويسريين الحيل تقدم واحد منهم إلى معسكر العدو فجمع من رماحهم ما استطاع وهم بالرجوع لولا أن أدركه العدو فقتله . وتحمس قومه وحاربوا حتى ظفروا . هذا البطل اسمه « وينكيل ريد » .

ومضت في حديثها عن البحيرات . وقد رأيت اسم هذا البطل على إحدى البواخر الماخرات في البحيرة .

وقرأنا في لوحة هناك أن على مسيرة عشرين دقيقة مصعداً هو أعلى المصاعد وأسرعها في أوروبا . يصعد خمسمائة وستة وخمسين قدماً . فسرنا



Abendstimmung vom Bùrgenstock

« المصعد »

فى طريق بين الأشجار الباسقة تلوح من خلالها زرقة السماء وزرقة البحيرة وقد تتابعت الأشجار على السفح هابطة وإن الواحدة منها ليرى جذعها مُستغلاً بعيداً على السفح وتبدو ذروتها مُعتلية مُشرفة فوق الطريق . وهذه الأشجار السامقة ترى من الحضيض كأنها أعشاب على السفح أو شجيرات .
واتهى المسير إلى المصعد ، فإذا قضبان محكمة على جانب الجبل يصعد بينها هذا المصعد وينزل فى دقيقة . يصعد فى جوف الجبل حيناً ثم يبدو بين جدارين ناتئين من السفح ، ثم يظهر معلقاً فى الألواح كأنه طائر يحاول ذروة شاهقة .

بدا لنا أن نترك لوسرن لنقيم فى هذه الناحية أياماً . فسرنا نرود المكان وفنادقه حتى وقف بنا الاختيار على فندق صغير منفرد هو أقرب مكاناً ومنظراً إلى الريف منه إلى المدن . فقلنا : هذا منزل حسن ...
ماذا نصنع بالمدن وهى متشابهة فى العالم كله ؟ وماذا نرى فى الفنادق الكبيرة وهى لا تختلف بين مدينة وأخرى إلا قليلاً ؟ هنا نظفر بالهدوء والسكون ، وتقرب من الغابات والحقول ، ونرى من عادات القوم ما لا نرى فى لوسرن .

وجاءت الخادم تكلمنا بلغتها وهى لا تعرف لغة مما نعرف . ففتاهمنا بالألفاظ المتقاربة بين الإنكليزية والفرنسية وبين السويسرية . ولحنا فى جانب الحجرة رجلاً أشيب فأشرنا إليه ليكلمنا فأشارت الخادم أنه أصم فقلت : « كالمستجير من الجرساء بالصمم » .

أخذنا بعض متاعنا من لوسرن إلى برجشتوك . وبلغنا الفندق حين

الغداء (والساعة اثنتا عشرة وربع) دخلنا قاعة الطعام فإذا امرأتان ليس في القاعة غيرهما . وقد أعد لنا الطعام معهما ، وليس بيننا لغة إلا الإشارات وكلمات حائرة بين ما نعرف وما نعرفان من اللغات . وقدم اللحم فرابنى بياضه . فأشرت : أى لحم هذا ؟ قالت إحداها كلاماً وحكت صوت الخنزير — وهذا الخنزير يخيفنى حيثما حللت من أوروبا — أشرت أننا لا نأكل الخنزير . قالت المرأة الأخرى لصاحبتها : إسرائيليان . قلت : لا ، لا ، لا ، ولكن المصريين لا يقطعون لحم الخنزير . فكانت حركة في الفندق وارتباك . ثم قدم لنا لحم البقر سريعاً ، وفي العشاء قدم إلينا الكاكاو وكثير من اللبن وعجة البيض وفاكهة مطبوخة . ورأينا القوم يأكلون العجة مع الفاكهة فعجبنا من اختلاف العادات والأذواق

استرحنا ثم نزلنا لنخرج فدعينا إلى شرب القهوة وقدم لكل واحد مع القهوة ملء كوب من اللبن الجيد . واللبن عندهم موفور لكثرة البقر وقرب مراتعها . وأصحاب الفندق أسرة من الفلاحين .

وكنا حين قدمنا هذا الصقع لأول مرة ، سمعنا أجراساً مختلفة لا تنقطع . فخرزت ، وصدق الحزر ، أنها أجراس في أعناق البقر أو الغنم . (وكنت رأيت في إصفهان من بلاد الفرس أجراساً في أعناق الإبل والثيران ، ورأيت البدو يعلقون جرساً في رقبة الكبش تهتدى به الغنم وتجتمع على صوته ؛ رأيت هذا في مضارب قبيلة شمر في العراق ، وعلمت أنهم يسمون هذا الكبش المريع) فلما استقر بنا المقام في الفندق أردنا

أن نجوس خلال الحقول لنرى البقر فى مراتعها . وكانت أجراسها تجلجلج
فى الأرجاء بين هذا الجمال الأخضر والجلال الرائع ، بل فى هذا المعبد
العظيم من الخليفة فكأنها أجراس المعابد !

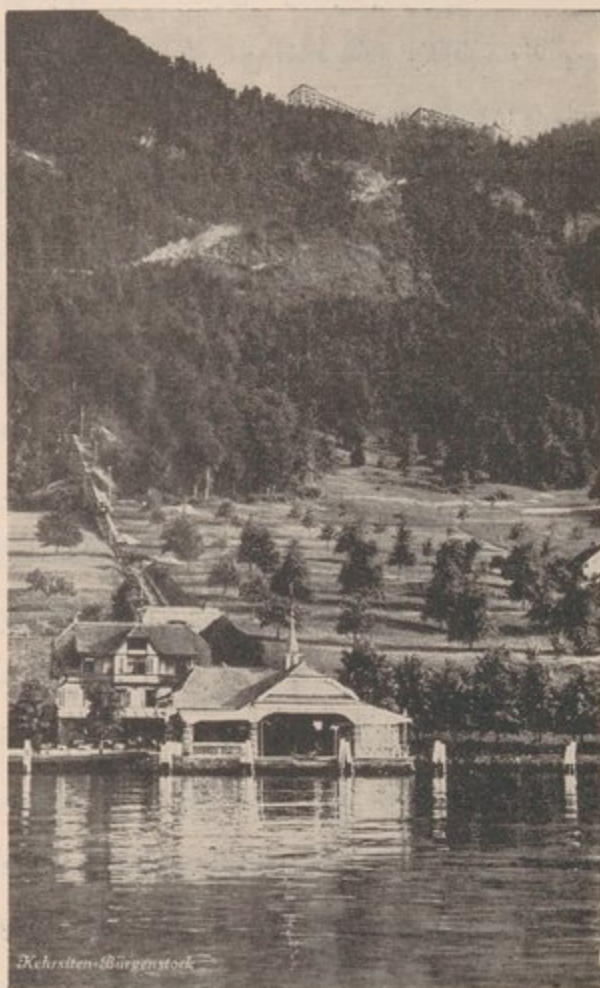
سرنا بين المروج فرأيناها مقسمة بمجواجز ، كأن لكل بيت مساحة
من المرعى ، ورأينا على الطريق أبواباً تمنع البقر أن تتجاوز مراعيها .
ثم رأينا بقرأيرعى وقد جعلت أجراسها على قدر أسنانها : للعجل جرس
صغير ، ولثنتى جرس أكبر منه ، وللبقرة الفارض جرس كبير كأنه القدح .
ورأينا حظائر للبقر تأوى إليها فى الشتاء ، وهى بيت من الحجر فيه قنوات
لسيل الماء ، وعنده حوض لشرب الدواب ، وفوقه بيت من الخشب
يوضع فيه الحشيش وأدوات الفلاحة . وتجعل الحظائر بجانب مكان عال
ليتسنى دخول عربة الفلاح إلى الطبقة العليا . وبيوت الفلاحين جميلة
المراى يتجلى فيها النظافة والترتيب والنعمة . وكم تمنيت أن يكون لفلاحنا
بعض ما لهؤلاء .

ورأينا على الطريق نصباً عليه صليب ، فاقتربنا منه فإذا حجر واحد
نحتت فى أعلاه طاقة عليها شباك من الحديد . فاطلعنا فيها فإذا صورة
قديس وقديسة . ورأينا امرأة مرت بهذا النصب فوقفت قليلاً تتعبد ،
وكأن كل من يمر بهذا الطريق يقف هناك وقفة للعبادة . وكذلك رأينا
بجانب الفندق بناية صغيرة يعالوها صليب ، فاطلعنا فيها فإذا معبد يتسع
لنفر قليل . وحسبناه معبد الأسرة التى تقوم على الفندق . وهكذا يحرص

القوم على دينهم ويتوسلون إلى العبادة بكل الوسائل .

وأما الفندق فهو مثل من نشاط القوم ونظافتهم ونظامهم . هناك أم كثيرة الأولاد قد أحسنت تربيتهم ، ومنحت من قلبها ويدها ما جعلهم قرة عين الرأى صحة وجمالاً ونظافة . وهي قائمة على الفندق تعينها خادم واحدة لا ترى إلا ساعية أو عاملة أو متكلمة أو ضاحكة . وقد تبوأَت الأسرة بعض الفندق وجعلت للنزال بعضه ، ولم تنس حقها ولا حق النزال من رفاهية ومتاع . وأنا أكتب الآن وقد جاء صبي من هذه الأسرة يطرب الحاضرين بموسيقاه . وهكذا يبدو النشاط والمرح والسرور ليل نهار وحول الفندق أشجار الفاكهة ومزرعة صغيرة عليها سياج . ومن هذه الأشجار وهذه المزرعة فاكهة الفندق وبقوله يجنيها الأولاد كما تأمرهم الأم وأحدثك مرة أخرى عن روعة هذا الصقع فقد بدا لي أن أعود إلى هذا الحديث :

خرجنا عصر اليوم فسرنا إلى المصعد الذى وصفته آنفاً فى طريق ضيقة نحتت على سفح الجبل يُنِيف فوقها جبل شامخ وتبدو تحتها هوة هائلة . فلما جاوزنا المصعد تمادت بنا الطريق صاعدة فى السفح تخرق الجبل بين الحين والحين إذا لم تجد على السفح منفذاً . فلما أعجز القوم النحت فى مواضع من هذا الطود العاتى الأشمّ مدّ الطريق على دُعم من الحديد مثبتة فى الجبل فترين السائر معلقاً بين السماء والأرض على هذه الشقة الضيقة حتى يبلغ الغاية وقصارى القول أن تسخير الإنسان للخلقة ، سهلها ووعرها وصعبها



قرية كرسيتين على بحيرة لوسرن

وسهلها ، وشجرها وزرعها ، وبرّها وبحرها ، يبدو للسائر هنا في كل خطوة بل لست أدري أقول : هنا جهاد الإنسان والخلقة أو اصطلاحهما على العمل والسعادة ؟

ولا أنس جلسة في العشيّ ونحن عائدون إلى الفندق وقد جَلَل الضباب الخليقة ، وأطبقت السحب وأسفّ بعضها دون القمم ، وتتابعت على العين قمم الجبال تسيل منها النضرة والجمال على السفوح ، والمساكنُ والفنادق منشورة في هذه المرائى المدهشة ! منظر لا يمكن وصفه ولا يدركه إلا من يراه ! لا ينقص هذا الجمال إلا أن تكوني أنت وأخواتك معي فأرى دقائقه بأعينكن ، وأسمع بيانه البليغ من أفواهكن . فليت ثم ليت !

٢ - في السفينة

بنيّة العزيزة بثينة

لعل رسالتى الأولى بلغتكَ فسرّتكَ . وهذه رسالتى الثانية : قلت لنفسى وأنا على الباخرة « محمد على » : قد ركبت هذا البحر بحر الروم أربع عشرة مرة فلماذا لم يوح إلىّ شيئاً ؟ لماذا لم أصفه أو أصف حالى فيه بكلمة ؟ إننى حين أسافر إلى الشام أو العراق أو الحجاز أو تركيا أو إيران أكتب عنها جهد المقلّ ، وعلى قدر ما يواتبنى البيان وتأذن لى المشاغل . وإن لم أكتب أظنّ راغباً فى الكتابة ، وتبقى فى نفسى معان تودّ الإعراب عن نفسها ، أحدث بها نفسى وأصحابى بين الحين والحين . فلماذا لا أكتب عن البحر الأبيض وأوروبا ؟

قالت نفسى بعد تفكير طويل : أنت رجل عصبي قد ملأ نفسك التعصب لقومك العرب ولدينك الإسلام فلست تبالي بغيرهما ، ولا تستلهم البيان إلا منهما .

قلت : هذا حق ؛ ولكن يحسن أن تصوّريه صورة أخرى ؛ أخرى بك أن تقولى : إنك حينما ذهبت فى بلاد الشرق وجدت قومك ولغتك وتاريخك وآثار أسلافك فتفرح أو تحزن ، وتنبسط أو تنقبض ، ويجول فكرك بين الماضى والحاضر فأخيراً أو خجلاً ، راضياً أو ساخطاً ، داعياً أو ناهياً الخ . ولكن أوربا وأهل أوربا ليس بيننا وبينهم من سبب إلا ما أصابنا منهم وإلا هذا الجلال الدائم بيننا وبينهم .

قالت : ألا تكون مرة إنسانياً تسمو على العصبية وتخرج من هذه الدوائر الضيقة ، وتنظر إلى الإنسانية فى سعتها ، والحقائق فى شمولها ، والعالم فى جملته ؟

قلت : قد سألت السبب فأبنت لك الحق ، وصدقتك الجواب ؛ فأما الإنسانية والعصبية فموضوع آخر . لا أريد أن أكدر على نفسى صفو هذا السفر الممتع فى هذا الجوّ الصاحي والبحر الساجي ، بالكلام فى الإنسانية والعصبية وما يتصل بهما ؛ فهذا كلام إن عرف أوله لم يعرف آخره .

على أنى — وحقاً أقول — أحسن الآن فى نفسى معانى كثيرة يلهمنى إياها هذا البحر العظيم الذى نبتت حضارة الإنسانية على شواطئه ، وحوّت

أعظم وفائع البشر صفحاته ، ولا يزال تاريخ البشر يسكن إذا سكن ويهيج إذا هاج . كم وعى التاريخ من حادثات على سواحل هذا اليم العظيم وعلى أمواجه !

ألم يكن للعرب فوق هذا البحر سلطان أعظم من لججه ، وعزيماته أهول من أمواجه ؟ إن دولتهم لم تبلغ من عمرها خمس عشرة سنة حتى طمحت إليه ، ومدت سلطانها عليه ؛ ولم تبلغ العشرين حتى جالدت الروم فيه ، وحطمت أساطيلهم بأسطولها ، وشهد العالم أعجب وقائع البحار : العرب الذين لم يعرفوا إلا الإبل سفن الصحراء ، يغلبون الروم في بحر الروم ! أجل ، هنموهم في موقعة ذات الصواري سنة إحدى وثلاثين . ثم فتح العرب الجزر الشرقية ، ثم سارت من بعد أساطيل بني الأغلب لفتح صقلية فاستولوا عليها حقاً طوالاً ، ثم ...

قالت نفسى : قد انتكست في العصبية فانفسح لك مجال القول وانطلق لسانك تُشيد بالعرب ومجد العرب . ألم أقل إنك عصبى ؟ ألم أقل إنك عربى مسلم متعصب ؟

قلت : إن هذا لأمر عجب ! إن ذكرت تاريخ قومي كان هذا عصبية ، وإن رويت تاريخ غيرهم كانت إنسانية ؟ أليس قومي من البشر فتاريخهم للبشر تاريخ ؟

لقد جاوزنا البارحة جزيرة كريد التي سماها العرب إقريطش وكان لهم فيها دُول وغير . أفتلزمى الإنسانية أن أذكر كل من ملكوا هذه

الجزيرة إلا العرب ؟ ليست العصبية أن أذكر قومي وأشيد بما آثرهم . وليست الإنسانية أن أنساهم وأغشط حقهم وأعق تاريخهم ؛ ولكن العصبية أن أتزيد في القول فأحمدهم بما لم يفعلوا ، أو أتخيف غير قومي فأبخسهم ما فعلوا . فأما أن أذكر الحق وأروى الصدق ، فحق على الناس جميعاً وهو لقومي أحق ها هو ذا مضيق مسينا قد اقترب ، والسواحل عن يميننا وشمالنا تشتعل بالأضواء المتلألئة ، والمصاييح المنثورة بين السواحل والجبال . وهو ، ونور الحق ، وجمال الشعر ، منظر رائع جميل في هذا الليل الساجي . والباخرة تشق طريقها متمهلة تأخذ ذات اليمين مرة وذات الشمال أخرى ، تتحرى سبيلها بين شعاب البحر وصخوره . والمنارات تومض وتخبو ، تهدي السفينة طريق النجاة وتحذرها مواطن العطب . لشد ما تعجبني وتملا نفسي غبطة هذه الحضارة الوهاجة ، والمدنية المضيئة ! وشد ما أرجو الخير للناس جميعاً في ضوء هذه الحضارة ! ولشد ما يؤلمني ويملا نفسي أسفاً أن أذكر أن في طي هذه الحضارة دمارها ، وأن تحت هذه الأنوار نارها ، وأن هذه المياه وهذه السواحل وما وراءها يبيت للحضارة شراً ، ويريد بها أمراً نكراً . ليت الناس يدركون السلام ، ويعرفون الوئام ، فلا يبنوا ليهدموا ، ويعمروا ليدتمروا ...

إن السفينة تتجه شطر الشمال الآن . وها هو القطب أمامنا وبنات نعش الكبرى قد دارت إلى الشمال وهوت قليلاً نحو الأفق . ونحن الآن في المضيق . فهذه إيطاليا إلى اليمين ، وهذه صقلية إلى اليسار . أستطيع

أن أمرنا هنا ، إنساناً أو شيطاناً ، فلا أذكر قومي في صقلية وسواحل أوروبا وأفريقية ، وما كان لهم من مجد مؤثّل ، وغزة قعساء ، ثم أذكر ما يحل اليوم بساحتهم في أرجاء العالم من العذاب والخراب ؟ أأذكر طرابلس أم أذكر المغرب أم أذكر فلسطين ؟

... إن قلبي يكاد يوحى إلى لساني لعن هذه الحصار . إني أتخيل الآن ذلك الفقيه أسد بن الفرات يقود جيش الأغلبية على لجج البحر لفتح صقلية ، وهو يحمل قلباً أبرّ بالإنسانية والحصارة من قلوب أبناء عصرنا . قالت نفسى : لا تغضب إذا ذكرت أن العصبية جاوزت بك الحق . أتري أسد بن الفرات وأساطيله شيئاً مذكوراً بجانب هذه المدنية الخلاقة التي تذكرك بها هذه السفينة الكبيرة تمخر عباب البحر في ظلمات الليل لا تبالى أهاج البحر أم سكن ؟

قلت : لم أتكلم عن الصناعة والعلم ولكن ذكرت الرحمة والبرّ بالناس ، والعمل لإسعادهم والإخلاص في إنصافهم ، والدعوة إلى المؤاخاة بينهم ، والتواضع للحق ، والبعد من الزهو والإعجاب والفخر والكبرياء ، ومراقبة الله في خلقه .

وبعد فقد جاوزنا المضيق وتركنا صقلية كما ترك الزمان تاريخ العرب . فأريحيني من هذا الجدال ، وانظري إلى السماء والماء ، واستشعري شيئاً من الصفاء والسلام .

وبعد فيا بنيّ العزيزة ! قد أخذت القلم لأصف لك بعض ما رأيت

بعد أن فارقنا السفينة ، وأحدثك عن سفرى من جنوة إلى لوسرن
في سويسرا ، ولكن سبق إلى حديث البحر وتبعه القلم ، ولست أجد
الآن فراغاً لإطالة الحديث . فحسبك هذه الفبذة في هذه الرسالة . وعسى
أن أجد عما قليل فراغاً للرسالة الآتية . وأحسبها ستكون رسالة أختك مى
لا رسالتك . والله يحفظك ويرعاك والسلام .

٣ — من جنوا إلى سويسرا

بنتى العزيزة مية :

لم أجد قبل اليوم فراغاً لأحدثك عن مشاهدى في السفر إلى برُكسل
ولولا وعد سبق في رسالتى إلى بثينة لوجدت من مشاغلى عذراً وأخرت
الكتابة حيناً .

بلغنا جنوة ظهر الأحد ٢٥ جمادى الآخرة (٢١ أغسطس) ، فبدت
المدينة مطلة على خليجها بين أمواج البحر وقمة الجبل . وما راقنى مرآها
ولا راعنى ، ولكنى حينما دخلتها رأيت مدينة نظيفة فسيحة الطرق رفيعة
الأبنية يلفت الوافد إليها ضخامة البناء ورفعته ، لها على البحر شارع طويل
تفضى إليه شوارع أخرى ذات بهاء وضخامة .

ولن أحدثك عن شىء في هذه المدينة إلا شيئاً واحداً لا يخطر ببالك
أنى أحدثك عنه : سمعنا ونحن على الباخرة أن مقبرة جنوة ومقبرة ميلانو
جديران بالزيارة . ثم نزلنا إلى المدينة مزمرعين أن نبئت بها لنستجِم ونستعد

للمرحلة الثانية . وغادرنا الفندق في العشيّ نجول في الأرجاء ، وبدأ لنا أن نسأل عن طريق المقبرة .

ثم عنّ لنا أن نركب تراماً فنذهب معه إلى منتهى مسيره لنرى بعض جوانب البلد . ركبنا فسالنا العاملُ : إلى أين ؟ قلنا : إلى نهاية الطريق . وبلغ الترام أطراف البلد وما زال حافلاً بالراكبين . قلنا : إن المكان الذى نسير إليه لشائناً . وإلا فما بال الناس لا ينزلون وقد أوشكنا أن نخرج من عمران المدينة ؟ ثم بلغ الترام غايته ، فإذا الناس يتجهون وجهة واحدة يؤمّون باباً رفيعاً واسعاً . قلنا : أتراها مقبرة المدينة ؟ ورأينا على جانبي الطريق باعة الأزهار ، وأبصرنا كثيراً من الداخلين يحملون طاقات من الزهر فغلب على ظننا أنها المقبرة . ثم ولجنا الباب فإذا هالات من الأزهار مسندة إلى الجدار ، ثم ولجنا باباً آخر فإذا مدينة الأموات : ماذا عسى أن أصف من مقبرة جنوة الهائلة ؟ أصف لك بعض ما وعيت منها ، والذى وعيته بعض ما رأيت . ولم أر المقبرة كلها ...

هناك جبل عال بنيت المقبرة في حضيضه وسفحه ؛ في الحضيض ساحتان متصلتان بينهما جدار ، يحيط بكل ساحة منهما أروقة عالية سمكة الجدر رفيعة العمد . فأما الساحة فقد نظمت فيها صفوف كثيرة من القبور تحنو عليها الأشجار وتعطف الياحين . قبور بيضاء تختلف أشكالها وما عليها من تماثيل وصور ، ويجمعها معنى واحد هو الفناء ، بل معنيان : الموت الهامد تحتها ، والحشرات المرفرفة فوقها .

وأما الأروقة ففي أرضها بلاطات نقشت عليها أسماء وتواريخ دلت على أن تحتها أجساماً وتواريخ . وفي جُدُرِها صفوف من النواويس الحجرية تتخلل الجدران بعضها فوق بعض ، قد انطبقت على أسرارها ونطقت بمواعظها وعبرها ؛ وبجانب الجدران نواويس أخرى من الرخام والمرمر افتنّ النحاتون في تشكيلها ونقشها وإقامة التماثيل عليها — تماثيل الموتى والقديسين والملائكة ، وتماثيل لآمال الناس وآلامهم على ظهر هذه الأرض بين المولد والمات . وكأنما يمشى الزائر في متحف ازدحمت فيه التماثيل والصور وبدائع الفنون . وإلى هذا وذلك قناديل معلقة تبصّ فيها القتائل أو فوانيس صغيرة يخفق فيها الشمع : مناظر إذا تقصّاها المعتبر أو اللاهى أمضى نهاره دون أن يحصيها .

فإذا صعد الزائر على السفح وجد قبوراً أضخم أو حُجَراً تلوح من أبوابها القبور والتماثيل ، أو دهاليز نظمت فيها قبور وهياكل ، وكنائس في أطراف هذه الصفوف ؛ ثم إذا صعد رأى نظاماً آخر من القبور والفنون حتى يملّ أو يتعب فيهبط وهو يصعد الطرف في هذا الجلال والجمال ويرجع أدراجه إلى الخضيض ويعود إلى طريقته في الساحة أو تحت الأروقة حتى يخرج وهو يتلفت ليتزود من هذا الجمال في الموت ، والبقاء في الفناء .

جلّنا في المقبرة تسير أفكارنا أكثر مما تسير أرجلنا ، وتتلقت قلوبنا أكثر مما تتلفت عيوننا . خرجت قائلاً : ليت شعري أهنا موت أم حياة ؟

وأصبحنا يوم الإثنين مبكرين إلى المحطة فركبنا القطار إلى ميلانو
نجتاز طريقاً أخضر ممرعاً كثير الزرع والشجر والعشب حتى بلغنا المدينة
بعد ثلاث ساعات .



كنيسة ميلانو

نزلنا بميلانو فأضينا بقية النهار نجول في أرجائها ، ولم نر من مشاهدنا
العظيمة القديمة إلا الكنيسة الكبرى . وهي من عجائب الأبنية تبدو
في حُلّة من الرخام لم تعطل قطعة فيه من نقش أو صورة أو تمثال ، وتبدو
شرفاتها ومناراتها في صنعة لطيفة دقيقة كأنما يستقبل رائها دوحه من الرخام
وليس باطن الكنيسة أقل نخامة ورونقاً من ظاهرها . وهي فيما سمعت

من آثار القرن الخامس عشر . برحنا ميلانو صباح الثلاثاء نؤم سويسرة
فلما أجزنا حدودها أحسنا تغير الأرض شيئاً فشيئاً حتى تغلغلنا في مناظرها
الساحرة الرائعة : أودية وبحيرات تطل عليها جبال شاهقة ترقى العين فيها
معجبة بالخضرة الناضرة على سفوحها ، ثم ترقى فترى الجبل قد انتطق
بالسحاب وأوفت قمته عليه ، أو ترى القمة قد تغلغت في السحب فاخفتت
فيها ، وترى زرقة السماء بين السحب وذرى الجبال كزرقة البحيرات
في الحضيض فتسِفّ العين متمهلة على السفح كأنها تشفق أن تزل
إلى الأودية العميقة والبحيرات ، حتى تبلغ الماء وكأنما عادت به إلى صفاء
السماء وزرقتها . وترين الماء مندفعاً على السفح فإذا حاولت أن تعرفي أوله
رأيت هابطاً من السحاب كأن السحاب يسيل أنهاراً لا أمطاراً .

وقصارى القول في هذا الجمال الهائل أنه صلة السماء بالأرض ، وأنه
حيرة الطرف ، ومُتعة النفس ، وروعة القلب ، ومسرح الفكر ، وتجلّي
الخالق في جمال خليقته وجلالها ، في مشاهد لا ينتهى أولها إلى آخر .

ما أعجب هذا مجالاً لشاعر مُلمّهم أو كاتب مبین لو اتسع الوقت وأهل
السفر وانفرجت المشاغل عن ساعة يستملى فيها القلم الوجدان والخيال !
بلغنا لوسرن في ثلاث ساعات

ولعلّي أصل الحديث من بعد وإن لم أجد فراغاً للتفصيل والتطويل
لأجعله حديثاً ممتعاً شائقاً .

تحيتي ودعائى لك وللأخوات والأسرة كلها .



